العفيف الأخضر

التنظيم الثوري الحديث

مع ملفٍ «ما العمل؟»



دار الطليعة - بيروت

التنظيم الثوري الحديث

مع ملف

« ما العمل ؟ »

ترجمة ، محمد شعيرات

العفيف الأخضر

التنظيم الثوري الحديث

مع ملف

« ما العمل ؟ »

ترجمة : محمّد شعيرات

دارُ الطّليعة للطّباعة والنشر
بيروت

بيروت ـ ص.ب ١١١٨١٣

الطبعة الاولى
شباط (فبراير) ١٩٧٤

نقد التنظيم اللينيني

يحتل الاشكال التنظيمي اليوم كما كان يحتل دائما منذ ظهور البروليتاريا ومنظريها في القرن التاسع عشر مركز اهتمام الثوريين . وقد استغل ، وذلك ما لا مفر منه ، تجار الاديولوجيا بالمفرق عندنا هذا الاهتمام **تجاريا** واديولوجيا مقدمين للشباب الثوري الباحث بلهفة عن اداة تنظيمية تساعده على ايجاد مخرج ثوري من الازمة العامة امشاجا باليـة وانتقائية من الطقوس التنظيمية اللينينية نصفا والستالينية نصفا المطعمة هنا وهناك بآيات بينات من كتاب ليو تشاوشي «كيف تكون شيوعيا جيدا ؟»، بعد افراغها من كل ما كان فيها من حيوية بدائية ، على انها آخر كلمة تقال في «علم الثورة» الماركسي اللينيني الواثق من نفسه الى حد الغرور والاغترار على شاكلة فقهاء وكهنة العصور الوسطى الذين كانوا يجدون في الركود الشرقي والاطمئنان الاقطاعي مبررا لركودهم واطمئنانهم غير الواعيَّين . وهو ما ليس وضع فقهاء وكهنة الطقوس التنظيمية اليوم **لان** عصرنا لم **يعد لا عصر ركود ولا** عصر اطمئنان ، بل عصر اختمار ثوري ، العصر الذي يتمخض اما

عن الثورة التي ستدمر جميع مؤسسات وقيم العالم القديم واما انه سيتمخض، اذا اخلفت فيه الثورة للمرة الاخيرة وعدها، عن الفاشية. عن تدمير الانسان ذاته، ليس بالضرورة تدميرا جسديا بل ذهنيا. وما زال الخيار القديم الذي طرحه ماركس على الانسانية: تقدم نحو الاشتراكية او ارتداد الى الهمجية راهنا.

الاسئلة الجوهرية

تفاديا للسقوط في مستنقع رواة النصوص وشراح الطقوس التنظيمية، ربما كان من المجدي منهجيا وتاريخيا عند التصدي لموضوعة التنظيم طرح بضعة أسئلة جوهرية يساعد طرحها الصحيح على مزيد من الوضوح كما تساعد الاجابة عليها على اختيار شكل، مضمون، نمط تسيير وبرنامج التنظيم المطلوب:

● هل المطلوب ثورة اشتراكية قوامها **التسيير الذاتي الشامل** لجميع مرافق الحياة في المجتمع الثوري القادم الذي أطيح فيه بجميع اشكال استغلال الانسان للانسان وبجميع عاهات الاغتراب، ام المطلوب ثورة بيروقراطية قوامها **السيطرة البيروقراطية الشاملة** على جميع مظاهر الحياة في المجتمع الجديد اسما والقديم مضمونا؛ ثورة تعيد مأساة تحقيق التراكم البدائي لرأس مال رأسمالية الدولة التي لن تكون، (فضلا عن فساد جوهرها، في شروط عالمنا العينية: اشباع السوق الراسمالية واستعمار سلع الدول الكبرى لجميع اسواق العالم شرقيها وغربيها، متقدمها ومتخلفها)، الا مهزلة؟

● اذا كان المطلوب ثورة اشتراكية تكون فيها السلطة المطلقة والمباشرة بيد **المنتجين المباشرين** لا بيد البيروقراطيين الطفليين، فما هي الذات الثورية، القوة المادية التي تستطيع الاطاحة بالمجتمع

الرأسمالي القائم وتحقيق هذه الثـــورة ، هل هي ، اساسا ، البروليتاريا الصناعية والزراعية متحالفة مع الجماهير الراديكالية في المدن (الطلبة ، المثقفين ، الشباب الخ) ام هي الحزب ؟

● هل الحزب هو بديل الطبقة العاملة وحلفائها في قيـــادة الصراع الطبقي وبالنتيجة في قيادة المجتمع القادم كما تؤكـــد النظرية والممارسة البلشفية بوجهعام والستالينية بوجه خاص،ام ان الطبقة العاملة والجماهير الثورية لا بديـــل لها لخوض وقيادة الصراع الطبقي حتى نهايته : الثورة ، ولا بديل لها لتسيير المجتمع الثوري ؟ وفي كلمة هل الطبقة العاملة قابلة للاستبدال بالحزب ام انها طبقة لا بديل لها لا بحزب واحد ولا بجميع الاحزاب مجتمعة ؟

● هل ان هدف التنظيم هو ، من ألفه الى يائه ، هدف الطبقة العاملة ذاتها : سلطة المنتجين المباشرين المباشرة عبر سوفياتاتهم، وشعاره هو شعار البيان الشيوعي : «تحرير العمال من صنـــع العمال انفسهم» ، ام ان هدفه منفصل عن هدف البروليتاريا : اقامة دولة الحزب الستالينية وشعاره هو شعار ستالين : تحرير العمال ليس من صنع العمال انفسهم بل من صنع الحزب ؟

● ما هي علاقة التنظيم بالطبقة ، هل هي علاقة وصايـــة وأستذة ام هي علاقة حوار وتحريض راديكالي يعـــي اهميتـــه وحدوده في وقت معا ؟

● هل ان كينونة الطبقة العاملة مفصولة عن وعيها ، وبالتالي فان مهمة الروح القدس : الحزب ، هي ان ينقل اليها وعيها من خارجها ، ام ان وعيها كامن فيها كمون النـــــار في الصوان ، وخروجه من الوجود بالقوة الى الوجود بالفعل لا يتحقق الا فـــي معمعان الصراع الطبقي المرير والطويل ؟

● ما هو شكل التنظيم الثوري ونمط تسييره ، هل هـــو تنظيم مناف للمراتبية ويشترك جميع اعضائه في جميع مظاهـــر نشاطه ، ام هو تنظيم هرمي تخضع فيه المراتب الدنيا لاوامـــر

المراتب العليا ، تماما كما في الدول والثكنات ، ويخص فيه القادة انفسهم بالعمل الذهني ، عمل السادة ، فيما يخصون الكوادر الادنى والقواعد بالعمل اليدوي ، عمل العبيد ، وبالتصفيق من مقاعد المتفرجين السلبيين لمآثر القادة في «التطوير الخلاق للماركسية اللينينية»، وتبرير مناورات القادة وتكتيكاتهم الانتهازية امام الجماهير ؟

● ما هو شكل ومضمون ديكتاتورية البروليتاريا ، هل تعني: الغاء الاستغلال بجميع صوره والغاء البوليس ، تسليح الشعب وحل البيروقراطية باعطاء **كل** السلطة لمنظمات المنتجين المباشرين التي تجمع بين يديها بدون فصل سلطة التنفيذ والتشريع كما اوضحه لينين في **الدولة والثورة** ، ام تعني تطوير اجهزة القمع المركزية الاستبدادية ، نزع سلاح الشعب وتحويل البيروقراطية من شريحة تيقنوقراطية خدمة للطبقات القديمة الى **طبقة جديدة سائدة ومستقلة عن الطبقة العاملة وعن المجتمع كله** ؟ وباختصار هل المطلوب ديكتاتورية البروليتاريا ام ديكتاتورية الحزب على البروليتاريا ؟

اي حوار جدي بين الثوريين حول الاشكال التنظيمي لا ينطلق من طرح هذه الاسئلة والاجابة عليها بغير تحايل او حسابات حقيرة سيحكم على نفسه بأن يظل حوار طرشان او بالاصح حوارا مضللا يغرق في التفاصيل ويتجاهل **الكل** ، ينطلق من الاخطاء الشائعة التي ترسخت بقوة العادة واجترار الكذب ليصل الى نفس النتائج التي برهنت تجربة اكثر من نصف قرن من الثورة والثورة المضادة، البيروقراطية على مدى خطرها على الحركة التاريخية . وبالتالي سيكون تجاهلا مكتوم النوايا لنقد البروليتاريا العملي ، عبر جميع ثوراتها الحديثة من روسيا ١٩٠٥ الى باريس ١٩٦٨ ، لاشكال التنظيمات الحزبية والنقابية القديمة البيروقراطية والقائمة على الفصل بين السياسي والاقتصادي ، بين المصالح اليومية والمصالح

التاريخية للطبقة الثورية ، او جهلا غير مقبول بهذا النقد العمالي العملي الذي يجب ان تكون له كلمة الفصل في المناظرات النظرية.

وهكذا لا يمكن طرح اشكالية التنظيم طرحا جديا الا اذا طرحت معها وفي ذات الوقت بنفس الجدية مسألة مضمون الثـــورة وشكلها . لقد كشف التاريخ الثوري ، العلم الوحيد الذي نعرفه ونعترف به ، منذ الثورة الانجليزية في ١٦٤٩ الى الثورة الصينية في ١٩٤٩ عن وجود علاقة جدلية ثابتة بين شكل التنظيم الثوري ومضمون الثورة ، لان الشكل انما هو دائما شكل مضمونه . وقد بات واضحا ، الا للمصابين باليرقان البيروقراطـــي ، ان تنظيما بيروقراطيا لا يمكن، اذا أعطيت له فرصة قيادة نضال العمال من اجل الثورة ، الا ان يعطي ثورة بيروقراطية ظافـــرة او **مهزومة** (وهذا الاحتمال الاخير غدا اليوم اكثر راهنية في عصر التواطؤ الكامل بين الدول الكبرى والتدخل الامبريالي السريع في اي نقطة من عالم الشعوب الصغيرة تتفق المخابرات ووزارة الخارجية على ان «النظام» فيها بات في خطر !) . وهذا ما برهنت عليه وقائع اكثر من نصف قرن .

لغة الوقائع ام لغة النصوص

نحن لا ندعي هنا كما فعل جميع الكهنة الستالينيين بأننـــا سنكون جهيزة التي تقطع قول كل خطيب . فهذه المقدمة ليست كلمتنا الاخيرة في التنظيم وليست بالاحرى الكلمة الاخيرة فيه . انما هي **حد أدنى** من نقد الاشكال التنظيمية القديمة ومن التعريف بالتنظيم الثوري الاممي الجديد الذي **تعلم** من تجارب البروليتاريا الثورية ، من انتصاراتها وهزائمها ومن خبرة جميع الثوريين خلال القرنين التاسع عشر والعشرين . ان ما نطمح اليه هو ان نطرح على

الفكر الثوري العربي بأن يفكر فيما لم يفكر فيه بعد ، بأن يخرج من دوامة طرح الاسئلة الخاطئة والمشاكل الزائفة لكي يطـــرح الاسئلة الصحيحة والمشاكل الفعلية التي تطرحها الحقبة التاريخية نفسها ، وهي لا تطرح الا المشاكل التي انضجت شروط حلها .

من نافلة القول التأكيد مرة اخرى بأننا لا نتقـــدم هنا كأئمة لنقول للقارىء : دونك الحقيقة وأمامها لا يسعك الا ان تجثو على ركبتيك . نحن لا نقول له انهِ محاولاتك ، ضع جانبا اختياراتك وحل تنظيماتك لانها حماقات ، وها نحن نقدم لك ، على طبق من ذهب ، الشعارات الحقيقية للتنظيم . كل ما نفعله هو ان نوضح له مدلول اختياراته التنظيمية من خلال وقائع وشواهد التاريخ **الفعلي** وأن نساعده على ان يعيد قراءة التاريـــخ الفعلي بأعين **جديدة وصاحية** ، وأن نوقظ وعيه الذي نومته الاساطير الجاهزة، شبه الدينية التي انتصرت، في ثورات القرنالعشرين البروليتارية، على الحقائق . فكما ان هذه الثورات جميعا قد هزمت فكذلـك هزمت معها حقائقها وسادت على أنقاضها اساطير الطبقات الظافرة. وسيرى القارىء ، الذي لم **تستهلك** المنوعات الستالينية السائدة وعيه النقدي والذي ليست له اهداف منفصلة عن اهداف الجماهير البروليتارية ، ان تدنيسنا لقداسة الاساطير المريحة قد جعله يمتلك كحقيقة تلك الرغبة المعادية للبيروقراطية التي امتلكها كأمنية . ما نطلبه من هذا القارىء هو ان **يفكر بنفسه** ليبرهن بوسائلـــه **الخاصة** على صحة او خطأ المشاكل التي نطرحها والحلول التـــي نقترحها .

اما أولئك الذين اقتنعوا مرة والى الابد اقتناع ضعاف العقول من الاتقياء بأن «ما العمل ؟» و«خطوتان» قد حلا بحسم جميـــع المشاكل وقدما جميع الحلول ، وأولئك الذين لا يستهويهم اكتشاف الجديد في الواقع والجديد في النظرية بقدر ما يستهويهم ترديد الاوهام القديمة وأولئك الذين لا يشرعون في اي نشاط نظري ــ

عملي جديد وان يتمون **بوعي** المآسي القديمة ، فحوارنا ليس معهم وتفكيرنا ليس فيهم .

اننا نتجه بتفكيرنا وحوارنا الى الثوريين الذين لا زالوا يتمتعون بشبابهم ، خاصة شبابهم الفكري، الذين يخوضون النقاش النظري الحقيقي حتى نهايته الطبيعية : الممارسة ، ويعطون من الاهمية للموضوعات النظرية التي تسدد خطى نشاطهم العملي وتنير طريقه بقدر ما يعطون من الاهمية لهذا النشاط العملي نفسه .

نطاق هذه المقدمة يضيق بالطبع عن تقديم جميع البراهين التاريخية على فساد التنظيم البيروقراطي الذي كان حتى الان وبالا على جميع الثورات العمالية في العالم . وقد كرسنا لهذا الهدف سلسلة كاملة: «ثورات البروليتاريا في القرن العشرين»(١). لكننا سنقدم باقتضاب الملابسات التاريخية للتصورين المتضادين حول الجوهري في التنظيم : التصور الماركسياني ، تصور ماركس نفسه ، والتصور البلشفي ـ اللينيني . وسوف لن نتوسع في عرض تصور ماركس التنظيمي حتى لا نقطع الطريق على قراءة هذه النصوص (٢) نفسها والتي سيصاب القارىء القنوع بخسارة اكيدة اذا لم يتابعها حتى نهايتها . لكننا بالعكس من ذلك سنعطي للتصور اللينيني ، مقارنا مع التصور الماركسي ، ونقده المساحة التي يستحقها في هذا التقديم وهذا الجزء من الكتاب (انظر ملف ما العمل) .

في نقدنا **التاريخي** للتصور اللينيني التنظيمي سوف لن

---

١ ـ صدر منها العدد ١ عن دار الطليعة : **الثورة البروليتارية الالمانية** . وأهمية هذه السلسلة تكمن في انها ستخرج النقاش من اطاره المثالي : فكرة ضد فكرة ، الى اطاره المادي التاريخي : وقائع ضد افكار .

٢ ـ في الاصل كان هذا الكراس مقدمة لنصوص ماركس انجلز عن التنظيم الشيوعي. لكننا اضطررنا في آخر لحظة لاصداره منفصلا .

نتحدث في وجه الذين يرطنون باللغة الروسية (١) اللغة الالمانية ، لغة ماركس وحسب بل سنتحدث ايضا **وخصوصا** لغة الوقائع التاريخية التي هي أفصح من ماركس لسانا وأصدق منه أنباء ، وقائع اكثر من نصف قرن من الثورات البروليتارية التي أرعبت سادة العالم القديم بيد ان رعبهم كان حتى الان عقابهم الوحيد ، والتي اطاحت بها ردات بورجوازية او بيروقراطية توسلت لذلك غالبا ما دعي ظلما أحزاب الطبقة العاملة .

لكن قبل الشروع في نقد الفكر اللينيني نفسه ، لا بد ، لكي لا نظلم هذا الاديولوجي العبقري ، من ان نفتح قوسين لنقد ، ولو نقدا خاطفا ، الفكر اللينيني ـ الستاليني العربي **الديني** اساسا والمصاب بهوس عبادة الجثث والنصوص . فهو يسأل ـ هذا عندما يسأل ! ـ النصوص بدلا من التاريخ ، بدلا من الحياة نفسها . فالنصوص الماركسية اللينينية مقدسة لا يرقى اليها الهمس وأحرى النقد . وما دار نقاش حول مشكلة راهنة من مشاكل الثورة الا احتكم المتناظرون ، تماما على غرار رجال الدين القدامى ، الى النصوص لا الى وقائع التاريخ ، الى اقوال القادة ، «صانعي

---

١ ـ في **الثورة الدائمة** ظن تروتسكي ان البروليتاريا الروسية الظافرة ستعطي لبروليتاريا الغرب نموذجا ثوريا جذابا يغريها بالثورة وبذلك تخلق فيها شغف تكلم اللغة الروسية مع عدوها الطبقي . صحت هذه النبوءة لكن بالمعكوس. فقد اعطى ستالين ، وهو هنا رمز لطبقة لا شخص معزول ، لبروليتاريا الغرب نموذجا ما زال حتى الان ينفرها من الإشتراكية المحقرة . وتكلمت معها احزابه لغته فلم تفقه عنها شيئا غير الخوف من خطر ثورة بيروقراطية تقودها بالسلاسل الى جنة كجنة ستالين ! وهكذا كانت الثورة المضادة البيروقراطية في روسيا عاملا هاما لتأخير الثورة العالمية في الغرب الصناعي .

التاريخ» ، لا الى ممارسة البروليتاريا الثورية التي ظن ماركس ، ماركس الذي يعامله اللينينيون ـ الستالينيون ككلب ميت، انها هي **وحدها** صانعة التاريخ . ليست الممارسة العمالية الثورية هي صاحبة القول الفصل عندهم بل النصوص . وويل لحقائق الحياة وممارسة الطبقة العاملة التي تتحدى قداسة النصوص ! لا بد ان يعاقبوها بالاضطجاع القسري على سرير بروكوست Procust النصوص ، فيقطع ما يفيض من رجليها على أطراف السرير الحديدي وتمط غلابا واغتصابا عندما تقصر عنها !

مهمة الماركسي اللينيني فردا او حزبا هي ان يشرح ، يبسّط ويفقر ما قاله ماركس وخاصة ما قاله خاتم انبياء البروليتاريا : لينين . اما ان يشرح **نقديا** ما قالته بلسان حالها ، بممارستها البروليتاريا نفسها ، فتلك هي الخطيئة الثورية ـ الدينية المميتة.

كشهادة على بؤس الفكر العربي اليساري يكفي ان نعرف ان الاستشهاد بلينين اضحى حجة دامغة تنوب عن **التحليل العيني للواقع العيني** كما عرف لينين نفسه الماركسية تعريفا صائبا . في الفكر اليساري العربي لينين تقمص شخصية الإمام البخاري عند اتقياء عصور انحطاطنا وما العمل تقمص دور صحيح البخاري . وهكذا ما زال الفكر اليساري العربي في ليل عصور الانحطاط . وتعلقه الابله ، وبأي اعتزاز ! بكلمة يسار ، هذا الاعلان الذي يلصقه على سلعه الرديئة ، دليل آخر وأخير على انه لا يتحدد تلقاء الثورة ولا يقيس قامته بالتاريخ ، بل يتحدد تلقاء اليمين ويقيس قزامته به .

اليسار واليمين هما جناحا البرلمان البورجوازي : **الجمعية الوطنية** الفرنسية في ١٧٩٢ حيث اخذ الجبليون مقاعدهم يسارا وجلس الجيرونديون يمينا . ونقيضهما معا هو الطليعة الثورية التي حسمت علاقاتها مع جناحي برلمان العالم القديم ، مع جميع فرقه

وجميع احزابه (١) .

لم يكن ماركس ينتسب الا للهدف النهائي : **الشيوعية** لا الى كنيسية او شيخ . وكان يحـــــذر من الانتساب الى الكنائس والشيوخ : فقد كتب الى هيندمان (٢-٧-١٨٨١) : « ينبغـي ، عند صياغة برنامج الحزب ، اجتناب كل ما من شأنه ان يؤدي الى استنتاج وجود **تبعية** واضحة لمؤلفين او لمؤلفات أفراد معينين» . ونعلم كيف انه صرخ في وجه صهـــره لافارج وأنصاره مـــن «الماركسيين» الفرنسيين الذين اتخذوا منه ، وهو بعد حي ، حجة علمية تسقط امام جبروتها كل الحجج : «على كل حال ، ما انــا متأكد منه هو اني انا نفسي **لست ماركسيا»** . وعلى كـل ثوري ان يصرخ في وجه عبدة النصوص والجثث والاوثان صرخـــة ماركس : لست ماركسيا بنفس المعنى الذي لـم يكن به ماركس نفسه ماركسيا ، ولا يمكن ان توجد سلطة كائنة ما كانت تستطيع ان تشل فكري النقدي او توقف ظهور الجديد في حركة التاريخ !

بعض الثوريين بنواياهم يقولون لنا بأن نقدنا للبلشفية صائب عموما ، لكن دعوا البلشفية تظهر اولا عندنا ثم سلطوا عليها هذا النقد المستحق . لكن ما فاتهم هو ان البلشفية **المتخلفة** ظهـرت عندنا ايضا بجميع منوعاتها الستالينية الاوربية ، الستالينيـــة الاسيوية ، الستالينية القومية ـ العربية . وما كان يمكن فـــي شروط الحقبة وشروطنا الخاصة ان يتكرر ظهورها الا في هـــذه الصور الكاريكاتورية . فما عاشته روسيا ١٩١٧ وصين الثلاثينيات

---

١ ـ نعت ماركس نظريته بأنها : ثورية ، نقدية ، بروليتارية ، مادية ، جدلية تاريخية وراديكالية . ولم يفكر ابدا في نعتها باليسارية . لان اليسار هو تاريخيا يسار اليمين ووجهه الآخر . والثوري ليس يساريا بل راديكالي . والراديكالي هو الذي يأخذ الاشياء من جذورها !

ثورة بيروقراطية حمراء عشناه نحن ثورات بيروقراطية بيضاء وكسيحة . وما عاشته البلشفية الروسية عملا عاشته البلشفية العربية وهما .

من الاكيد ان البلشفية العربية لا تمتلك زمام المستقبل كثورة شعبية لكنها قد تمتلكه ـ ورصيد التاريخ من المساخر لم ينضب بعد ـ كثورة قصر ، كانقلاب هنا او هناك على الطريقة التشيكية. ومن ثم فان نقدها عربيا حتى وان بدا غير راهن ـ وهو لا يبدو كذلك الا لمن لا يرى من ظاهرات التاريخ الا ظواهرها ـ فان اهميته ستكتسب راهنيتها عربيا في مستقبل منظور . اما راهنية واهمية نقدنا أمميا فهي لا تدعو حتى لمجرد السؤال . والنقد الراديكالي لا يكتسب صلاحيته وفعاليته الا اذا تخطى الحدود القومية ليعانق بعده الاممي . بل ان النقد الاممي انطلاقا من البلدان التي لم يزحف عليها ليل الستالينية هو ، في الشروط الراهنة ، اثمن تعبير عن التضامن الاممي الفعال : مع البروليتاريا التي تكابد ديكتاتورية البيروقراطية التوتاليتارية وتقاوم ـ سلبيا وايجابيا ـ من اجل تحررها الشامل ، من اجل استخدام الانتاج استخداما عقلانيا حرا لاشباع الحاجات الاجتماعية الحقيقية والرغباتالفردية المقموعة حاليا ، ومع الشباب المتمرد على الكذب السائد وايديولوجيا السادة بحثا عن امكانية تحقيق سعادته الكاملة في واقع حياته اليومية لا في احصاءات ، بيانات ووعود الدولة «الشيوعية» التي حولت حياته اليومية الى قفر رتيب ، ومع المفكرين الاحرار الذين يكابدون سطوة الرقيب المتربب ويحاربون، عزلا من كل سلاح الا سلاح الحق في الحياة المتحررة منديكتاتورية الاجهزة والاشياء ، ضد الافقار المطلق للغة الغنية ، ضد تحويلها الى بضع صيغ طقوسية رسمية ، الى مجرد اعلان معاد وظيفته ارغام الانسان على مكابدة واقعه الكئيب حتى الموت وابتسامة الاستسلام لا تفارق شفتيه ، ترويضه على التعايش السلمي مع

الاستعباد ، ومع الشعراء الذين يرفضون تأميم الشعر ، اخضاع الشعر للرقابة ، ومع الفنانين الذين بصقوا في وجه نظام بكامله ، جعلوا فنهم احتجاجا ناريا على وعد السعادة المغدور ، نفيا ذاتيا للواقع السائد ومطالبة عنيدة ، عناد الاطفال ، بعالم يحقق الفن في الحياة اليومية للجميع وكل **فرد** .

وعلى كل حال فكل ما هو جديد حقا وصدقا يبدو غير راهن للوعي الراهن الذي هو محصّلة الزيف والابتذال السائدين والذي يتخلف بعقد واحيانا بحقبة عن حقائق الحياة الراهنة وظاهرات التاريخ المعاش . وقلائل جدا أولئك الذين يستقبلون الجديد في الواقع والجديد في النظرية بالاحضان . وليس عجيبا ، والحال تلك ، ان نجد ماركس وانجلز يكتبان في ١٨٧٤ : «لقد كنا دائما وحيدين ومعزولين» ويفتخران في مناسبة أخرى بأن تكلمهما باسم الحزب البروليتاري حقا اعطياه لنفسيهما لكن ، ما يعطيه شرعيته، هو انه «مختوم بالحقد العام والخاص الذي تكنه لنا جميع فرق العالم القديم وجميع احزابه» وقلما وجدا ناشرا لآثارهما التي تركا اكثر من ثلاثة أرباعها مخطوطات لنقد الفئران القارضة . كل ذلك لان الجديد الذي قدماه كان متقدما على الوعي الراهن حتى عند جل ثوريي حقبتهم ، ماذا اقول ، بل حتى عند «ثوريي» (القوسان هنا ضروريان !) حقبتنا الذين يعاملون ماركس وانجلز ككلبين ميتين اخصب لينين ما كان لديهما من بذور صالحة ثم بلغ بها مرتبة الكمال واختتام الرسالة . ومن هنا فاللينينية هي اعلى مراحل الماركسية (هي في الواقع الماركسية عشية انهيارها) التي لا جديد بعدها لمجدد . كان للنظرية قبل لينين تاريخ اما بعده فلم يعد لها تاريخ . لقد غدت فوق التاريخ ، فوق الجديد وفوق النقد . وكل ما بقي ممكنا لثوريي جميع الحقب القادمة هو اعادة انتاج مبسطة للاديولوجيا اللينينية .

نظرية ماركس هي اساسا تحليل **نقدي** لما كان يدور امام عينيه

على ارض واقع الصراع الطبقي . لكن ما ان ظهر لينين ، ظهور يوشع على أسوار اريحا ، حتى توقف التاريخ عن الحركة على ارض الواقع مفضلا النوم العميق بين صفحات **ما العمل** ؟ و**مرض الطفولة** ! حقا لقد عميت العيون فما عادت ترى مما يدور أمامها الا أشباح الماضي ! اذا كان **البيان** في نظر ماركس ـ انجلز قد شاخ في بعض جوانبه بعد ٢٥ عاما فقط من صدوره ! فان «ما العمل» اصبح بقدرة قادر شابا على مر الحقب ! لانه لم يعد في التاريخ بل غدا بمعجزة **فوق** التاريخ ! وهكذا فنقد الحزب المركزي ـ البيروقراطي هو اقتراف لهرطقة التشكيك في عقيدة الثالوث الاقدس (الاب ـ الابن ـ الروح القدس) .

وبناء على ما تقدم وما سيأتي فمن لا يقترف بعد اليوم هذه الهرطقة لن يكون ثوريا أمميا ، وانما سيظل بيروقراطيا كسيحا سجينا في زريبة الاغنام التي مات راعيها وترك الباب مقفلا عليها.

التصور التنظيمي الماركسي

لنعد بعد غلق هذين القوسين الضروريين الى صلب الموضوع بادئين في رحلتنا للكشف عن الجذور المادية للتنظيم اللينيني بتقديم لمحة سريعة للتصور الماركسياني لمكانة كل من الطبقة العاملة والحزب العمالي لنعيد الاعتبار لبعض الحقائق الجوهرية التي زُوّرت .

نصوص ماركس في هذا الكتاب (١) بأجزائه تكذيب ليس أشد منه صرامة للادعاءات البيروقراطية حول « اديولوجيا ماركس التنظيمية »، ماركس الذي ظل طوال حياته عدوا محاربا للاديولوجيا من كل شاكلة وطراز ، لم يخترع اديولوجيا تنظيمية . انما قدم هنا وهناك على امتداد حياته مبادىء اساسية وتحليلات وسجالات ظرفية حول مسألة التنظيم الحزبي والنقابي . اذا كانت تحليلاته وسجالاته ـ خاصة حول النقابة ـ قد شاخت في معظم جوانبها،

---

١ ـ هذه المقدمة في الاصل كانت مرصودة لتقديم نصوص ماركس انجلز حول التنظيم . لكن رأينا الان من بعد غلاء الورق اصدارها في كراس خاص . سيليه كتاب ماركس انجلز .

فان المبادىء الاساسية للتنظيم ما تزال عموما (١) محتفظة بشبابها

---

١ ـ ماركس وانجلز ليسا فوق التاريخ بل‌هما نتاج التاريخ: نتاج البروليتاريا الامية التي ارتبطا لحما ودما بحركتها التاريخية ، هذه البروليتاريا التي كانت يومئذ تعيش شروطا مادية وفكرية منخفضة جدا بالقياس الى شروط البروليتاريا الامية الجديدة في حقبتنا . ماركس وانجلز انطلقا في بعض ممارستهما النظرية والحزبية من تلك الشروط الفعلية . انخرط انجلز في الحركة الشارتيـــة الانجليزية وهي حركة يغلب عليها الطابع الاصلاحي . وانخرط ماركس وانجلز في رابطة الشيوعيين وهي حركة متخلفة حتى عن الحركة الشارتية لانها كانت تتكون الى جانب اقلية من العمال الالمان المهاجرين من الحرفيين . ثم دخلا في الاممية التي كانت تضم جميع الاتجاهات المتعايشة في صلب البروليتاريا الامية ، حيث كان : «الوعي النظري للحركة شديد البلبلة في صلب الجماهير الاوربية اي في صلب الواقع» (انجلز) . وكانت الاديولوجيات الثورية البدائية البورجوازيـــة الصغيرة (اليعقوبية) والعمالية (البلانكية) الخ ما زالت لم تكنس بعد . بل ان عناصر من تلك الاديولوجيات قد تسربت للنظرية البروليتارية الجديدة نفسها .

من الرجعية والغباء معا التأكيد بأن ماركس وانجلز لو عادا اليوم لدافعا عن نواقصهما ، التي هي انعكاس جزئي لنواقص الشروط الفعلية ذاتها ، ولقالا لنا بلسان عربي مبين : لقد قلنا الكلمة الاخيرة في «علم» التنظيم وما عليكم الا ان تشرحوها وتمارسوها وكفاكم الله شر التفكير والتجديد ! ولينين نفسه اتراه لو عاد لقال للعرب : لقد تركت لكم كتابي «ما العمل ؟» لن تضلوا بعده ابدا ؟!

«لو» لا مكان لها في التاريخ . والاموات لا يعودون ، الا شر عـــودة ، : «ليحكموا من وراء قبورهم حياة الاحياء» (ماركس) . وعلى الثوريين الجدد منذ اليوم ان يشدوا أبصارهم الى الامام التاريخي لان الثورة الاشتراكية تستمـــد شعرها من المستقبل لا من الماضي . وان لا يتلفتوا الى الماضي الا مزوديـــن بمدفعية النقد الثقيلة . «ماركس ، على حد قول انجلز ، لم يكتب الوصايـــا القديمة ... ان تكونوا ماركسيين هو ان تحللوا الواقع بنفس العقلية الجدلية التي كان سيحلله بها ماركس ...» . فلنترك شرح الوصايا الماركسية ـ اللينينية للكهنة الجدد الذين لن يكون مصيرهم افضل من مصير الكهنة القدامى !

كنقطة انطلاق نحو أشكال أرقى من التنظيم الجديد ، كنظرية «**حسبها معركة الحركة التي يصنعها الشعب بنفسه**» على حد تعبيره لا «كنظرية فلسفية ـ تاريخية او مفتاح سحري عام» على حد شجبه هو نفسه لتشويه «الماركسيين» الروس لنظريته (رسالته الى ميخايلوفسكي ١٨٧٧) .

حجر الزاوية في الرؤيا التنظيمية الماركسيانية هو ان الطبقة العاملة هي حزب نفسها لان «**تحرر الطبقة العاملة هو من صنع الطبقة العاملة ذاتها**» (البيان الشيوعي) . لان تحرر الطبقة العاملة مهمة فوق وسائل حزب او تنظيم مهما كان . انها مهمة الطبقة العاملة ذاتها . والشيوعيون كما يؤكد البيان الشيوعي «ليست لهم مصالح منفصلة عن مصالح البروليتاريا برمتها» مصالح البروليتاريا **برمتها** هي تحقيق سلطتها الجماعية المباشرة ، السلطة الوحيدة التي تتعرف فيها البروليتاريا على نفسها وتحقق بها وفي اطارها تحررها الذاتي . وكل حزب «شيوعي» يسعى لتحقيق سلطته هو ، لا سلطة البروليتاريا برمتها ، هو حزب له مصالح منفصلة عن مصالح البروليتاريا برمتها . وهو اذن حزب معادٍ للبروليتاريا برمتها . وهكذا يجب ان نعامله . والشيوعيون كما يقول البيان ايضا «لا يشكلون حزبا متميزا في مواجهة الاحزاب العمالية الاخرى » (١) ، لان للطبقة العاملة احزاب لا حزب واحد (٢) . والحزب الواحد تقليد توتاليتاري ستاليني وليس ابدا ماركسيا.

---

١ ـ شعار ستالين «للطبقة الواحدة حزب واحد يمثلها» ليس لاماركسيا وحسب بل ومضاد للماركسية . انه بالفاشية اشبه !

٢ ـ «الشيوعيون ، كما يقول البيان ، لا يتميزون عن الاحزاب البروليتارية الاخرى الا في نقطتين :

فهم ، من جهة ، في مختلف نضالات البروليتاريين القومية يضعون في =

والاحزاب العمالية في تصور ماركس هي تعبيرات عابرة عن الحركة العمالية ، مجرد تعبير عام عن الحركة وليست الحركـــة ذاتها . وليست بالاحرى بديلا للحركة العمالية ولا قائدة لها . لان الحركة العمالية التاريخية كما تصورها ماركس وكما كانت وكما لا تزال في الواقع الفعلي المعاش تتجاوز جميع الشيـــع والاحزاب . و«الحزب **التاريخي** بأكمل معاني الكلمة» الذي تكلم عنه ماركس في رسالته الى فرايليجرات (٢٩ فبراير ١٨٦٠) يشير الى مجموع القوى التي بواسطتها يتجلى «نشاط البروليتاريا الذاتي» ، «تحرر البروليتاريا الذاتي» ، «والحكومة الذاتية للمنتجين» . وهـــذا الحزب ليس وليد ارادية بلانكية ، فهو لا يولد بقرار ارادي يتخذه

= المقدمة ويغلّبون **المصالح المستقلة عن الانتماء القومي والمشتركة لكل الطبقة البروليتارية . ويمثلون على الدوام** من جهة اخرى ، في مختلف المراحل التـــي يجتازها الصراع بين البورجوازية والبروليتاريا ، مصالح الحركة ككل .

الشيوعيون هم اذن ، عمليا ، احد فصائل الاحزاب العمالية العالمية الاكثر تقدما وحزما ، انهم الفصيل الذي يدفع دوما الى الامام جميع الفصائل الاخرى. وهم يتميزون نظريا عن باقي جمهور البروليتاريا بمزية الادراك الواضح لشروط، لمسيرة وللاهداف العامة للحركة البروليتارية .

هدف الشيوعيين الفوري هو نفس هدف جميع الاحزاب البروليتاريـــة الاخرى : تشكل البروليتاريا في طبقة ، أطاحتها بسيطرة البورجوازية واستيلاؤها على السلطة السياسية .

تصورات الشيوعيين النظرية لا تستند البتة على افكار ومبادىء اخترعها او اكتشفها هذا او ذاك من مصلحي هذا العالم .

انهـــا ليست الا«**التعبير العام عن صراع طبقي موجود بالفعل ، لحركة تاريخية تدور امام اعيننا**» (البيان) ـ ترجمتنا ـ الجملة الاخيرة التي شددنا عليها هي التعريف الصحيح الوحيد للنظرية الثورية اي الماركسية .

مثقفون بورجوازيون صغار ، قليلو الصبر ، وعطاشى للسلطة التي حرمتهم منها الطبقات السائدة ، بل انه على حد قول ماركس «يولد **عفويا** من ارضية المجتمع الحديث ذاته» . والتنظيمات السياسية البحتة ليست على حد قول ماركس الا تعبيرات «وقتية سريعة الزوال» ، ليست الا مجرد «أحداث عارضة» ، ما ان تحقق البروليتاريا تحررها الذاتي الذي هو في ذات الوقت تحرير للمجتمع كله حتى تفقد هذه التعبيرات الزائلة مبرر وجودها وتختفي .

ممارسة ماركس ـ انجلز كانت عموما مصداقا لهذا التصور النظري لماهية ودور الاحزاب العمالية . فقد كانا دائما يبادران بدون ادنى تردد او اسف لحل «حزبهما» عندما يريان انه اصبح عقالا ل «نشاط البروليتاريا الذاتي» ، وعقبة أمام «تحررها الذاتي» ، وعائقا امام ظهور «الحكومة الذاتية للمنتجين» ، حكومة التسيير الذاتي المعمم .

كان ماركس ـ انجلز يحتقران احتقارا عميقا البيروقراطيين في حزبهما ذاته ويصمانهم بأخزى النعوت : حمير ، خنازير ... كما كانا «يبصقان على الشعبية» بملء الفم و«يفضلان العزلة الكاملة» على البقاء في الاحزاب البيروقراطية ، احزاب برامج الحد الادنى ، احزاب التسويات والتنازلات المتبادلة : كتب ماركس الى انجلز (في ١١ فبراير ١٨٥١) رسالة جاء فيها : «... انني سعيد جدا بهذه العزلة الحقيقية التي نجد ، انت وأنا ، نفسينا فيها . انها تتفق تماما مع موقفنا ومبادئنا . ان نظام التنازلات المتبادلة، والتدابير الناقصة التي نكابدها فقط لانقاذ المظهر والالتزام بالمشاطرة العلنية مع جميع هؤلاء الحمير **لسخافات الحزب** ، كل ذلك قد انتهى منذ اليوم بالنسبة لنا» . ورد عليه انجلز (١٣ـ٢ـ١٨٥١) برسالة طويلة وهامة جديرة بعض مقاطعها بأن تكون شعار الثوريين الجدد ، الذين لا تأخذهم في تعرية البيروقراطيين

واحزابهم لومة لائم : «واخيرا وجدنا من جديد الفرصة ـ لاول مرة منذ زمن طويل ـ البرهنة على اننا لسنا بحاجة لا لشعبية ولا لدعم حزب مهما كان وفي اي بلد كان ، وللبرهنة على ان موقفنا مستقل كليا عن هذه الحسابات الصغيرة والحقيرة . منذ اليوم لم نعد مسؤولين الا أمام انفسنا ، (...) كيف يجوز لمن هو مثلنا يفر من المواقف الرسمية كما يفر من الطاعون ان يجد مكانه في «حزب» ؟ وهل نبالي ب «حزب» ، نحن اللذين نبصق على الشعبية ؟ (...) وما هي بالنسبة لنا اهمية «حزب»اي عصابة من الحمير..؟ (...) في الحقيقة لن تكون خسارة لنا اذا لم نعد نعتبر «التعبير الصحيح والصائب» لهذه الكلاب المحدودة الافق التي عددنا في عدادها هذه السنوات الاخيرة . (...) الثورة ظاهرة طبيعية بحتة تخضع لقوانين طبيعية اكثر مما تخضع للقواعد التي تحدد في الاوقات العادية تطور المجتمع . او بالاحرى ، فان هذه القواعد تتخذ في الثورة طابعا يقربها اكثر من القوانين الفزيائية ، والقوة المدية للضرورة تتجلى بعنف أشد . ومنذ ان يتدخل الثوري بصفته ممثلا لحزب ، فانه ينجرف في دوامة الاعصار ، وتحمله هذه الضرورة الطبيعة التي لا ترد . فقط عندما يبقى الثوري مستقلا ، باعتباره موضوعيا ثوريا اكثر من الآخرين ، يستطيع ، على الاقل لفترة ، الحفاظ على استقلاله ازاء هذا الاعصار . اما في النهاية فانه في الواقع سينجرف بدوره معه .

هذا هو الموقف الذي نستطيع ان نتخذه وعلينا ان نتخذه في مستقبل قريب . لا فقط علينا ان لا نقبل اية وظيفة رسمية **في الدولة** ، بل ايضا علينا ان لا نقبل ، لاطول امد ممكن ، اي منصب رسمي في **الحزب** ، ولا اي منصب في لجان الخ ، وان لا نضطلع بأي مسؤولية من اجل حمير ، وان ننقد نقدا **لا يرحم** جميع الناس وان نحتفظ فوق كل ذلك بالهدوء الذي لن تستطيع جميع مؤامرات هؤلاء المتوهين ان تخرجنا عنه . ونحن قادرون على

ذلك. موضوعيا نستطيع دائما ان نكون اكثر ثورية من هـؤلاء الثرثارين ، لاننا تعلمنا شيئا وهم لم يتعلموا شيئا ، لاننا نعرف ما نريد وهم لا يعرفون ما يريدون . (...) اما الان فالامر الاساسي هو الحصول على امكانية طبع كتاباتنا : سواء في مجلة فصلية حيث سنهاجم مباشرة وحيث سنؤكد مواقفنا ازاء **الاشخاص** . سواء في مؤلفات كبيرة حيث نفعل نفس الشيء لكن دون حاجة الى الاشارة الى اي واحد من هذه الحيوانات القذرة. الحلان يلائمانني، لكن على طول المدى ونظرا الى ان الرجعية تتقوى وتشتد ، فان حظوظ تطبيق الحل الاول تبدو ضئيلة ويبدو ان الحل الثاني هو الذي سيغدو اكثر فاكثر الملجأ الوحيد الذي سنعود اليه . وماذا عسى يبقى من كل هذه الشائعات والاقاويل التي يروجها على حسابك جميع رعاع المهاجرين (الثوريين) يوم سترد عليهم **باقتصادك ؟ »**

وكان ماركس ــ انجلز غريبين عن «الروح الحزبية» وعن التعصب الحزبي الذي بلغ عند ستالين والستالينيين قمة الهول: «نفذ ثم ناقش» . لان ما يهمهما بالدرجة الاولى هو مصلحة الحركة البروليتارية ككل لا مصلحة هذا الحزب او ذاك من الاحزاب التي تحاول الارتباط بالحركة لمدى قد يقصر او يطول . كتب ماركس الى انجلز (٢٩ يونيو ١٨٦٨) « فيما يخصني كعضو في المجلس العام ، عليّ ان اتخذ موقفا **غير متحزب** ازاء المجموعات العمالية المنظمة. لان اختيار قادتهم هي مسألة تخصهم هم ولا تخصني انا».

كما حارب ماركس ــ انجلز بشدة الفكرة البلانكية ، التي تبنتها البلشفية فيما بعد ، فكرة استبدال ديكتاتورية الطبقة بديكتاتورية الحزب . كتب انجلز في ١٨٧٤ : «المطلوب عند بلانكي ليس ديكتاتورية **كل** الطبقة الثورية ، طبقة البروليتاريا ، بل ديكتاتورية أقلية نجحت في هجومها المفاجىء (على السلطة) ، هذه الاقلية التي نظمت نفسها سلفا تحت ديكتاتورية او سيطرة

شخص واحد او بضعة اشخاص (مكتب سياسي باللغة البلشفية).
واضاف انجلز: «لكن هذه الافكار شاخت منذ زمان بعيد ولم تعد تجد صدى الا لدى العمال غير الناضجين والقليلي الصبر». واعلن انجلز سروره من كون المهاجرين البلانكيين بدأوا: «يتحولون الى كتلة عمالية اشتراكية» ويقبلون «افكار الاشتراكية العلمية الالمانية حول ضرورة نشاط البروليتاريا السياسي وضرورة ديكتاتوريتها باعتبارها مرحلة انتقالية لالغاء الطبقات والدولة».

لكن انجلز لم يكن يظن ان هذه الافكار البلانكية الهرمة ستبعث حية وفتية في روسيا مطلع القرن العشرين لكي تنطلق منها لغزو عالم الثوريين غير الناضجين والبورجوازيين الصغار قليلي الصبر في كل مكان من العالم القديم!

كما حاربا ايضا بعنف نظري مستحق المفهوم البلانكي (الذي بعثته البلشفية هو الآخر من قبره) لـ «الحزب الثوري المركزي والمنضبط انضباطا عسكريا» ومفهوم «الثوريين المحترفين» البلانكيين – اللينينيين الذين يزعمون انهم «ضباط الانتفاضة»، وسخر ماركس من ايمانهم شبه الديني بجبروت التنظيم كحل سحري لمشكلات الثورة، ناعتا اياهم بسخرية لاذعة بانهم «غجريون من اصل بروليتاري» وبأن «الشرط الوحيد للثورة عندهم هو **التنظيم الجيد لمؤامرتهم**. انهم خيميائيو (مشعوذو) الثورة، وهم يشاطرون خيميائي alchimistes العصور القديمة في الاضطراب الذهني، في ضيق الافق وفي الافكار المتسلطة والثابتة».

لمحاربة فكرة التآمر والمركزية البلانكية ولاخراج العمال من دوامة النشاط الارهابي التآمري الغريب عن ماهية البروليتاريا ودفعهم الى العمل **العلني** المنظم، الصيغة الامثل بل الوحيدة لتعبير الطبقة العاملة عن ذاتها بشكل كامل ومتكامل، منعت **الاممية** باقتراح من ماركس سنة ١٨٧١ المجموعات والشيع السرية المنتمية

الى الامية حتى في البلدان الاستبدادية التي كان فيها حق تكوين الجمعيات والاحزاب غير معترف به . وقد علل ماركس هذا المنع بأن : «هذا النوع من التنظيم يعوق تطور الحركة البروليتارية ، لان هذه الجمعيات بدلا من ان تثقف العمال تخضعهم لقوانين متسلطة وصوفية تعرقل **استقلالهم** وتوجه وعيهم ونشاطهم وجهة مغلوطة» (المؤلفات الكاملة ج ١٧ ص ٦٥٥) . كما ان هذه الشيع، بدلا من ان تجد مبرر وجودها في حيوية الحركة التاريخية للبروليتاريا الثورية ، تجده بالعكس في انغلاق الزمرة التي تعالت عن الحركة التاريخية وجعلت من وعيها الزائف علامة امتيازها : «تجد الشيعة سبب وجودها في نخوتها ، وهذه النخوة لا تبحث عنها فيما يجمعها مع حركة الطبقة ، بل تبحث عنها في علامة خاصة تميزها عن الحركة» (رسالة ماركس الى شفايتسر ١٣-١٠ - ٦٨) .

حسبنا للتأكد من صحة تحليل ماركس الذي دعمته الوقائع في كل مكان ان نتأمل اناجيل شيعنا ، التي تتناسب اهميتها عكسا مع عددها ، لنرى مدى تعلق كل منها بعلامتها الخاصة اي بحماقتها الخاصة التي تدافع عنها بالظفر والناب . فكل منها تدعي ان ما يميزها عن سواها من الشيع وعن الحركة العمالية اولا وبالذات هو انفرادها بامتلاكها لـ «الوعي» ، لـ «علم الثورة» ، لـ «الاشتراكية العلمية» ، لـ «الماركسية اللينينية + او - افكار ماوتسي تونج» الى آخر قائمة المفاتيح السحرية لابواب المستقبل !

عندما تعرّف ماركس على **رابطة العادلين** وعلى العمال الالمان في باريس ١٨٤٤ ، هذا التعرف الذي ترك تأثيرا باقيا عليه سجله في المخطوطات : «ليس التآخي بين البشر بالنسبة اليهم كلاما يقال بل هو تعبير صادق عن حقيقة حية وعن كل ذلك النبل الانساني الذي يترقرق على هذه الوجوه التي صلّب العمل ملامحها» ، لكنه ، بالرغم من ذلك ، رفض الانخراط في رابطة العادلين لانه ،

من جهة ، كان يستهجن اديولوجيتها التي تحاول التوفيق بين الاشتراكية الفرنسية والفلسفة الالمانية ، ولانه ، من جهة اخرى، كان مقتنعا مع انجلز (١) بأن الجمعيات السرية تشكل عائقا جديا امام ظهور حركة عامة عمالية جديرة ، وحدها ، بالطبقة العاملة التي ليس لها اهداف يمكن ان تخفيها على احد من اعدائها . وزيادة على ذلك ، فالجمعيات والشيع السرية تقدم للحكومات الاستبدادية ذريعة لتشديد كماشة قمعها ضد الحركة الثورية وللاجهاز على القليل من امكانيات التعبير العلني المسموح به (٢) .

هذه الشيع السرية تتكاثر عادة في البلدان غير الديموقراطية وهي ، عموما ، لا تعرف لا دورها ولا حتى طبيعتها فتغرق في القديم المتعفن من ناحية وتقع من ناحية اخرى فريسة سهلة في شدق البوليس الخبير بأساليب قمعها . وفي كل مرة تكتشف ، دون ان تأخذ من ذلك الدرس الضروري ، ان اسرارها لم تكن سرا الا على الجماهير التي تزعم انها ما تكونت الا لتخليصها ، وان مركزيتها لم تغنها من البوليس شيئا !

---

١ ـ لم يحيدا عن هذه القناعة ـ التي ستصبح في ١٨٧١ نهائية وبدون استثناءات لان التجربة التاريخية المعاشة علمتهما عدم جدوى العمل السري ـ الا في حالات نادرة : فرع رابطة الشيوعيين الذي كان سريا في المانيا ، في فرنسا لويس بونابارت وروسيا القيصرية حيث كانا يتعاطفان مع المنظمات السرية الارهابية . والارهاب هو الرد المستحق على حكم الارهاب الذي لا يترك للشعب اية وسيلة شرعية للتعبير عن مطالبه . لكن الارهاب ليس الثورة . وفي حالات ليست نادرة يكون رديف الثورة المضادة .

٢ ـ هذا الصيف استطاع النظام المغربي ، مستغلا مغامرة بدون غد ، ان يسدد ضربة قاسية للهامش الليبرالي الذي كان ـ وما زال في حدود تتضاءل باستمرار ـ يتيح للحركة الثورية المغربية بان تمارس تحريضا علنيا او شبه علني.

بالتوازي مع اعلان الحرب على الشيع والجمعيات السرية في الاممية ، واصل ماركس حربه القديمة على **المركزية** التي تسربت الى التنظيمات العمالية خاصة الالمانية من التقاليد التنظيمية اليعقوبية والبلانكية بواسطة لاصال **Lassalle** وأتباعه . لان المركزية تعلم العمال الخضوع للسلطة الفوقية ، احترام المراتب العليا والخوف منها ، وبذلك تشل تفكيرهم النقدي وتعوق نمو استقلالهم النظري واعتمادهم العملي على انفسهم ، وهي اثمن المكاسب التي يمكن ان يفوز بها العمال من نشاطهم داخل المنظمات الديموقراطية الثورية . هذا مغزى رسالة ماركس لشفايتسر ، خليفة لاصال (١٣-١٠-١٨٦٨) :

«دون ان اخوض في التفاصيل الاحظ لك بأن تنظيما **مركزيا** (التشديد من ماركس) جدير بالجمعيات السرية والحركات التشيعية ، مناقض لطبيعة التنظيم الترادنيوني . حتى لو كان ممكنا ــ لكن اقول ببساطة بأنه ليس ممكنا ــ فانه غير مرغوب فيه في المانيا اكثر من اي بلد آخر . فالعامل الذي تعود فيها منذ طفولته على مكابدة النظام البيروقراطي وعلى احترام السلطات والمنظمات العليا ، يجب ان يتعلم قبل كل شيء ان يمشي غير معتمد الا على نفسه » .

جدير بكل ثوري حقيقي ــ لم يتغلغل احتقار العمال في صميمه ، لا أعني ذلك الاحتقار البورجوازي الواعي والذي يعلن عن نفسه ، بل أعني ذلك الاحتقار الآخر الذي استبطن وغاص في أعماق اللاوعي والذي يعبر عن نفسه تعبيرا مقنَّعا في القناعة المعلنة : ان العامل كسيح بماهيته ولذلك فهو عاجز عن ان «يمشي غير معتمد الا على نفسه» بل لا بد له من عكاز الحزب المركزي البيروقراطي ــ ان يعيد قراءة هذه الرسالة بوعي من صحا من رقدة اهل الكهف الستاليني وان يعيد مع قراءتها قراءة واقعنا اليومي الذي يفقأ العيون :

في مجتمع شعاره نصف المعلن : لا تشتري العامل الا والعصا معه ... ، في مجتمع لم يسمع بالديموقراطية الا في يوم دفنها ، في مجتمع كانت الدولة المركزية فيه دائما هي السلطة التي لم تعل عليها ، خلال اكثر من اربعة آلاف عام ، سلطة شعبية ، ورب العائلة فيه رب حقيقي ، وتعايش فيه وما زال هرم خوفو مع هرم المراتب البيروقراطية التي شكلت في المجتمعات الشرقية الطبقة ـ الأم لجميع الطبقات الاخرى ، في مثل هذا المجتمع يأتي العامل الى تنظيم«ه» «الماركسي» المركزي ـ المنضبط ـ انضباطا ـ عسكريا ـ حديديا ليرد لنفسه اعتباره المهدور ، ليعيد تعريف انسانيته ، ليتعلم «المشي غير معتمد الا على نفسه» ، فيفقد انسانيته في التنظيم ـ المصنع ـ الدولة ـ المجتمع ! ليتعلم ان تغليب المركزية على الديموقراطية ، بل ان غياب الديموقراطية اصلا من تنظيمه امر ضروري لتحرره ! كما لو كان النضال ضد غياب الديموقراطية الفعلية ، وحتى الشكلية ، في المجتمع الرجعي الراهن بتغييب الديموقراطية الفعلية في التنظيم الثوري الراهن امرا ممكنا او مرغوبا !

ذلك ما حاربه ماركس باستمرار حربا لا هوادة فيها حتى في صلب التنظيمات العمالية البدائية التي دخلها وانجلز : «عندما دخلنا لاول مرة في الجمعية السرية للشيوعيين ـ كتب انجلز الى بلوس في ١٠ نوفمبر ١٨٧٧ ـ فعلنا ذلك على شرط ان يستبعد من قانون الجمعية الاساسي كل ما من شأنه ان يساعد على الايمان بالسلطة» ، بسلطة القادة او بسلطة التنظيم . وأيضا على شرط ان يكون القادة في الجمعية منتخبين من القاعدة وقابلين للعزل منها في اي لحظة . وحزب ماركس ـ انجلز : «رابطة الشيوعيين (كانت) ديموقراطية من الباب الى المحراب وكانت **كوادرها منتخبة وقابلة للعزل**. وهذا ما كان كافيا ليجعل شهيةالتآمر والديكتاتورية التي تقتضيها مستحيلة» (انجلز : المؤلفات الكاملة جـ٢١ ص ٢١٥)

(كلمات حول رابطة الشيوعيين) .

كتب ستالين : وحدة الطبقة العاملة التنظيمية والادیولوجية لا يمكن تحقيقها الا بوحدة حزبها الفكرية والتنظيمية حول قيادته المجربة . اما ماركس وانجلز فلهما رأي آخر تراكم عليه غبار النسيان . لم يكونا ابدا يفكران بأن عبادة القادة يمكن ان تحقق وحدة البروليتاريا سياسيا ، بل انهما كانا يريان السبيل الوحيد لتحقيق هذه الوحدة في المواجهة الحرة بين «جميع القناعات الاشتراكية» : «وهكذا فان دستور الامية لا يعترف الا بمجرد جمعيات عمالية تتابع جميعا نفس الهدف وتقبل بنفس البرنامج ، هذا البرنامج الذي ينحصر في رسم الملامح الكبرى للحركة البروليتارية (١) تاركا البلورة النظرية للاندفاع الذي تعطيه ضرورات النضال العملي ولتبادل الافكار الذي يجري في خلايا وفروع (الامية) ، قابلا دون تمييز جميع القناعات الاشتراكية في هيئات الامية ومؤتمراتها» (ماركس : المؤلفات الكاملة ج١٨ ص ٣٤ ، ٣٥٨) .

كانت حياة ماركس ــ انجلز ملأى كما لا تزال آثارها كذلك ملأى بالنضال المرير ضد «عبادة القيادة الفردية او الجماعية وعبادة سلطة التنظيم» في الشيعة اللاصالية او في الايمان الباكونيني الاحمق **«بديكتاتورية اكثر الناس ثورية»** ، او في الحركة الماركسية نفسها على عهديهما .

لم يكن ماركس ــ انجلز ينتظران من اي تنظيم كان ان يحرر الطبقة العاملة التي اما ان تحرر نفسها بنفسها واما ان تظل ، كما

---

١ ــ على البرنامج الثوري ان يقترح على الطبقة الثورية وحلفائها اهدافا تتعرف فيها على امكانية تحقيق اعمق حاجاتها الانسانية المقموعة ، اهدافا تثير فيها الشغف بالحياة المتحررة وشهية النضال المستقل في سبيل تحقيقها .

هي الان ، طبقة من العبيد . لان الثورة في تصورهما **ظاهرة طبيعية** تنطلق من القاعدة ، من الجماهير البروليتارية التي وعت الازمة ووعت امكانية حلها في وقت معا . وليست ظاهرة ارادية بلانكية تنطلق من القمة «الاكثر علما والاكثر ثورية» ، من الحزب اليعقوبي او من القيادة التآمرية . ودور الحزب العمالي الثوري فيها ، هذا الحزب الذي ليست له – كما ألح على ذلك البيان الشيوعي – اهداف منفصلة عن اهداف الجماهير البروليتارية في تقريرها الحر لمصيرها الطبقي ، في حكم نفسها بنفسها ، هو ان يضع أمامها معنى قراراتها سلبا او ايجابا ، ان يضع أمامها برنامجه العام لكي تمارسه اذا ارادت ، وأن يقترح عليها نظريته لكي تتغلغل فيها اذا عبرت عن مصالحها الفعلية . ولن تعبر عن مصالحها الفعلية ولن «تتغلغل فيها الا اذا كانت راديكالية» (ماركس) ، وكانت الشروط الفعلية هي الاخرى قد غدت راديكالية ، حيث تلتقي الارادة الجماعية للملايين بالنظرية الثورية للتنظيم الطليعي المعزول. «على الطبقات العاملة ان تأخذ غلابا واغتصابا حقها في تحقيق تحررها . ومهمة الاممية هي تنظيم وتنسيق القوى العمالية في المعركة التي تنتظرها» (ماركس : خطاب بمناسبة الذكرى السابعة للاممية . لندن ٢٥–١١–١٨٧١) .

كان بلانكي ينتظر تحرر البروليتاريا العاجزة ، على حد قوله، عن تحرير نفسها بنفسها ، من تدخل يأتي من خارجها «من ضباط الانتفاضة» ، من حزب «الثوريين المحترفين» ، من نخبة المثقفين البورجوازيين «التي تضع الحرية بين يدي الشعب» . يقول بلانكي (١٨٥٢) «من فضل السماء ان هناك كثيرا من البورجوازيين في المعسكر البروليتاري . انهم هم الذين يشكلون قوة هذا المعسكر، اذ انهم يحملون اليه قسطا من التنوير ما زال الشعب للاسف **عاجزا عن تقديمه** . فالبورجوازيون هم الذين رفعوا اول راية

للبروليتاريا وصاغوا النظريات فـــي المساواة وهم الذيـــن يروجونها » (١) .

اما ماركس فقد كان ، عكسا لبلانكي ، ينتظر تحرر الطبقـة العاملة من الطبقة العاملة نفسها ، ومن نفسها **فقط** . كتب انجلز

---

١ ـ أليس هذا ما يقوله لينين في «ما العمل ؟» نقلا عن كاوتسكي ؟

لقد كان التنظيم البلانكي وأحزاب البورجوازيين الجمهوريين عهدئذ تعامل العمال على غرار معاملة العائلة البورجوازية للاطفال . لكننا ندرك اليوم ، بفضل غنى التجربة التاريخية وتقدم البحوث السايكولوجية ، ان معاملة العامل معاملة طفل هي معاملة اجرامية في حق العامل والطفل معا .

القادة الذين يدعون بان من حقهم ان يملوا على العمال كـل تصرف وان يقتلوا ، بالتالي ، في المهد كل مبادراتهم ، وان يطعِّموهم بوعيهم الزائف المحمول من الخارج ضد الوعي الطبقي النابع من تجربتهم في الصراع الطبقي اليومـي المعاش ، انما يعمقون في لاوعي العمال عقدة النقص التي زرعتها فيهمالبورجوازية الحقيرة عندما زعمت لهم بأنهم اذا تركوا وشأنهم ضاعوا وأضاعوا . الكن حبـل الكذب قصير : فها هي البروليتاريا المعاصرة تبرهن من جديد ، باحتلال اماكن العمل وتسييرها ذاتيا ، بأنه اذا كان البورجوازيون بحاجة الى العمال لتشغيل المصانع فان العمال ليسوا ابدا بحاجة للبورجوازيين ، الطفيليين اليوم اكثر من اي وقت مضى ، لتشغيل وتسيير نفس المصانع بصورة ارقى وفي منظـور مختلف نوعيا . وبنفس الضربة بدات البروليتاريا الثورية المعاصرة تبرهن عمليا، باضراباتها البرية ، المنفلتة من رقابة النقابات والمتمردة عليها ، بانه اذا كـان البيروقراطيون بحاجة للعمال لاثبات وجودهم وجباية امتيازاتهم كقادة ، فـان العمال ليسوا اطلاقا بحاجة اليهم لاثبات وجودهم كمنتجين مباشرين قادرين على تحقيق تحررهم الذاتي عبر خوض وقيادة الصراع الطبقي وقيادة المجتمع الثوري القادم الذي سيكون محصلة هذا الصراع .

في آخر مقدمة المانية للبيان الشيوعي (مايو ١٨٩٠): «اما الانتصار الحاسم للقضايا التي اعلنها البيان الشيوعي فقــد كان ماركس ينتظره فقط من تطور الطبقة العاملة الذهني الذي سينتــج بالضرورة عن النشاط المشترك» (١) ، لا من الحزب (٢) ، وهذا ما

---

١ ـ انظر **البيان الشيوعي** ، ترجمة دار التقدم التي تختلط فيها الركاكة بالغموض والتزوير .

٢ ـ في تصور ماركس وانجلز ليست الاحزاب السياسية ، النقابات ، الجمعيات الديموقراطية ، الاتحادات والنوادي العمالية ؛ اللجان الثورية ، لجان الاضراب والتنظيم الاممي (الاممية) الا ادوات وقتيــة على ذمة البروليتاريــا لاستخدامها في صراعها الطبقي الثابت . وهي اذن ادوات متغيرة حسب الشروط الفعلية المستجدة ومدى راديكالية الطبقة الثورية وعيا وتنظيما ذاتيا . وهــي ايضا ادوات قابلة للاستبدال احدها بالآخر او بأدوات وأشكال جديدة تبدعهــا الممارسة الثورية البروليتارية . وكلمة الممارسة عند هيجل كما عند ماركس تعني الابــداع .

بعض القراء يظنون ان تعبير الحزب ، الحزب السياسي او الحــزب البروليتاري التي لم تفتأ تتردد في كتابات ماركس ـ انجلز تعني الحزب بالمفهوم الوحيد الرائج اليوم : الفصيل المنظم من الطبقة او بالاصح المحسوب على الطبقة. وهو ظن ليس في محله . «الحزب الديموقراطي» ، «الحــزب البروليتاري» ، «الحزب الرجعي» التي سيصادفها القارىء كثيرا في هذه النصوص تعني غالبا التيار . و«الحزب السياسي» ، «حزبنا» ، الحزب البروليتاري تعني كثيرا وغالبا عند ماركس ـ انجلز الطبقة البروليتارية برمتها ، حركتها ، لا فصيــلا منظما من فصائلها . لانه ـ كما جاء في البيان ـ ليس للبروليتاريا حزب واحد بل احزاب عديدة . فعبارة مثل «تنظم البروليتاريا نفسها **Se constitue** في حزب سياسي» تعني تنظيم البروليتاريا لنفسها في قوة قائدة . اما عندما اراد ماركس وانجلز الحديث عن الحزب ، بمعنى فصيل منظم ، فانهما استخدما في البيان «الشيوعيون» . ولا بد من التأكيد مرة اخرى على ان ماركس ـ انجلز

يفسر الحرب النظرية الضارية التي خاضها ماركس ومعه انجلـز ضد «عبادة الطليعة» عند باكونين التي ورثها عنه لينين ، حتـى ليكاد المرء يتصور وهو يقرأ شجب ماركس لـ «ديكتاتورية اكثـر الناس ثورية» ، **«للنخبة الثورية التآمرية»** عند باكونين ، انه يقرأ شجب ماركس سلفا للينين في «ما العمل ؟» . وهذا ما جعـل بعض الماركسيين الثوريين الذين تصدوا للينين بعد ظهور « مـا العمل ؟» (انظر ملف ما العمل بهذا الجزء) يستعيدون في حجاجهم ضد لينين وما العمل لا حجج ماركس وحسب ضد باكونين **وحلفه**

بقدر ما كان يستعظمان دور الطبقة الثورية كانا يستصغران ، يحتقران واحيانا ليست نادرة يلغيان دور الحزب بمعنى الفصيل المنظم من الطبقة . مثلا ـ ومثلا فقط ـ لاحظ ماركس في تصريحه لهومان (١٨٦٩) : «جميع الاحزاب السياسية، ايا كانت ، وبدون استثناء لا تثير حماس جماهير العمال الا لبعض الوقت ، الا لفترة عابرة» . اما انجلز فقد ذهب ابعد من ذلك سنة ١٨٨٥ (انجلز الشيخ لا انجلز المراهق لعلم من يهمه الامر !) معتبرا ان التنظيم الحزبي ، جميع أشكال التنظيم الحزبي التي جربتها جميع الفصائل البروليتارية ، قد غدت عائقـا للصراع الطبقي ولم تعد ادوات وقتية لتسريعه وتسعيره ولهذا فقدت مبـرر وجودها : «غدت الان الحركة الامية للبروليتاريا الامريكية والاوربية قوية جدا الى درجة انه لا فقط شكلها البدائي والضيق ـ الرابطة السرية ـ بل حتى شكلها الثاني الاكثر اتساعا من شكلها البدائي بما لا يقاس ـ الجمعية العامـة الامية للعمال ـ اصبح عائقا في وجه الحركة ، ولذلك فمجرد مشاعر التضامن المرتكزة على ادراك نفس الوضع الطبقي ، كافية لان تخلق وتحافظ بين عمال جميع البلدان وجميع اللغات على حزب واحد كبير للبروليتاريا» (انظر بهـذا الجزء : بضع كلمات حول تاريخ الشيوعيين) . وهذا الحزب البروليتاري الواحد الكبير الذي حرض به انجلز ليس الا البروليتاريا الامية المتخلصة من وصاية جميع الاحزاب !

الاشتراكي الثوري بل احيانا الفاظه ايضا . كتب ماركس : «يريد الباكونيون اخضاع الاممية لحكومة الحلف السرية **المراتبية** والاتوقراطية« (المؤلفات ك. ج١٨ ص ٤٣٩ـ٤٤٠) . وهدفهم هو «تحويل الاممية الى تنظيم مراتبي (التشديد من ماركس) ... (١)، خاضع لأرثوذوكسية رسمية ، الى نظام ليس تسلطيا وحسب بل ديكتاتوري بشكل مطلق» (نفس المرجع ص ١١٧) ان حزبهم «قد جعل نفسه منذ البداية ارستوقراطية في صلب الاممية وهيئة من النخبة لها برنامجها الخاص وامتيازاتها الخاصة» (ص ١٣٨) ومقسم الى «طائفتين ، العلماء والجهلاء ، الارستوقراطيين والسوقة» ، هذا الحزب «الذي يمتلك كهنة للعلم السري» ، والذي اتخذ شعارا : «من ليس معنا فهو ضدنا» ، والذي لا يطمح الا لـ «تطويل الديكتاتورية» في «شيوعية الثكنة» (كيف لا **نتذكر** شيوعية الحرب وعسكرة العمل الشهيرة في روسيا !) والتي هي «اكثر تسلطا من شيوعية الشعوب الاكثر بدائية» ، وباختصار فان باكونين «لا يطلب الا تنظيما سريا من ١٠٠ شخص ، يمثلون تمثيلا ممتازا الفكرة الثورية ، يجعلون من انفسهم **قيادة اركان ثورية...** وحدة الفكر والعمل ليس لها مدلول آخر الا الارثوذكسية والخضوع الاعمى ...» (نفس المصدر) .

أليس هذا استباقا لنقد «ما العمل ؟» ، «خطوتان» ... ونقد كل الممارسة الحزبية للبلشفية في روسيا قبل وبعد ١٩١٧ ؟

التصور اللينيني للتنظيم

سنقيم اولا خط تواز بين تصور ماركس الاساسي للتنظيم

---

١ ـ عندما اقترحنا في كتاباتنا تنظيما غير مراتبي صرخ بعض الستالينيين الجهلة : تنظيم بدون مراتبه ! هذه هي الفوضوية بعينها والعياذ بالله !!

الثوري وتصور لينين الاساسي للحزب الثوري ، محاولين وضع نهاية للخلط المغرض بين هذين التصورين المختلفين اختلافا يبلغ في النقاط الجوهرية حد التناحر ، ووضع نهاية بالتالي لاسطورة «التصور الماركسي اللينيني للحزب» ، هذا التصور الذي لا يوجد الا في رؤوس الدعاة كاعلان كاذب لسلعة مغشوشة .

ان تختار مجموعة من الناس الطراز اللينيني للتنظيم فذلك شأنها . وان تختار أخرى النمط الماركسياني للتنظيم فذلك من حقها . لكن كل ذلك يجب ان يتم بغير خلط ، بغير اقنعة وبكامل الوعي . لان الوعي كان ولا يزال ، اذا تحدثنا بلسان ماركس ، «قوة انتاج» ذات تأثير هئل على مجرى التاريخ . لان اختيار الانطلاق من احد نمطي التنظيم ليست مسألة تقنية او شكلية بل مسألة سياسية اساسية . وتجربة اكثر من نصف قرن من سيطرة دولة الحزب اللينيني ـ الستاليني التي ، بعد ان نصَّبت الرقيب ربا على جميع مظاهر الحياة الاجتماعية ، لم تعد تسمع في كل مكان الا أصداء صوتها ، فيها بلاغ لقوم يعقلون .

سيرى القارىء الثوري ، اي الذي أزاح بفظاظة عن عينيه غمامة التقليد ليرى ما جرى ويجري امامه على ارض الواقع التاريخي بدون وسائط اديولوجية مضللة ، ان لينين قد تخلى بفظاظة عن تصور ماركس لجوهر ووظيفة البروليتاريا : في تصور ماركس الاساسي البروليتاريا هي نفسها صانعة تحررها الذاتي وهي ، كطبقة ، غير قابلة للاستبدال لا بطبقة اخرى (الفلاحين مثلا) ولا بحزب مهما كان . اما لينين فانه استبدل البروليتاريا ، كذات ثورية صانعة وحدها لتاريخ الانسانية المقبل ، **بالحزب** المركزي الذي يحمل اليها ، كهدية ، وعيها وتحررها من خارجها. اذا كان لينين قد برر انحرافه ، عن ماركسية ماركس في مسألة التنظيم ، بوضع البروليتاريا الروسية «المتأخرة» المحدودة عددا ووعيا ، معترفا صراحة بأن رؤياه التنظيمية «خروج عن القواعد

العامة للتنظيم» الماركسي (١) ، فانه ما ان اصبحت البلشفية اديولوجيا دولة سائدة على جثة ثورة ١٧ ، وما ان انحسر الموج الثوري نهائيا تقريبا بهزيمة الثورة الالمانية (٢) وأخيرا بهزيمة الثورة البروليتارية الاسبانية (برشلونه مايو ١٩٣٧) وسادت الثورةالمضادة احزاب الامية الثالثة ، حتى اصبح «الخروج» الروسي عن القواعد العامة للتنظيم الشيوعي الماركسياني هو القاعدة العامة وليس الاستثناء ، وسحبت بخفة يد بهلوانية ، تعلة «تأخر» البروليتاريا الروسية على البروليتاريا الاممية في كل مكان .

استبدال البروليتاريا بالحزب ليس مروقا على الماركسية وحسب ، بل هو ردة للوراء ، ردة للمفهوم البورجوازي للديموقراطية ، للاستبدال البورجوازي : استبدال الشعب بممثليه ، بالبرلمان . وهو المبدأ المضاد للثورة الديموقراطية ، على الطراز الاغريقي : حكم الشعب لنفسه بنفسه . هذه الديموقراطية المباشرة التي عبرت عنها ووعدت بها اكثر اتجاهات فلسفة عصر الانوار انسانية وراديكالية . خيانة هذا الوعد ببدعة الاستبدال كرسها رسميا البند ٦ من تصريح **حقوق الانسان والمواطن**(٣) الذي صادقت عليه الجمعية التأسيسية في ١٧٨٩ . وقد شرح المنظِّر البورجوازي سييس Sieyés (١٧٤٨ — ١٨٣٦) في كتابه : **الطبقة الثالثة** (البورجوازية) هذا البند قائلا : « ان الشعب لا

---

١ — انظر : من كومونة باريس الى مجازر عمان : الجذور التاريخية لـ «ما العمل ؟» .

٢ — انظر كتابنا : الثورة الالمانية ١٨—١٩ من سلسلة : ثورات البروليتاريا في القرن العشرين . دار الطليعة .

٣ — انظر : في **المسألة اليهودية** نقد ماركس **لتصريح حقوق الانسان والمواطن** ، الذي هو في الواقع ليس الا تصريح حقوق البورجوازي المعادية للانسان والانسانية !

يستطيع ان يتحدث ويتصرف الا بواسطة ممثليه» مضيفا «ان صوت التشريع الشعبي (البرلمان) ليس الا صوت الشعب نفسه».
هكذا اصبح «ممثلو» الشعب ، بقدرة قادر ، هم بديله وعديله ، وأصبح صوت البرلمان هو صوت الشعب نفسه !

كما ان الشعب في النظرية والممارسة البورجوازيتين لا يستحق او لا يستطيع ممارسة **الديموقراطية المباشرة** ، فكذلك لا تستطيع البروليتاريا ، في النظرية والممارسة البلشفيتين ، ان تحقق تحررها بنفسها وانما بواسطة الحزب الثوري البيروقراطي في انتظار تحوله الى دولة بيروقراطية مضادة للثورة وتوتاليتارية من الطراز الشرقي تضطلع ، بجميع الوظائف الاقتصادية ، العسكرية، البوليسية والتربوية ، بدلا من البروليتاريا وضدها ، ومن ثم ضد الشعب بأسره .

كتب لينين في «ما العمل ؟» مسترشدا «بكلمات كاوتسكي الصائبة» : «ولد العلم الاشتراكي من النظريات الفلسفية ، التاريخية والاقتصادية التي بلورها المثلون المتعلمون للطبقات السائدة ، بلورها المثقفون . ان مؤسسي الاشتراكية العلمية ماركس وانجلز نفسيهما ، من حيث وضعهما الاجتماعي ، مثقفون بورجوازيون . كذلك في روسيا فان المذهب النظري للاشتراكية الديموقراطية ظهر ظهورا مستقلا تماما عن النمو العفوي للطبقة العاملة . لقد كانت النظرية الاشتراكية في روسيا نتيجة طبيعية، محتومة لتطور الفكر عند المثقفين الثوريين الاشتراكيين» (١)

---

١ - سنشير عبر هذا الفصل الى ان الاديولوجيا البلشفية كانت بالعكس من هذا التأكيد بنت الواقع الروسي الفعلي : تخلف الشروط الفعلية واستحالة الثورة البورجوازية التقليدية والثورة الاشتراكية الظافرة . لكن لينين محق في ان البلشفية لم تكن وليدة البروليتاريا الروسية. كما لم تكن تعبيرا عن مشروعها الثوري مثلما كان البيان الشيوعي بالنسبة للبروليتاريا الاوربية : «تحرر العمال من صنع العمال انفسهم» .

(ما العمل ؟) .

في هذا التأكيد : «النظرية الاشتراكية في روسيا نتيجة طبيعية ، محتومة **لتطور الفكر** عند المثقفين ...» مناقضة فظة للمادية التاريخية كما بلورها ماركس في صيغته الشهيرة : «الكينونة هي التي تحدد الوعي وليس الوعي هو الذي يحدد الكينونة» . يبدو عند لينين «ما العمل ؟» ان العكس هو الصحيح، على الاقل بخصوص روسيا : النظرية الاشتراكية لم تعد كما كانت عند ماركس وكما تكونت اساسا كتعبير عن الصراع الاجتماعي الموجود فعلا ، بل هي نتيجة حتمية لتطور الفكر لا لتطور الحركة الاجتماعية . يكفي لاظهار مدى التناقض بين ماركس ولينين بهذا الصدد العودة الى جملة البيان الشيوعي التي طالما مرت بها عيون الذين لم يصحُ وعيهم بعد وكأنها لم تر ولم تقرأ : «المبادىء النظرية للشيوعيين لا ترتكز مطلقا على **افكار** ، ومبادىء اخترعها او اكتشفها هذا او ذاك من مصلحي هذا العالم . بل ان المبادىء النظرية للشيوعية ليست الا تعبيرا ، بعبارات عامة ، عن **الشروط الفعلية** لصراع طبقي موجود ، وعن **حركة تاريخية** تدور امام عيوننا » .

عن هذين التأكيدين المتناقضين تترتب نتائج عملية حاسمة: يقتضي التأكيد الماركسي ان الطبقة العاملة تجذر اساسا وعيها عبر مسيرة طويلة وملتوية من الصراع الطبقي المتصاعد ضد رأس المال ، من تعاقب الهزائم والانتصارات الذي لا مفر منه . والثورة البروليتارية اي انفجار الصراع الطبقي حربا اهلية ، لا يمكن ان تكون من صنع قوة اخرى غير البروليتاريا ذاتها ، البروليتاريا التي انتفضت ونفضت عنها غبار القرون ، منظمة نفسها في هيئات طبقية (كومونة باريس ثم مجالس ١٩٠٥) ليست لا **منفصلة** عنها ولا **متعالية** عليها ، هيئات مستقلة تكتشفها بنفسها عبر ابداعها التاريخي : ممارستها . وهي ليست ، لكي تحقق ذلك ، في حاجة

الى «رسول» او «منقذ اعلى» . هيئات الطبقة العاملة الفرنسية، سوفياتاتها البدائية التي اكتشفتها ونظمتها بنفسها في **الكومونة** جعلت ماركس يصرخ ظافرا : «هذا هو الشكل السياسي الذي تم اكتشافه اخيرا والذي يمكن به تحقيق تحرير العمل اقتصاديا»(١). اذن الوعي الطبقي ، وعي البروليتاريا بمدلول صراعها ، بأشكاله وأهدافه الحقة لا يمكن ، في منظور ماركس ، ان يحمل الى الطبقة الثورية من خارجها ، بل لا يمكن ان تصل اليه الا من خلال نشاطها التاريخي نفسه . اما عند لينين فالطبقة العاملة ليست هي التي تحدد وتجذر عبر الصراع الفعلي أشكال وراديكالية وعيها ، بل أن وعيها المنفصل عنها اصلا ، هــذا الوعي الذي يولد في رؤوس المثقفين ، كما ولدت مينرفا من رأس جوبيتير ، باستقلال عن وضع الطبقة الفعلي ، هو الذي يحدد كينونة الطبقة العاملة ، هو الذي يرتفع بها الى وعي مهامها التاريخية . الطبقة العاملة عند لينين لا تستطيع ان تصبح ثورية بفضل ممارستها وحدها. لان ممارستها الثورية لن تؤدي الى وعيها لضرورة حل الصراع الطبقي حــلا اشتراكيا ، بل انها تؤدي الى الوعي النقابي : الى الاصلاحية . ودور الثوري ليس الارتباط بالحركة التاريخية الفعلية، استخلاص النتائج النهائية من الصراع الطبقي الذي يدور امام عينيه ، بل حمل الوعي الاشتراكي ، «العلم البروليتاري» ، الى الطبقة العاملــة العاجزة بنفسها عن اكتساب هذا الوعي وبالتالي عن الاضطــلاع بدورها التاريخي: حفارة قبر العالم القديم. المثقفون البورجوازيون الذين تمثلوا ذهنيا الصيرورة التاريخية يلتحقون بالحركة التاريخية في تصور ماركس . اما في تصور بلانكي ــ كاوتسكي ــ لينين فهم طليعة الحركة التاريخية ، هم حملة وعيهــا ، هم مخلصوهــا

---

١ ــ انظر : كتابنا الجماعي : من كمونة باريس الى مجازر عمان .

التاريخيون من الاصلاحية ، عبرهم ، وعبرهم فقط ، **تتعرف على** نشاطها الخاص الذي يظل بدونهم غريبا عنها ، مجهولا منها ومعاديا لها ، لان البورجوازية هي التي تستفيد منه في النهاية ! **فالمثقفون** الحزبيون هم الذين يقدمون للعمال، على طبق من ذهب ، **وعيهم، هدفهم ووسائل** تحقيقه . انهم الكهنة الجدد لطبقة لا تستطيع تحقيق خلاصها بنفسها . وهكذا ، عكسا لتصور ماركس الاساسي يؤكد تصور بلانكي ــ كاوتسكي ــ لينين بأن الوعي الطبقي نتاج الفكر لا نتاج الوضع الاجتماعي ، وعطاء الاديولوجيا لا عطاء الممارسة . صحيح ان لينين اعترف في المؤتمر الثاني للحزب بانه «زودها» ، لان الاقتصاديين بالغوا في تقديس العفوية فبالغ هو ، لتصحيح ألامور ، في تقديس الوعي المحمول الى الطبقة من خارجها . لكن ممارسة البلاشفة بعد هذا «التصحيح» ظلت مساوية لنفسها قبله !

لهذا التصور اللينيني أسسه الاديولوجية في الفكر السائد للامية الثانية .

الجذور الاديولوجية لمفهوم حمل الوعي من خارج البروليتاريا الى داخلها بواسطة المثقفين ، هذا الروح القدس الجديد في كنيسة اشتراكية الامية الثانية ، تبلورت بين ١٨٨٨ و١٩٠٤ في روسيا . والحزب الاشتراكي الديموقراطي الروسي كان فرعا للامية الثانية .

الحدث الحاسم ، او احد الاحداث الحاسمة ، في عصر الاممية الثانية ، **اممية العلماء** ، هو تحويل الماركسية من سلاح الى علم (١) اي من نظرية ثورية الى اديولوجيا اصلاحية عمليا .

---

١ ــ انظر من كومونة باريس الى مجازر عمان : الماركسية الاصلاحية من ص ٤٤ ...

عندما كانت ماركسية ماركس تمشي على قدميها كان «العلم ينتج عن حركة التاريخ» (بؤس الفلسفة) اي عن النشاط التاريخي للعمال انفسهم ، وكان «العلم مقتصرا على معرفة الحركة الاجتماعية للشعب نفسه» . اما عندما اصبحت ماركسية العلماء برنشتاين ، كاوتسكي ، هلفردينج ، اوتو باور تمشي على رأسها فقد اصبح «الوعي الاشتراكي يُدخل الى الصراع الطبقي من الخارج ولا ينبثق من الصراع الطبقي ذاته (برنامج الاشتراكية الديموقراطية النمساوية ١٨٩٨) ، و«الوعي الاشتراكي اليوم لا ينبثق الا من **المعرفة العلمية العميقة»** (كاوتسكي ١٩٠١) في مقال نشره بعنوان دلاّل : «الاكاديمي والبروليتاري» . نظرا الى ان البروليتاري عاجز عن اكتساب هذه «المعرفة العلمية العميقة» ، اي عاجز عن ان يصبح اكاديميا يكتب «نظرية الازمة» ، او «الرأسمال المالي» ... فلا يسعه الا ان يفتح اذنيه باهتمام واجلال للاكاديمي الراسخ في العلم لكي يدخل اليه الوعي الاشتراكي .

ومن عجائب مفارقات أنصار ادخال الوعي العلمي الى العمال من الكاوتسكيين المحليين انهم من الاميين نظريا ! اتراهم يريدون تعليم الطبقة العاملة ما لم يتعلموه بعد ؟!

اقتضى ظهور اديولوجيا الامية الثانية هذه نتيجتين متلازمتين : فصل الوعي العمالي الثوري عن الصراع الطبقي والحاقه بحزب العلماء ، **تمثيل** الحزب للطبقة العاملة . فكما انه لا خلاص خارج الكنيسة فكذلك لا وعي وبالتالي لا ثورة ولا خلاص خارج الحزب . لانه بدون مساعدة مؤسسة الحزب وموظفيه وكهنته تسقط الطبقة العاملة في فخ البورجوازية الاديولوجي !

مواصفات هذا الحزب ـ الكنيسة هي المركزية ، الانضباط البقري ، سلطة الزعيم التي لا تعارض ، الامتثالية ، مصلحة الحزب فوق مصلحة اعضائه وفوق مصلحة البروليتاريا بالاحرى،

سيطرة القمة على القاعدة داخل الحزب وسيطرة الحزب ، ككل ، على البروليتاريا ككل ، داخل البلاد . واخيرا ضرورة قيادة الحزب **لاي مبادرة** بروليتارية او شعبية مستقلة وضرورة تأطيرها بمتفرغي الحزب حتى لا **تتجاوز** الخط السياسي الذي رسمته القيادة «الحكيمة» سلفا . لان مهمة الحزب ـ الوصي ـ على ـ الحركة ـ التاريخية هي السيطرة التوتاليتارية على الحركة العمالية . الحركة العمالية جيش مدني مطيع وحزب الثوريين المحترفين قيادة أركانه المطاعة . والعلاقة الوحيدة الممكنة بين حزب من هذا الطراز والجماهير هي علاقة الضباط بالجنود في الجيوش البورجوازية : علاقة امر وائتمار . هي عين العلاقة السائدة بين احزاب ودول العالم القديم وشعوبه : طبقة سائدة تأمر وطبقة مسودة تأتمر ولا شيء غير ذلك .

هذه العلاقة ، التي لا علاقة لها بنوعية علاقة الحزب الماركسي في علاقاته بجماهير الطبقة ، لم تكن قطعا من صنع خيال لينين وانما استوردها من الواقع الروسي ، من التقاليد الاستبدادية لروسيا الاستبداد الشرقي والحكم المطلق من ناحية ومن التقاليد البيروقراطية للاممية الثانية من ناحية اخرى . فقد كان معظم قادة الاممية الثانية وخاصة كاوتسكي ـ الذي تتلمذ عليه لينين طوال ٢٠ عاما من ١٨٩٦ الى ٤ أغسطس ١٩١٤ كما لم يتتلمذ على احد قط ـ يحتقرون «المبادرة العمالية» احتقارا عميقا لانها «قد تفتح الطريق الى المغامرة او الثورة غير الناضجة» على حد قول كاوتسكي في **الطريق الى السلطة** . ولهذا نرى لينين عندما يرسم المهام التنظيمية يعطي للجان الحزب مهمة قيادة «**جميع** مظاهر الحركة المحلية» (رسالة الى رفيق حول مهامنا التنظيمية ١٩٠٢) ، تماما على صورة مخفر الحكومة !

في مثل هذا الحزب ـ الاب ، الوصي على حركة التاريخ والمنضبط انضباطا ثكنيا لا مجال لحرية النقد . لان «حرية النقد

هي حرية الانتهازية ، حرية تحويل الحزب الى حزب ديموقراطي اصلاحي ، حرية ادخال الافكار البورجوازية والعناصر البورجوازية الى الاشتراكية » (ما العمل) ، لان حرية النقد ، في مؤسسة تبرر نمط تسييرها الاستبدادي بمنطق الفعالية والانتاجية «الثورية» ، كفيلة بتحويل الحزب ، من ثكنة لا تسمع فيها القيادة شبه المعصومة الا أصداء أوامرها ، الى «ناد للمناقشات» .

استبعاد مبدأ حرية المناقشة والنقد داخل الحزب يتطلب بمنطقه الداخلي استبعاد مبدأ حرية النقد . واكثر من ذلك ان الانتخاب يصبح «مضرا» وكذلك اللامركزية : «مبدأ الانتخاب ومبدأ اللامركزية مرفوضان رفضا مطلقا بل انهما يلحقان ضررا بليغا بالعمل الثوري تحت النظام الاتوقراطي» (لينين : رسالة الى رفيق حول مهامنا التنظيمية ١٩٠٢) . صحيح ان لينين مهد لفرض مبدأ التسيير البيروقراطي هذا بمديح سخي لـ «الدور التثقيفي العظيم» لمبدأ الانتخاب واشاعة الديموقراطية داخل الحزب ، معتبرا ان غياب الديموقراطية من الحزب ليس الا اجراء «موقتا» فرضته شروط الاستبداد القيصري في «روسيا الاسيوية الهمجية» على حد قوله . لكن هناك «موقتا» قد يدوم طويلا من ذلك الالغاء الموقت للديموقراطية وفرض كابوس المركزية . وهذا ما ستكشفه لنا المعارضة العمالية البلشفية في المؤتمر العاشر (مارس ١٩٢١) بالوقائع التي تضمنها برنامجها وبواقع منعها هي نفسها «موقتا» ايضا : «ان التضييق على المبادرة قد فرض لا على نشاط الجماهير غير الحزبية (...) بل على اعضاء الحزب انفسهم. فكل محاولة مستقلة ، وكل فكر جديد نزلت عليه مصيبة رقابة القيادة المركزية للحزب ، يعتبران هرطقة وخرقا للانضباط الحزبي، ومحاولة للعدوان على اختصاصات القيادة المركزية التي عليها ان «تتوقع» كل شيء وان تصدر اوامرها بكل شيء . واذا لم يصدر قرار بشأن من الشؤون فلا يسع المرء الا الانتظار ، ولدى القيادة

متسع من الوقت لكي تصدر على مهل امرا به (...) . ماذا يحدث لو ان بعض اعضاء الحزب الشيوعي الروسي ـ ممن يحبون ، مثلا، الطيور كثيرا ـ قد قرروا تكوين جمعية لحماية الطيور ؟ تبدو الفكرة في حد ذاتها مفيدة جدا ولا تضر ابدأ ب «مشاريع الدولة»، لكن ذلك في الظاهر فقط . اذ ان مؤسسة بيروقراطية ستبرز فورا مطالبة بحق الاشراف على هذا المشروع . و«ستلحق» هذه المؤسسة فورا جمعية حماية الطيور بالجهاز السوفييتي ، وبذلك تقتل المبادرة الآتية من القاعدة» (المعارضة العمالية) (١) .

لكن قناعة لينين بعجز البروليتاريا الروسية «المتخلفة» عن الارتفاع الى وعي مهامها التاريخية ، بدون ادخال الوعي الاشتراكي اليها من خارجها ، فانها لم تكن عارضا موقتا بل نقيصة اصلية ملازمة لجوهر البروليتاريا في المنظور اللينيني . ولهذا السبب فعندما انفجرت ثورة ١٩٠٥ ، ثورة المجالس الاولى في التاريخ، وقف لينين وحزبه منها في البداية موقفا راوح بين الحذر والعداء الصريح . لان كلمات كاوتسكي «الصائبة» عن عجز الطبقة العاملة عن تجاوز حدود الوعي المطلبي والارتفاع الى الوعي الثوري بدون معين من المثقفين البورجوازيين ما زال دويها يملأ اذنيه . وهكذا دعا لينين الحزب الاشتراكي الديموقراطي الروسي الى «السيطرة على الحركة الجماهيرية العفوية» (سيطرة الحزب على الحركة العمالية هي جوهر العلاقة بين الحزب اللينيني والطبقة العاملة). وفي يونيو ١٩٠٥ شجب اخطار شعار «المبادرة العمالية» . لكن نفس لينين لم يجد بُدّاً بعد بضعة شهور من الاستسلام لقضاء «الوقائع العنيدة» ، كما يسميها ، وقائع ان البروليتاريا كانت اوعى من اكثر الطلائع وعيا لاكثر الطبقات تقدما ـ كما قال هو

---

١ ـ سننشر قريبا هذا البرنامج الهام كاملا كملحق لـ «كومونة كرونشطاط».

نفسه في مناسبة اخرى ـ لقد كانت اوعى منه هو نفسه . ورأى ان عليه ان «يراجع» ما العمل ويرجع عنه ، ولو موقتا ، افضل من الوقوف ضد الثورة التي كانت تهز روسيا من أقصاها الى أقصاها هزا .

كان اول مبدأ راجع فيه لينين نفسه هو مبدأ حرية الانتخاب، حرية النقاش وحرية النقد «حرية الانتهازية» على حد نعته . وهكذا كتب منذ فبراير ١٩٠٥ : «ان الاولوية **الكاملة** لمبدأ الانتخاب (في هيئات الحزب) ممكنة بل ضرورية في شروط الحرية السياسية ... بل انها ممكنة حتى في ظل الاوتوقراطية بدرجة اكثر بكثير من السابق» (المؤلفات ج٨ ص ٤١٢) .

وتحت مناخ الثورة المجالسية تخلى لينين ايضا عمليا ونظريا عن حزب «ما العمل» البيروقراطي الذي «حرية النقد والنقاش» فيه هي «حرية الانتهازية» ليعود ، نسبيا الى تقاليد الحزب الماركسي الديموقراطي التي كان قبل ثلاث سنوات فقط يركز عليها مدفعية شتائمه ـ لكنها عودة لن تدوم الا دوام مناخ الديموقراطية الذي أشاعته الثورة على جميع مستويات الحياة الشعبية ـ . وهكذا تم في مؤتمر الحزب البلشفي (ابريل ١٩٠٥) اقرار اللامركزية واعطاء لجان الحزب «الاستقلال الذاتي عن اللجنة المركزية» التي كانت حتى ذلك الحين تفرض سلطتها الاستبدادية المطلقة ، على صورة السلطة الرسمية القائمة ، على جميع اللجان في جميع مناطق روسيا المترامية الاطراف . وفي يونيو ١٩٠٦ وفي مقال دلّ ل : «على العمال ان يقرروا» اغتبط لينين بكون منظمة الحزب في بطرس بورج قائمة على «قاعدة ديموقراطية» . ودعا : «جميع اعضاء الحزب الى مناقشة **وحل** المسائل المتعلقة بحملة البروليتاريا السياسية ، وعلى **كل** اعضاء الحزب ان يحددوا ما هو التاكتيك الذي يجب ان تتبعه منظمات الحزب» (ج١٠ ص ٥٣١) . وفي هذا المناخ تأكدت حرية الاتجاهات وصراع

الاتجاهات في صلب الحزب البلشفي . «لا سبيل الى بناء حزب جماهيري (في ١٩٠٢ كان يؤكد على حزب النخبة) ، حزب طبقي اذا لم تلق الاضواء على جميع التلاوين الاساسية ، واذا لم يكن هناك **صراع علني** بين مختلف الاتجاهات في الحزب» (من هم القضاة ؟ نوفمبر ١٩٠٧) . وفي مؤتمر ستكهولم اعتبر لينين ان «حق وجود التكتلات داخل الحزب طبيعي تماما» .

كما ان لينين «ما العمل» الذي كان يستهين بمبادرات الجماهير البروليتارية توارى قليلا امام لينين آخر يعترف بكل بساطة بأن «الجماهير اوعى من الحزب» وبأن الاضراب العام الذي يعلن بمبادرة الجماهير دون مبادرة الحزب «هو شكل من أشكال التنظيم» مستقل عن الحزب ومشروع ، مشيدا «بالنشاط التنظيمي **Organisatrice** للشعب وخاصة للبروليتاريا» التي فاجأته بسوفياتاتها من حيث لا يحتسب .

لم تستطع بيروقراطية الحزب البلشفي التي أطلق عليها لينين اسما ملطفا وتحقيريا في وقت معا : «اللجنويون» (موظفو اللجان الحزبية) ان تحتمل هذين التغييرين الجزئيين لبنية الحزب المركزية ولاديولوجيا الحزب القائمة على تهويل دور الحزب وتهوين دور الطبقة العاملة . نجد شهادة بليغة على هذه المعارضة في اعمال مؤتمر الحزب البلشفي الذي انعقد بلندن (ابريل ١٩٠٥) حيث رفعت اغلبية البلاشفة في وجه لينين شعاراته في ١٩٠٢ : « لا ينبغي اللعب بالديموقراطية» ، «الحزب اولا» ، «يجب الحذر من فتح الحزب للعمال» الخ . وعندما طالب لينين في هذا المؤتمر بادخال العمال الى كوادر الحزب لـ «تجديد وتنشيط دورته الدموية» واجهته البيروقراطية البلشفية ممثلة بموظفي الحزب والثوريين المحترفين بالرفض والتشكيك في قدرة العمال على تحمل مسؤوليات قيادية في الحزب ... اعترف لينين عندما كان يستمع الى روبنييف يشرح اسباب رفض قبول عمال المصانع في

كوادر الحزب بعجزهم عن الارتفاع الى المسؤوليات الحزبية ، بأنه «لم يطق صبرا على الجلوس» . اقترح لينين تعديـــلا للقوانين الاساسية للحزب يقضي بوجوب زيادة عدد العناصر العمالية في اللجان البلشفية . لكن المؤتمر رفض اقتراحه بأغلبيـــة الثلثين تقريبا . هكذا سقط لينين وانتصرت اللينينية ! روت كروبسكايا، زوجته ، في مذكراتها ، بأن لينين «لم ينزعج زيادة لذلك . لانه كان يعلم ان الثورة كانت في الطريق ، وبأنها **سترغم** الحزب على قبول العمال في لجانه» . اي نعم ! لمجرد قبول الحزب للعمال في اللجان كان لا بد من ثورة !!!

تكشف رسائل لينين التي وجهها لاهم قادة الحزب فـــي بطرس بورج ، معقل الثورة ، عن مدى تبقرط الحزب البلشـفي الهائل وعبادة قادتهللسلطة و«عبادةالسلطة هي دين البيروقراطية»، على حد قول ماركس ، وعلى مدى تعلقه بالحقـوق **والامتيازات** ، بالشكليات البيروقراطية وبالتالي على مدى انفصال وتخلف الحزب، الذي نصب نفسه قيادة أركان للطبقة العاملة وضابطا نشيطـــا لانتفاضتها ، عن الثورة والطبقة العاملة الثورية !

كتب لينين الى جوسيف في بطرس بورج يناشده ان يتعلـم الحزب البلشفي من المناشفة : «لا تتأخروا عن ربط حزبنا بعلاقات **مباشرة** مع القوى الجديدة ، مع الشباب ، مع الحلقات الجديدة. ان **جميع** اعضاء الحزب في بطرس بورج (تبا لهم) لم يربطونـــا بعلاقة **واحدة** جديدة ... انها لفضيحة ، انه **الافلاس** . اتوسل اليكم بالسماء لكي تتعلموا من المناشفة» (١٥ فبراير ١٩٠٥) وفي ١١ فبراير ١٩٠٥ كتب الى بوجدانوف Bogdanov **مسـؤول** مكتب الحزب البلشفي في بطرس بورج : «نظموا مهما كان الثمن، نظموا ، نظموا **مئات** الحلقات وضعوا جانبا الحماقات المألوفـــة (المراتبية) عند اللجان . اننا في حالة حرب . فاما ان تشكلـــوا منظمات عسكرية **جديدة** ، فتية ، طازجة ... واما ان تهلكوا مع

شهرتكم كلجنويين مثقلين بالاختام» . وفي رسالة اخرى الى لجنة المعركة البلشفية (١٦ـ١٠ـ١٩٠٥) ناشد فيها قادتها : «اتركوا لوجه الله الوظائف ، **الحقوق والامتيازات** للشيطان» .

لكن ما ان هزمت ثورة ١٩٠٥ وانحسر مناخها حتى عادت حليمة لحكاياها القديمة : عاد لينين لنفسه ولحزبه ، وعاد مع حزبه في جوقة متناغمة الى أسطورة ان البروليتاريا مفصولة عن وعيها ، والثوريون المحترفون والمثقفون الحزبيون هم الواسطة ، بينها وبين وعيها ، هم الذين يقدمون البروليتاريا الى نفسها ، متجاهلا التجربة المعاشة لثورة ١٩٠٥ حيث تجلت العلاقة الجدلية الحية بين الوعي الثوري والممارسة البروليتارية الثورية ، بين تجذر وعي البروليتاريا وتجذر صراعها الطبقي .

بعودة القيصرية بدأت «سنوات الرجعية» ١٩٠٨ ـ ١٩١٤ . فر القادة البلاشفة الى الخارج وعاد الحزب ، الذي فقد معظم عناصره في الهجوم المضاد للرجعية الظافرة ، الى السرية الكاملة متحولا الى شيعة «باطنية» بلانكية واكتسب اكثر من اي وقت مضى خصائصها المقيتة : فرضت فيه مراتبية صارمة بحيث لم تعد المراتب الدنيا تعرف شيئا عما يجري في المراتب العليا على غرار الجيش التقليدي او على غرار التنظيم البلانكي . ولعل هذه الفترة من حياة الحزب كانت فترة بعث وازدهار للتنظيم البلانكي اكثر من اي وقت مضى . فكما في التنظيم البلانكي نجد قيادة أركان محدودة تمتلك الوعي والخبرة وسلطة القرار ومراتب دنيا متتالية على رأس كل منها آمر مهمتها تنفيذ القرارات العليا بدون نقاش ، هذه القرارات التي اتخذت من وراء ظهرها او ، في احسن الاحوال ، بمشاركتها الهامشية لكي لا نقول الشكلية . قيادة الاركان كانت تتكون في معظمها من المثقفين الذين يمتلكون «علم الثورة» ومن قلة من العمال الذين انفصلوا عن المعمل وأصبحوا محرضين محترفين يبيعون نضالهم لقاء اجر معلوم ! وقيادة

الاركان هي وحدها التي تخطط برنامج التنظيم وتحدد الوسائل الكفيلة بتحقيقه ، وهي وحدها التي تحدد كيف ومتى تفجـــر الانتفاضة ، تماما كما تحدد قيادة أركان جيش كلاسيكي كيـــف ومتى تخوض حربا من الحروب . وفرضت على الحزب وحدانية ادیولوجية لا تترك المجال لاي حوار جدي ، وهي الوحدانية التي سيرتقي بها القيصر ستالين بعد انتصار الدولة على الثورة الى مرتبة دين مطاع . وعادت فيه عودة كاملة وظافرة ، برغم انف واقـــع ووقائع ثورة ١٩٠٥ ، السلطة المطلقة لنصوص انجيل «ما العمل ؟» والمركزية المطلقة للقيادة . اما ما سمي ب«المركزية الديموقراطية»، هذه المفارقة التي ينطبق عليها نقد ماركس لمفارقة برنامج جوتا : «دولة حرة» ، بأن كلمة دولة تنفي كلمة حرة ، فانها لم تكن الا مجرد تسوية عرجاء بين البلاشفة المنادين بالمركزية المطلقة والمناشفة المنادين بالديموقراطية الليبرالية في مناخ ثورة ١٩٠٥ التي نقلت روسيا من الاستبداد الشرقي الى الديموقراطيـــــة المباشرة عبر السوفياتات . تبنى المؤتمر الموحـــد لجناحي الديموقراطيـــة الاشتراكية الروسية البلشفي والمنشفي في مؤتمر ستكهولــــم (شباط ١٩٠٦) تسوية الديموقراطية المركزية التي لم تطبق ابدا لانها غير قابلة للتطبيق . لم تكن هذه التسوية في الواقع الا صدى باهتا للديموقراطية المباشرة التي ابدعتها ممارسة البروليتاريا لا فقط دون قيادة البلاشفة والمناشفة بل ضدها . ولم يكد زخـم الثورة يتوارى حتى عاد البلاشفة الى مركزيتهم المنحوتة على صورة مركزية الدولة القيصرية وعاد المناشفة الى ثرثرتهم عن الديموقراطية التمثيلية المستوردة اديولوجيا من البرلمانية الاوربية .

هكذا نفهم لماذا لم يطبق **ابدا** مبدأ دورية القيادات ومبـــدأ الانتخاب وقابلية العزل للقادة التي ادخلها لينين ، بعد صراع ، الى قوانين الحزب الداخلية . كما كانت الدولة القيصرية عاجزة عن المزاوجة بين استبدادها الشرقي والليبرالية البورجوازية ، كانت

الديموقراطية الاشتراكية الروسية بدورها اكثر عجزا عن المزاوجة بين المركزية الشرقية والليبرالية الغربية .

هذا الحزب الذي تكون فيه الكلمة العليا للقمة على القاعـدة وللحزب على الشعب كان عند البلشفية ، كما كان عند البلانكيـة وفضلاتها في البلدان الشرقية التي لم تعرف التسامح السياسي قط ، تكييفا لهيكل الحزب الثوري البيروقراطي مع هيكل الدولة الاتوقراطية في بلدان كنت فيها الطبقة العاملة محدودة عدديا وما زالت لم تفصح بعد قولا وعملا عن نوعية مجتمعها الثوري البديل.

مثل هذا الحزب السري المغلق والمركزي الذي لا يعـرف او يعترف بمبدأ الانتخاب والعزل ـ هذا المبدأ الذي لم يطبق فـي الاشتراكية الديموقراطية الروسية بجناحيها البلشفي والمنشفـي التي اعتمدت دائما أسلوب التعيين الى قيام ثورة ١٩٠٥ ـ هو على صورة الدولة القيصرية القائمة حيث المراتب الدنيا تخضع للمراتب العليا خضوع الجثة والديموقراطية غائبة كليا بما في ذلك مبـدأ الانتخاب . الثوري المحترف في الحزب هو ايضا صورة مقلوبة ، ظاهريا ، للبيروقراطي في الدولة القيصرية . البيروقراطـي القيصري يعتبر الجماهير في حاجة الى «تنوير» من خارجهـا يبصِّرها بما عليها وما لها ـ ان كان لها شيء ! ـ والبيروقراطي البلشفي يعتبر ايضا ان الجماهير في حاجة الى **«تنوير»** مـن خارجها لدفعها الى الثورة دفعا بمعزل عن الامكانيات والشروط الفعليـة .

النقيصة الاساسية في الحزب الثوري البيروقراطي هي انه لا يشكل نفيا للدولة التي يحاربها لا على مستوى مضمون الثورة التي يحرض بها ، ولا على مستوى علاقاته مع الجماهير ولا على مستوى نمط تسييره . ومثل هذا الحزب لا يستطيع في النهاية ـ هذا اذا نجح ـ الا ان يعيد انتاج نفس الدولة ونفس المجتمع اللذين زعم انه ما جاء الا ليطيح بهما الى الابد . ألم يكن ستالين،

مثلا ، اعادة انتاج موسعة لاكثر الملوك والقياصرة استبدادا في التاريخ كما اعترف بذلك تروتسكي نفسه في: **اخلاقنا وأخلاقهم**.

ان تنظيما ثوريا مضادا للبيروقراطية يخطىء هدفه ويضيع وقته اذا حرض ، بدلا من الديموقراطية المباشرة ، بالديموقراطية التمثيلية (١) (البورجوازية) في مثل هذه المجتمعات الاستبدادية التي لم يقدم التاريخ حتى الان مثالا اكيدا على امكانية انتقالها الى الليبرالية بشكل ثابت وعلى مدى حقبة تاريخية بكاملها . وذلك اساسا ، وبين شروط اخرى ـ لانعدام او ضعف الملكية الخاصة الثابتة ، الديناميكية والتنافسية . وسيطرة ملكية الدولة او ملكية الجماعات . غياب التعددية على صعيد الواقع انعكس غيابا لها على صعيد السياسة والفكر .

يبدو من التجربة الروسية والصينية ان المرور بمرحلة الليبرالية امكانية ضئيلة الحظوظ . وان الانتقال سيكون من النقيض الى النقيض بدون وسيط : من الاستبداد المباشر الى الديموقراطية المباشرة . وهذه الامكانية الاخيرة برهنت على جديتها ديمقراطية السوفياتات المباشرة في ١٩٠٥ و١٩١٧ . صحيح ان هذه الديموقراطية المباشرة اجهضت في المرتين : في الاولى لصالح القيصرية وفي الثانية لصالح الطبقة البيروقراطية التوتاليتارية بماهيتها . لكن اجهاضها ليس دليلا كافيا على استحالتها . انها هي على اية حال تظل **الامكانية** الاكثر ورودا على جدول اعمال التاريخ ، خاصة في حقبتنا حيث نرى الليبرالية نفسها تحتضر في عقر دارها : البرلمانات البورجوازية تضاءل

---

١ ـ لن يقف موقف العداء من الذين يحرضون بامكانية الديموقراطية التمثيلية (انتخابات حرة ، حرية الاحزاب والصحافة) بل موقف الدعم مع توضيح ما في موقفهم من نقص وخلل .

دورها كرقيب على السلطة التنفيذية حتى اختزلت الى مجرد ديكور لحقبة خلت . وسلطة اتخاذ القرار في الدول المتمدنة كما هي في الدول الهمجية بيد قيادة بونابارتية محاطة بطواقم محدودة من الخبراء التقنوقراطيين واجهزة المخابرات . وهكذا فان امية الاستبداد تجعل أمية الثورة اخيرا ممكنة .

الجذور المادية للتنظيم اللينيني

التنظيم اللينيني لم يولد من رأس لينين كما ولدت منيرفا من رأس جوبيتير بل هو وليد تصور معين لمضمون الثورة الروسية وشكل معين لتسيير المجتمع القادم ، هما بدورهما انعكاس للواقع الروسي في مطلع القرن .

تميز الاقتصاد الروسي في تلك الفترة بازدواجية خاصة : ريف تهيمن فيه علاقات قبل رأسمالية في عنصرها الغالب تضغط على عنق الجماهير الفلاحية الواسعة وتدفعها دفعا الى النضال ضدها من اجل علاقات رأسمالية متقدمة . ومدن صناعية تتجمع فيها بروليتاريا نشيطة تناضل من اجل تحررها الاشتراكي . من هاتين الطبقتين اللتين يوحدهما النضال ضد علاقات الانتاج القائمة ويفرقهما الهدف من هذا النضال ، ستولد الثورة الروسية في ١٩١٧ .

من ثنائية والتباس الوضع الاقتصادي الروسي (علاقات قبل رأسمالية في الريف وعلاقات رأسمالية متخلفة في المدن) ومن ثنائية والتباس الوضع الاجتماعي (فلاحون يطمحون الى علاقات رأسمالية وعمال يطمحون الى علاقات اشتراكية) نتجت ثنائية والتباس الحلول الثورية التي واجهت بها الاشتراكية الديموقراطية الروسية بجميع منوعاتها البلشفية ، المنشفية

والتروتسكية (١) التي سنعرضها بعد قليل .

اذا القينا نظرة خاطفة على الخارطة الطبقية الروسية في العقد الاول من هذا القرن نرى :

ان البورجوازية الروسية كطبقة لم تعد قادرة على تحقيق ثورتها على غرار شقيقاتها في الغرب .

حاولت البورجوازية الروسية في مطلع القرن التاسع عشر ان تحقق على الصعيدين الاديولوجي والاجتماعي ثورتها البورجوازية الاوربية دون جدوى .

على الصعيد الاديولوجي حاولت الانتليجانسيا البورجوازية الثورية المتأثرة بأدباء ومفكري البورجوازية الاوربية في القرن ١٨ع ان تلعب دور الطليعة الفكرية للبورجوازية الروسية الناشئة ـ كما ستحاول في أوائل القرن العشرين ان تلعب نفس الدور لكن بحظوظ أوفر من النجاح بالنسبة للفلاحين والعمال ـ بتحقيرها الشروط الاقطاعية والاستبداد الشرقي في وعي الناس . ولهذا الهدف كتب راديشييف **رحلة من سان بطرسبورج الى موسكو** سجل فيها بؤس الفلاحين وحرضهم على الثورة : «ارتجف ايها الاقطاعي الصلف هلعا ، فعلى أهداب فلاحيك اقرأ حكم ادانتك». ولما قرأت الامبراطورة كاترين الثانية رحلته علقت على هامش احدى صفحاتها : «يبدو ان راديشييف نصب نفسه قائدا للثورة التي ستمزق تاج القياصرة» . ولذلك امرت بحرق الرحلة ونفي المؤلف

---

١ ـ لا يمكن اختزال حل تروتسكي ـ بارفوس : الثورة الدائمة الى اي من الحلين البلشفي والمنشفي . اما تروتسكي كشخص فقد تميز بالتذبذب بين المنشفية والبلشفية والرغبة في اصلاح ذات البين بينهما الى ١٩١٧ حين ذكر له البلاشفة رفضه للتحالف مع الاحزاب الاشتراكية . وهو رفض استحق عليه في الوقت المناسب تعميد الاب لينين له بأنه «مذ ذاك لم يوجد بلشفي افضل منه»!

الى جحيم سيبيريا .

في منفاه السيبيري تلقى راديشييف من بوشكين ، هـــذه الكلمات :

ستنهض روسيا من سباتها الطويل ،
وعندما تسقط الارستقراطية حطاما ،
فأسماؤنا ستحفر عميقا في التاريخ !

لكن ما تساقط حطاما في ١٨٢٥ لم يكن الارستقراطية بل كان اول وآخر محاولةثورية بورجوازية لاسقاطها: محاولة الديسمبريين التي رثاها بوشكين رثاء مؤثرا :

عميقا في قعر منجم سيبري ،
احتفظ بصبرك وكبريائك ،
فالعمل المر لن يذهب هباء ،
والفكر الثوري سيبقى ناهضا .
السلاسل الجاثمة بكل وطأتها ستنكسر
وستسقط الكلمة الجدران السميكة ...

في الواقع لم يبق بيد البورجوازية الروسية ، بعد فشـــل الديسمبريين ، من سلاح الا سلاح الكلمة العاجز ، اذا لم يرتبط بقوة مادية ، بطبقة ثورية ، عن اسقاط جدران القيصرية السميكة!

ظل الفكر البورجوازي الروسي الثوري ناهضا ، لا كتعبير عن طبقة بورجوازية ناهضة ، بل اساسا كصدى للاديولوجيا الثورية الاوربية وكاحتجاج فكري على بؤس الحياة الروسية ، من بوشكين الى مكسيم جوركي . لكن البورجوازية الروسية المحدودة عدديا، الخاملة سياسيا والخاضعة ماليا للدولة القيصرية (قروض الدولة ومساعداتها) والتي لم تكن ، اذن ، تلعب ، عكسنا للبورجوازيـــة الغربية الصاعدة في القرن ١٨ ع ، الا دورا ثانويا في تنمية القوى المنتجة الروسية ، ارتدعت وتابت منذ محاولـــة الديسمبريين فتخلت عن قيادة العمل الثوري المباشر لحساب نفسها مكتفيـــة

بالتعاطف الافلاطوني مع اعداء القيصرية من الارهابيين الشعبويين املا بأن يشكلوا بارهابهم ضاغطا على القيصرية لكي تتمقـــرط وتتغرب قليلا . ومنذ ١٩٠٥ عندما نزلت البروليتاريا الروسيـــة الثورية بنفسها الى ساحة الصراع مسلحة بسوفياتاتها وفشلت البورجوازية في استخدامها كمطية او ضاغـــط ، اصبحت البورجوازية تخشى الثورة اكثر مما يخشاها القياصرة انفسهم . وأصبح التعاون مع القيصرية مطروحا بشكل مكشوف على جدول عملها اليومي ، كطبقة عميلة للارستقراطية حتى ١٩١٧ عندما قامت بثورتها المضادة (اغسطس) لدعم القيصرية المنهارة .

الفلاحون الروس الفقراء كانوا ، نظرا لعجزهم عن النضـــال باستقلال عن البورجوازية او الطبقة العاملة ، معارضين سلبيين للقيصرية الى ان اندلعت الثورة .

البروليتاريا الروسية كانت سنان الرمح في النضال ضـــد القيصرية والرأسمالية رغم محدودية عددها ، بالقياس الـــى الفلاحين ومجموع السكان ، (٨ ــ ١٠ ملايين) .

الانتليجانسيا البورجوازية الصغيرة الثورية المتأثرة حتى العظم بالاديولوجيات الثورية البورجوازية خاصة اديولوجيا اليعاقبـــة والتي كان يعزز من راديكاليتها واقـــع ان الدولة القيصريـــة الاستبدادية والمتخلفة لم تكن تفتح لها امكانيات جدية للاندمـــاج بأجهزتها ــ كان شعور هذه الانتليجانسيا بالمأزق الروسي لا يعادله في القوة الا طموحها الى اللحاق بالراسمالية المتقدمة فـــي أوربا الغربية وأمريكا الشمالية . ولم يكن امامها لتحقيق هذا الهدف المعلن (١) الا تشكيل حزب بيروقراطي ثوري مسلح باديولوجيـــا

---

١ ــ انظر كتابات لينين خاصة في الفترة بين ١٩٠٥ و١٩٠٧ . وانظر كتاباته في ١٩١٨ــ١٩١٩ : «اصلاح زراعي على الطريقة الامريكية» و«رأسمالية دولة على الطريقة الالمانية» .

وبرنامج ثوريين ـ لا بنظرية وبرنامج اشتراكيين ـ جوهرها القاسم المشترك الاعظم بين جميع الطبقات المعادية للقيصرية : اسقاط الاستبداد القيصري ولحاق روسيا «الاسيوية الهمجية» بأوربا المتمدنة (البورجوازية) اقتصاديا وسياسيا . وهذا ما يفسر واقع ان الاشتراكية الروسية كانت تلح على وسائل النضال ولكنها لم تكن تعبأ كثيرا بمضمونه . كل ما كان مهما لها هو اسقاط السلطة القائمة لا طبيعة ومضمون السلطة القادمة . من هنا طبع المثقفون الروس ، الذين كانوا على رأس هذه الحركة ، الحركة بالطابع اليعقوبي : «الاشتراكي الديموقراطي الثوري ، ليس الا يعقوبيا مرتبطا بتنظيم البروليتاريا ارتباطا لا فكاك له» (ما العمل ؟).

واضح من حقائق الوضع الروسي الاقتصادية والاجتماعية (انتاج وعلاقات انتاج ما قبل راسمالية في الريف وراسمالية متخلفة في المدينة ، وبورجوازية تنكرت لثورتها وطبقة عاملة محدودة ليست قادرة على الاحتفاظ بنصرها) ان الشروط الفعلية الروسية لم تكن ناضجة الا لتصعيد الصراع الطبقي لا لظهور ثورة اشتراكية ظافرة .

المأزق الروسي كان في مطلع القرن مطروحا على هذا النحو : الثورة البورجوازية ممكنة . لكن البورجوازية كانت ليس فقط لا تريدها بل وتخشاها اكثر مما تخشاها الارستقراطية الحاكمة نفسها . والثورة الاشتراكية الظافرة ـ كقفزة فوق المرحلة البورجوازية ـ كانت ، على الاقل في نظر المناشفة والبلاشفة وعلى راسهم لينين ، مستحيلة . لكن روسيا المتأزمة كانت تتمخض والبروليتاريا الروسية النشيطة كانت هناك ، وكانت تناضل في سبيل اشتراكية السوفياتات ، وذلك ما أفصحت عنه بثورة ١٩٠٥ . ولعله ليس مجرد مصادفة ان يكون طرح مستقبل الثورة الروسية ، مضمونها ، طبيعة قواها الاجتماعية وراهنيتها قد اقدمت عليه جميع أطراف الاشتراكية الديموقراطية (لينين ،

تروتسكي ـ بارفوس ، اكسليرود ـ بليخانوف) في مناخ ثورة ١٩٠٥ !

بدون ادراك هذا المأزق لا نستطيع ان نفهم لماذا كانت الاديولوجيا الاشتراكية الديموقراطية الروسية بجناحيها المنشفي والبلشفي وتيارها التروتسكي تعبيرا عناستحالة الثورةالاشتراكية في روسيا القيصرية :

المناشفة كانوا يصرخون ملء حلوقهم باستحالة الثورة الاشتراكية في روسيا القيصرية ويقدمون بديلا لها راهنية الثورة البورجوازية التي يقترحون لها كذات تاريخية : تحالف البروليتاريا مع البورجوازية الليبرالية . لقد كان الطريق الاوربي للثورة البورجوازية ما زال ماثلا في أذهانهم . ولم يكونوا واعين بخصوصيات الوضع الروسي وأخصها: عجز البورجوازية الحاسم عن المغامرة بثورة بورجوازية .

اما لينين وتروتسكي فبقدر ما كانا واعيين باستحالة الثورة البورجوازية التقليدية في روسيا كانا واعيين ايضا باستحالة الثورة الاشتراكية الظافرة في الشروط الفعلية الروسية ان لم تسبقها او تنجدها ثورة اشتراكية اممية في الغرب (١) . امام

---

١ - لم يكن هناك اي اشتراكي ديموقراطي روسي - بما في ذلك ستالين القومي - يفكر مجرد تفكير بامكانية ثورة اشتراكية روسية ظافرة بدون دعم حاسم من الثورة الاممية في الغرب . وربط تروتسكي امكانية نجاح مشروع الثورة الدائمة في روسيا المتخلفة باندلاع الثورة البروليتارية في الغرب كرد على قيام الثورة في اوربا الشرقية . وكان مقتنعا تماما بحتمية انهيار الثورة الروسية الاشتراكية اذا لم تمد لها الثورة الاوربية يد النجدة . اما لينين فقد ذهب ابعد: حتى احتمال نجاح الثورة البورجوازية الروسية بقيادة «العمال والفلاحين الديموقراطية» كان غير وارد في حسبانه في حالة عدم اندلاع الثورة الاشتراكية

مأزق هذه الاستحالة المزدوجة لثورة تبحث دون جدوى عن طبقة بطلة حتى النهاية ، بحثا عن حل وسط ، عن «طريق ثالث» ، ظن لينين انه وجده في صيغة «ديكتاتورية الفلاحين والعمال الديموقراطية» التي لم تكن في الواقع الا صيغة . اما مضمون

في الغرب . لان هذه الثورة لن تجنب ، على حد قوله ، روسيا خطر الردة القيصرية وحسب ، بل انها ستمكن البروليتاريا الروسية من مواصلة الصراع حتى الاستيلاء على السلطة في وقت قصير نسبيا . وفي ٧ مارس ١٩١٨ كتب لينين : «لا نستطيع الشك لحظة واحدة بان ثورتنا ـ وذلك واضح كل الوضوح ـ سيكون ميؤوسا منها اذا ظلت وحيدة واذا لم تندلع حركة ثورية في البلدان الاخرى (...) فالذي سوف ينقذنا هو الثورة الاوربية ...» (انظر من كومونة باريس الى مجازر عمان ص ٨٢ الطبعة الاولى) وظل يردد الى ان لفظ النفس الاخير بان عودة البورجوازية الى روسيا لا مفر منها بدون قيام الثورة الاشتراكية في الغرب . وقبيل وفاته ١٩٤٠ كتب تروتسكي (في كتابه ستالين) : «لم يخطىء لينين في ذلك . فالبيروقراطية الستالينية ليست الا مرحلة لعودة البورجوازية» . رغم ان ورثة الشيخ القتيل ، سامحهم الله ، ما زالوا مصرين على ان لا يروا من عودة الطبقة البورجوازية تحت بدلة بيروقراطية جديدة الا شريحة بيروقراطية «عمالية» !

أليس اذن عجيبا ومذلا ان نرى الاشتراكيين عندنا ما زالوا حتى الان ـ في عصر تهديد واشنطن باحتلال آبار البترول لا تحسبا لثورة راديكالية ، بل فقط خوفا من مجرد عملية «تخريب» ، وفي عصر تدخل الاسطول السادس في اي بلد في العالم الثالث يرى فيه خطرا جديا على مصالحه ، وفي عصر تعلن فيه دولة اسرائيل انها لن تقف مكتوفة اليدين اذا اسقط ـ دون موافقتها سلفا ـ حسين الاردن ـ لا فقط لا يطرحون امكانية ثورة اشتراكية ظافرة في العالم العربي في منظور ثورة أممية عالمية ، بل يردون بابتسامة اشفاق او هزة كتفين ساخرة على الثوريين الامميين الذين يطرحون هذا المنظور !... آه ما أشد تخلفنا في جميع الميادين !!!.

هذه «الديكتاتورية الديموقراطية» فهو **الثورة البورجوازية** ! لقد كان منذ ۱۸۹٦ الى ۱۹۱۷ **يعتقد** بان الثورة القادمة في روسيا هي ثورة بورجوازية ليبرالية كمرحلة لا سبيل للقفز فوقها : «اننا غير قادرين على القفز فوق الاطار الديموقراطي البورجوازي للثورة الروسية ، غير اننا قادرون على توسيع هذا الاطار بنسبة هائلة» (لينين ١٩٠٦) . وكان جميع قادة المناشفة ومنظريهم : بليخانوف، اكسيلرود ... يشاطرونه هذه القناعة . وفي هذه الاثناء كتب لينين (١٩٠٥) : «الماركسيون مقتنعون تماما بالطابع البورجوازي للثورة الروسية . فماذا تعني هذه القناعة ؟ تعني ان التحولات الديموقراطية الضرورية لروسيا لا تعني محاولة لدك الرأسمالية ، لدك الثورة البورجوازية ، بل انها ، على العكس من ذلك ، تفتح الطريق لاول مرة فتحا مشروعا، امام **نمو واسع وسريع** للرأسمالية على النمط الاوربي لا على النمط الاسيوي . وللمرة الاولى ستجعل هذه التحولات **سيطرة البورجوازية** بصفتها طبقة ممكنة» . اذن مضمون «ديكتاتورية العمال والفلاحين ...» التي اتخذها البلاشفة شعارا الى **موضوعات نيسان** ١٩١٧ هي سيطرة البورجوازية الروسية كطبقة سائدة ! لكن من هي الذات الثورية المؤهلة لصنع هذه الثورة التي ستصبح غداتها البورجوازية طبقة مسيطرة على البروليتاريا طبعا ؟ هل هي البورجوازية ، كما قد يتبادر للذهن منطقيا ؟ كلا ، فـ«البورجوازية تخشى الثورة اكثر مما يخشاها القياصرة انفسهم» (لينين) ، بل انها الطبقة العاملة ، المتحالفة مع الفلاحين الفقراء ، **كأداة** لا كذات . وأي قوة مؤهلة لاقناع العمال بالقيام بثورة تكون فيها البورجوازية طبقة مسيطرة ؟ هذه القوة هي الحزب ، هذه الذات «الجديدة» للثورة التي تدفع العمال للقيام بثورة ليست ثورتهم وتقدم للبورجوازية ثورة لم تقم بها . طبعا يلزم لانجاز هذه المهمة اكثر من ادخال الوعي من الخارج بل ادخال العصا !...

مثل هذا الحزب لا يمكن ان يكون الا حزبا بوناباريتيا **فوق** الطبقات ، مستقلا نسبيا عنها ويدعي انه يعرف مصلحة كل طبقة كما لا تعرفها هي ذاتها ، لذلك فهو الاقدر على تسلم السلطة وتسليمها للبورجوازية ... او الاحتفاظ بها . لقد وضع التاريخ الامور في نصابها الصحيح. فهذه الثورة الموعودة لم تكن بورجوازية الا مضمونا . اما شكلها واسمها فهو الثورة البيروقراطية . (والثورة البيروقراطية ليست ، كما يزعم البيروقراطيون ، الخطوة الاولى (مرحلة الانتقال) نحو الثورة الاشتراكية بل هي آخر الثورات البورجوازية في البلدان التي لم تكن فيها البورجوازية التقليدية بقادرة على القيام بثورتها ولم تكن فيها الشروط الفعلية الضرورية متوفرة لا محليا ولا أمميا لثورة اشتراكية ظافرة مثلما هي متوفرة اليوم في كل مكان تقريبا) حيث ظهرت البيروقراطية، كطبقة جديدة مسيطرة ، هذه الطبقة التي لم تكن توقعا **واعيا** تماما حتى عند القادة البلاشفة انفسهم (١) .

اما تروتسكي ـ بارفوس فقد ظنا انهما وجدا المخرج من ازمة الثورة المستحيلة في الثورة الدائمة : أنتصار الثورة الديموقراطية (البورجوازية) في روسيا القيصرية لا سبيل اليه الا بديكتاتورية البروليتاريا التي ستكسب اليها الفلاحين من خلال ادخال الصراع الطبقي ألى الارياف . ومهام الثورة البروليتارية الدائمة مزدوجة:

---

١ ـ اذا كان خطر الثورة البيروقراطية غير واع او غير واع الا بالنصف في مفهوم تنظيم البلاشفة الذين لم يكونوا يعرفون بالضبط نموذج السلطة المقبلين عليها، فان الذين يبشرون اليوم بعد ٦٩ عاما من ظهور التنظيم البلشفي الذي قاد الى وساعد على ظهور الطبقة البيروقراطية ، وبعد ٥٢ عاما من مذبحة كرونشطاط وظهور الستالينية حيث السلطة للحزب على الشعب وللبيروقراطيين على البرولتاريين ، انما هم اعداء طبقيون وينبغي ان يعاملوا على هذا الاساس .

ديموقراطية واشتراكية في وقت معا . الانتصار النهائي للثورة الدائمة رهن بقيام ثورة اشتراكية في الغرب . لكن صيغة الثورة الدائمة ، الملغومة بتناقضات داخلية تختلط فيها اليعقوبية (ديكتاتورية القلة على الكثرة) بالارادية (عدم الاهتمام بنضج الشروط الفعلية ، اذ انها باتت صيغة عجائبية صالحة لكل زمان ومكان) لم تكن هي الاخرى الا صيغة لا اكثر .

هذه المحاولات المنشفية ، البلشفية والتروتسكية كانت جميعا تعبيرا صريحا عن استحالة الثورة الاشتراكية بمفهوم ماركس . فالثورة عند ماركس ـ انجلز ليست استبدال شكل الحكومة البورجوازية بشكل حكومة عمالية . بل هي استبدال نمط الانتاج الرأسمالي ونمط الحياة البورجوازية بنمط أنتاج اشتراكي ونمط حياة اشتراكية . وذلك لن يتحقق الا اذا اطاحت الثورة برأس المال الخاص او الدولوي ، التنافسي او الاحتكاري. لان رأس المال ليس شكلا حقوقيا للملكية بل هو **مضمون** فعلي . راس المال هو استمرار قانون القيمة والتبادل السلعي ، اذن ، استمرار بيع وشراء سلعة قوة العمل ، اذن ، استمرار نظام العمل المأجور . والثورة الاشتراكية هي بالتالي قضاء جذري وفوري على نظام العمل المأجور وعلى تقسيم المجتمع الى عمال وأرباب عمل ، الى منتجين مباشرين وخفراء (مدراء) على المنتجين المباشرين . الثورة الاشتراكية عند ماركس ـ انجلز هي القضاء على رأس المال وليست ادارة رأس المال بشكل افضل ، ليست مجرد ادارة «ديموقراطية» او بيروقراطية لرأس المال . هذه الادارة الافضل لرأس المال هي مضمون المشروع الثوري الاشتراكي الديموقراطي الروسي بتياراته الثلاثة . ذات مرة رد لينين ، على مشكك في قدرة حكومة بديلة للحكومة الروسية القائمة ، قائلا : ان ٢٥٠ الف بلشفي أقدر من ١٢٠ الف مالك عقاري على حكم روسيا . وهذا هو تماما مضمون الثورة البلشفية : استبدال الملاكين العقاريين بالبلاشفة في **ادارة**

رأس المال الدولوي ومؤسسات الدولة المرصودة لصيانته واعادة انتاجه الموسعة . اما البروليتاريا فستبقى كما كانت بروليتاريا تبيع سلعة قوة العمل للدولةكما كانت تبيعها للرأسماليينالخاصين ناقص امكانية المساومة على سعرها ، حسب العرض والطلب ، التي لم تعد واردة .

كان لينين متفوقا على تروتسكي في هذا : انه استشف التناقض الاساسي في الثورة الدائمة : فرض ديكتاتورية القلة العمالية على الكثرة الكاثرة من الفلاحين ، ولذلك وصمها بأنها ليست الا «افكارا رجعية ومضادة للثورة» . واختار بوضوح الثورة البورجوازية (كمرحلة انتقالية ضرورية في تحليله) : تصفية علاقات الانتاج قبل الرأسمالية **«الاسيوية»** على حد قوله في الزراعة (والصناعة ايضا) بتحقيق اصلاح زراعي على الطريقة الامريكية لا البروسية (اليونكر) وخلق طبقة من الفلاحين الاحرار، تنمية الرأسمالية الروسية بوتائر الرأسمالية الامريكية ، توسيع اقتصاد الدولة الذي ارست قواعده الدولة القيصرية خاصة في صناعة السلاح ، اقامة دولة حديثة ليبرالية . هذه التدابير ، كما كان يفكر ، تفتح ، بتصنيع روسيا وخلق البروليتاريا الواسعة ، الطريق للنضال في سبيل الاشتراكية. وهذه تقريبا هي المهام التي حققتها الدولة البلشفية المنتصرة التي لم تتخط هذا المضمون البورجوازي للثورة البيروقراطية . لكن الجديد هو ان لينين اعطى لهذا المضمون في ١٩٠٥ اسمه الحقيقي : الثورة **البورجوازية** . لكنه في ١٩١٨ ـ ١٩٢١ تذبذب بين تسميته برأسمالية الدولة تارة ، بديكتاتورية البروليتاريا أخرى !

كما التقينا بمفهوم للثورة غريب عن المفهوم الماركسي للثورة ، نلتقي هنا ايضا بمفهوم لديكتاتورية البروليتاريا (عند تروتسكي ـ بارفوس) أو لديكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية (عند لينين) غريب من بابه الى محرابه عن تصور ماركس ـ انجلز

لديكتاتورية البروليتاريا غربته عن البروليتاريا ذاتها !

في تصور ماركس وانجلز ديكتاتورية البروليتاريا هي ، رغم انها الخطوة الاولى على طريق الثورة الاشتراكية ، قفزة نوعية من العالم القديم الى العالم الجديد ، مما قبل التاريخ الانساني حقا . فمنذ ظهور ديكتاتورية البروليتاريا ينتهي راديكاليا : استغلال الانسان للانسان ، استعباد المنتجين المباشرين من قبل **وسائل ووقت** عملهم . وتنتهي بالتالي سيطرة الاشياء على البشر ، سيطرة الانتاج على منتجيه : يصبح ملكوت الضرورة (الانتاج الاقتصادي) خاضعا لرقابة المجتمع الثوري ، هذا المجتمع الذي يصبح بدوره خاضعا لرقابة الافراد المتساوين حقا والمتحررين حقا . و«دولة» ديكتاتورية البروليتاريا ، التي ليست الا «الديكتاتورية الثورية للبروليتاريا» (نقد برنامج جوتا) تكف عن كونها دولة ، اي عن كونها جهاز قسر متعال عن العمال ومنفصل عنهم . لان وسائل الانتاج ، التي كانت الدولة تحرس ملكيتها ، تنتقل من يد الرأسمال الخاص ورأسمالية الدولة الى «يد المنتجين المتحدين» (انجلز : ضد دورينج) وتنظيم بروتسيس الانتاج لا يعود يشرف عليه منظمو عملية الاستغلال : رؤساء العمال او المدراء البيروقراطيون بل يشرف عليه مباشرة المنتجون المباشرون انفسهم على اساس «اتحاد حر ومتساو بين المنتجين» (اصل العائلة ...) . و«دولة» ديكتاتورية البروليتاريا ، التي هي ليست الا «البروليتاريا المنظمة في طبقة قائدة» (البيان) تكف عن كونها دولة لانها دولة عزلاء : بدون بوليس ، بدون جيش (لان الجيش يصبح الشعب كله مسلحا) وبدون بيروقراطية ، لان المنتجين المباشرين قد اخذوا مصيرهم بأيديهم ، استردوا سلطتهم على حياتهم اليومية وتحرروا راديكاليا من كل سلطة ليست سلطتهم هم الوحيدة والمطلقة . وهكذا ف «دولة» ديكتاتورية البروليتاريا هي «لا ـ دولة» هي الدولة «المحطمة» و«المفككة» (رسالة ماركس الى كوجلمان ١٨٧١)،

ديكتاتورية البروليتاريا هي كومونة باريس ، كشكل بدائي للمجالس العمالية التي ستكتمل ملامحها في ثورات البروليتاريا في القرن العشرين : «انظروا الى الكومونة : هذه هي ديكتاتورية البروليتاريا» (انجلز) . عادت كومونة باريس بشكل ارقى في ثورة ١٩٠٥ و١٩١٧ ثم في جميع الثورات البروليتارية اللاحقة متخذة اسمها النهائي «المجالس» التي اصبحت مذ ذاك **شكل ومضمون** ديكتاتورية البروليتاريا .

عندما واجه ماركس وانجلز وضعا متخلفا تخلف الوضع الروسي او يزيد في المانيا ١٨٤٩ المجزأة – وفي شروط اوربية وعالمية كانت هي الاخرى متخلفة جدا عن الشروط الاوربية والعالمية في أوائل القرن العشرين فانهما اقترحا على الطبقة العاملة الالمانية الفتية والمحدوودة عددا وعدة تصورا للثورة (في بلد متخلف) لا يساوم مع اي شكل من أشكال السيطرة الطبقية (١) ويرفض ان يساوم بأي ثمن ، ولو بثمن دولة ، على مبدأ الهيئات الطبقية العمالية **المستقلة والمنتخبة** : «يجب معارضة اعادة تشكيل الحرس الوطني القديم الموجه ضد العمال . وحيث لا يستطيع العمال الحؤول دون ذلك ، فلينظموا انفسهم في حرس بروليتاري مستقل له قادته وهيئة أركانه العامة المنتخبون جميعا من العمال والذين لا يأتمرون بأوامر السلطة العامة بل بأوامر المجالس الثورية التي

---

١ – اقرأ بهذا الجزء من الكتاب ، تاريخ رابطة الشوعيين مع اعارة اهتمام خاص للاحظة انجلز النقدية حول تصورهما اليعقوبي (١٨٥٠) في الجزء الاخير من الفصل للدولة المركزية الذي اوقعهما فيه مزورو تاريخ الثورة الفرنسية من البونابارتيين والليبراليين والذي تخلصا منه بعد أن اطلعا على حقائق الثورة الفرنسية ، التي اقامت الادارة الكاملة في المحافظات والكومونات الخ على اللامركزية وعلى مبدأ الانتخاب والعزل من قبل جميع السكان المعنيين .. وان ذلك لم يضعف الثورة بل اعطاها قوة وبأسا .

يشكلها العمال» (١) .

اما ديكتاتورية البروليتاريا عند البلاشفة (بما في ذلك تروتسكي بعدما اصبح افضل بلشفي حقا وصدقا !) فهي **الديكتاتورية على البروليتاريا** ، ديكتاتورية الحزب على الشعب .

منذ ١٩١٩ ، وبعد ٣ سنوات فقط من صدور كتاب **الدولة والثورة** الذي ظل حبرا على ورق ، بدأ البلاشفة يؤدلجون وضعهم الخاص مصدرين سيلا من الفتاوي الظرفية المتناقضة كليا مع تراثهم النظري نفسه ومع وعودهم للعمال التي غدروا بها حتى قبل ان يتلاشى صداها من الآذان . كتب تروتسكي في ١٩٢٠ «لا يمكن للبروليتاريا ان تمارس ديكتاتوريتها الا بواسطة الحزب» (الارهاب والشيوعية ص ١٢٠) . وكتب البلشفي الآخر ستالين نفس الشيء بعبارات مماثلة : ديكتاتورية البروليتاريا هي ديكتاتورية حزبها . ودولة ديكتاتورية البروليتاريا لم تعد دولة «مفككة» و«محطمة» ، كما توهم ماركس «الطوباوي» ، بل اصبحت ، كما برهن ستالين «المادي» ، دولة كلية الجبروت لانه يجب «تطوير سلطة الدولة اعظم تطوير

---

١ ـ حاولنا الانطلاق من هذه الرؤيا الماركسيانية ومن وضع الوطن العربي الممزق الوصال لاقتراح امكانية شكل انتقالي للسلطة (ازدواجية السلطة الدائمة) في احتمال فيتنام عربية في «من كومونة باريس الى مجازر عمان» : **الاشكال الانتقالية في العالم المتخلف** ص ٩٧ ... تجاوزنا به مفهوم الثورة الوسيطة في «بعد المذبحة مع العمل» («دراسات عربية» ، مارکس ١٩٧١) الذي كان الى الثورة المتواصلة ـ عند لينين ـ او الثورة الدائمة ـ عند تروتسكي ـ اقرب . وحتى اقتراح ازدواجية السلطة الدائمة (هل يمكن لازدواجية سلطة ان تدوم طويلا ؟) هو مجرد اقتراح لمجرد احتمال ... وعلى كل حال فان كل طرح للثورة العربية الاشتراكية ، في عصر الامبريالية العالمية ، بعيدا عن منظور الثورة الامية هو طرح خاطىء تاريخيا ومضلل نظريا .

ممكن ، وذلك لتهيئة شروط زوال الدولة . هذه هي الصيغة الماركسية» (ستالين : مسائل اللينينية) . ها هو الجدل الماركسي يمشي على راسه في عالم ما زال كما كان ، في كل مكان ، يمشي هو الآخر على راسه !

سيرد الكثيرون عليّ : ذلك لم يكن الا نتيجة لهزيمة الثورة الروسية التي لم تنجدها ثورة أممية في الغرب . تلك الثورة التي علق عليها البلاشفة كل آمالهم واعتبروا الثورة الروسية بدونها هالكة لا محالة (١) . اجيب : الف الف صحيح ، لان ثورة مهزومة هي وحدها التي تترك لحزب او طبقة اخرى غير التي صنعتها ان تتكلم باسمها بجراة من لا يهاب التكذيب ! نحن نعرف ان التنظيم اللينيني كان منذ ظهوره الى ١٩١٧ نتاجا للتخلف المزدوج : تخلف الواقع الروسي وتخلف الثورة عن موعدها في اوربا . اما بعد ١٧ فقد اصبح نتاجا لهزيمة الثورتين الروسية والالمانية في وقت واحد تقريبا . اذن نقدنا للتنظيم أللينيني ، الـذي هو تعبير ولا شيء غير ذلك لنقد التاريخ له ، منصب اساسا على الجانب الاديولوجي ، التضليلي ، المخلف للوعي فيه ، وليس على الحقبة التاريخية ، على الشروط الروسية والعالمية المتردية التي انتجته ومدته بأسباب الحياة ومكنته من ان يصبح احدى التعبيرات الاديولوجية لاحدى طبقات العالم القديم السائدة . لان تخلف

---

١ ـ تردد لينين في القيام بانتفاضة ٢٥ اكتوبر ١٧ ترددا لم يحسمه الا عندما اقتنع بان الثورة الاشتراكية العالمية وشيكة وان الثورة الروسية لن تكون الا الشرارة الاولى في الحريق العالمي : «اذا كنا نحن قد قمنا وحدنا بالثورة ، فذلك لاننا مقتنعون بان الثورة في طريقها الى النضج في جميع البلدان ، وبان الثورة الاشتراكية العالمية ستندلع في النهاية ... لان هلاكنا من دون نجدة الثورة الالمانية **حقيقة مطلقة**» (لينين : خطاب في ٧ـ٣ـ١٩١٨) .

الشروط الفعلية في روسيا لم يكن ولا يمكن ان يكون في اي مكان كان مبررا كافيا لكي تسهم اللينينية في تخليفه اكثر بتخليفهـــا **للوعي** الاشتراكي الذي هو بحد ذاته قوة انتاج ثورية . وهي قد اقترفت ذلك لا داخل روسيا وحسب بل على امتداد قارات وعلى مدى حقبة تاريخية بكاملها . هذه الحقبة التي تقترب اليوم في كل مكان من نهايتها .

لكن يبقى مع ذلك الاعتراض بأن الحزب البلشفي لم يحل محل البروليتاريا الروسية في السلطة الا مرغما وتحت الحاح ضرورات ظرفية لم يكن له يد فيها (١) غير صحيح كل الصحة . لان حلول

---

١ – كثيرون من الماركسيين هم الذين رأوا شبها بين مأساة لينين كرئيس للحكومة السوفياتية الثورية ومأساة قائد ثورة الفلاحين في المانيا **توماس منزر Munzer** (١٥٢٥) عندما اصبح الرئيس الفعلي ﻟ «المجلس الخالد» : الحكومة الثورية الموقتة ، كما شخصها انجلز : «ان اسوأ ما يمكن ان يحدث لقائد حزب متطرف هو ان يرغم على استلام السلطة في حقبة ما زالت فيها الحركة لم تنضج بعد لتسمح بسيطرة الطبقة التي يمثلها وتطبيق التدابير التي تقتضيها سيطرة تلك الطبقة . ولا يتوقف ما **يستطيع** تحقيقه على ارادته بل على الطور الذي وصل اليه التناقض بين الطبقات المختلفة وعلى تطور الوسائل المادية للعيش (...) التي تقوم عليها في كل مرحلة التناقضات الطبقية . ان ما **يجب** عليه ان يحققه وما يطلبه حزبه منه ، لا يتوقف عليه ولا على درجة تطور الصراع الطبقي وشروطه . فهو مرتبط بالمذهب الذي بشر به وبالمطالب التي طالب بها حتى ذلك الحين ، وليس مذهبه ولا مطالبه صادرة عن العلاقات الطبقية **الراهنة** للطبقات الاجتماعية الموجودة ، بل من الادراك النافذ الى هذا الحـد او ذاك للاتجاهات العامة للتطور الاجتماعي والسياسي . وهكذا يجد نفسه بالضرورة في مأزق لا مخرج منه : ما **يستطيع** عمله يناقض عمله السابق ، مبادئه والمصالح الفورية لحزبه ، وما **يجب** ان يحققه غير قابل للتحقيق . وباختصار فهو مرغم

الحزب البلشفي محل الطبقة العاملة في روسيا بدأ حتى قبل هزيمة الثورة ، ذلك ان استبدال البروليتاريا بالحزب كامن في جدليته الداخلية كمون البذرة في الحبة (التي ستنمو وتعطي كل حصادها حالما تلتقي بالارضية الملائمة ، وقد التقت بها فعلا غداة اكتوبر ١٩١٧ في روسيا المنهارة اقتصاديا والمحاصرة عالميا) في وظيفته المبدئية المفترضة كصانع رئيسي للتاريخ ، كمدير نوعي الطبقة العاملة ، كقائد للصراع الطبقي وإذن كقائد للمجتمع الثوري الذي ستعطيه محصلة هذا الصراع . تماما كما كانت قيادة الحزب البلشفي **مستقلة** عن قواعد الحزب ، كانت دولة الحزب البلشفي مستقلة عن الشعب استقلالا ذرا الغبار في وجه استقلال دول الملكيات المطلقة والدولة البونابرتية التي جعلت ماركس يصرخ في ١٨ برومير : لقد اصبحت الدولة **اخطبوطا** يتغذى من المجتمع ويشل حركته .

تلك هي الخلفية الايدولوجية والتاريخية لمصادرة الحزب البلشفي للثورة واعادة العمال من السوفياتات التي حققوا بها تحررهم الى حيث كانوا قبل قيامها : باعة لسلعة قوة العمل .

بعد ١٩١٧ قليلون هم القادة البلاشفة الذين مارسوا نقدهم الذاتي ، كما فعل انطوان سيليجا (١) ، اما عند الآخرين فاننا نجد

على ان لا يمثل حزبه او طبقته بل على ان يمثل الطبقة التي تكون شروط سيطرتها قد نضجت . فهو مضطر ، لمصلحة كل الحركة ، على ان يدافع عن مصالح طبقة غريبة عنه اما طبقته فانه يعللها بالكلمات والوعود وبتأكيده لها بان مصالح هذه الطبقة الغريبة عنها ، هي مصالحها هي نفسها . وكل من تضعه الظروف في مثل هذا الوضع الخاطيء فهو لا محالة هالك» (حرب الفلاحين ص ١٧٦ ، سنة ١٨٧٤) .

١ ـ انظر : كومونة كرونشطاط . «دراسات عربية» مارس ١٩٧٣ .

بالعكس من ذلك تكريسا مذهلا بل تصعيدا مذهلا لدور القيادة في مقابل انتقاص دور الطبقة الثورية ، ودفع كل ذلك الى اقصى نتائجه المنطقية عند كل من ستالين وتروتسكي : «**لا ثورة مطلقا بدون حزب ثوري ماركسي لينيني**» (ستالين ١٩٢٦) . «الازمة التاريخية للانسانية هي ازمة غياب القيادة الثورية» (تروتسكي ١٩٣٨) . كان هيجل لا يطالب بأقل من الدولة لتحقيق العقلاني في التاريخ اما ستالين وتروتسكي فحسبهما قيادة **فقط** لتثوير العالم وانقاذ الانسانية من ازمتها التاريخية !

المسافة التي تفصل بين شعار ماركس ـ انجلز : «تحرير الطبقة العاملة من **صنع** الطبقة العاملة نفسها» . وشعار ان تحرير الانسانية **كلها** لا الطبقة العاملة وحسب هو من صنع الحزب عند ستالين ومن صنع قيادة **وحسب** عند تروتسكي ، هي نفس المسافة الفلكية التي تفصل بين الماركسية والبلشفية .

الحزب البلشفي الذي قلّد نفسه وظيفة الاستيلاء على السلطة وممارستها بالنيابة عن البروليتاريا ورص صفوفه بفصيلة من «ضباط الانتفاضة» ، من الثوريين المحترفين المنضبطين انضباطا **حديديا امام قيادة شبه معصومة وفوق الجميع هو حزب يعقوبي** لحما ودما وليس ماركسيا .

الحزب عند ماركس ليس هو الذي يقوم بالثورة بل تخوض الصراع من اجلها وتقوم بها البروليتاريا ككل ، البروليتاريا التي ارتفعت في معمعان صراعها الطبقي الى ادراك **كلية** مهامها المقروءة على ارض الواقع .

الطليعة البروليتارية في تصور ماركس تناضل مع البروليتاريا ، وتناضل على رأس البروليتاريا في يوم الصدام لا لمصلحتها الخاصة ، اذ ليس لها مصالح منفصلة عن مصلحة البروليتاريا ككل ، ولا لكي تستولي على السلطة ، بل لكي تقيم البروليتاريا كطبقة قائدة سلطتها المباشرة عبر هيئاتها المستقلة . الطليعة البروليتارية ليست

اذن الا تعبيرا عن مدى راديكالية الصراع الطبقي وتجذر الشروط الفعلية مثلما هي في ذات الوقت اسهام واع في تجذير هـــذه الشروط وذلك الصراع ، باعتباره نشاطا تاريخيا حقا يهدف الى تغيير المجتمع تغييرا **شاملا** . والنظرية البروليتارية ليست حمل الوعي الى البروليتاريا من خارجها . بل ليست الا «توضيـــح شروط ، مسيرة والنتائج العامة للحركة البروليتارية» (البيان) ، ليست الا سلاح النقد الذي يمهد لنقد السلاح ، ليست الا التحليل والاستشفاف للنتائج النهائية لهذا الصراع الطبقي الذي يدور امام عيون الجميع وكل احد . وهو لا يدور حول نفسه بل يتصاعد من الادنى الى الاعلى فالاعلى . اما عند لينين فهذا الصراع ليس جدليا بل ستاتيكيا ، انه لا ينمو ذاتيا ولا يتصاعد بل يدور حول نفسه دوما في حلقة المطالب النقابية (التراد انيونية) . والحزب وحده هو الذي يخرجه من هذه الحلقة المفرغة . الحزب وحده هو الذي يستطيع ، بإرادية خرافية ان يقصّر فترة الانتقال (الضرورية) بين الثورة البورجوازية والاشتراكية ، وهو الذي يستطيـــع بذات الارادية ان ينضج الشروط الفعلية التي لم تنضج بعد ، ويوعي الطبقة التي لم تع بعد . هذه الارادية الطفولية ، عرفتها وعانت منها الحركة العمالية في طفولتها . وقد تصدى لها ماركس وانجلز، لا عند البلانكيين وحسب بل وفي صفوف حزبهما نفسه : **رابطة الشيوعيين** ، بنقد كاسح : «تستبدل الاقلية (اقلية شابر) النظرة النقدية بنظرة دوجمائية ، وتستبدل المادية بالمثالية ، فهي تتصور ان قوة الارادة ، لا الشروط الفعلية ، هي القوة المحركة للثورة . نحن نقول للعمال : «عليكم ان تمروا بـ ١٥ ، ٢٠ ، او ٥٠ عاما من الحروب الاهلية والنضالات الشعبية لا لكي تغيروا الشروط الفعلية وحسب بل لكي **تغيروا انفسكم** ايضا ، لكي تصبحوا قادرين على استخدام السلطة السياسية» . وأنتم بالنقيض منا تقولون : «اذا لم نتسلم السلطة فورا ، فمن الافضل لنا ان نأوي الى الفراش».

التناقض الصارخ بين التصورين التنظيميين الماركسياني واللينيني ، يعكس تناقضا صارخا آخر بين مضمون الثورة عند لينين ومضمون الثورة عند ماركس .

مضمون الثورة عند لينين هو «اقامة سيطرة البورجوازية كطبقة» ، «الانتقال بروسيا الاسيوية الهمجية» الى نمط انتاج رأسمالي حديث ونمط سلطة ليبرالية غربية ، هو «اقامة جمهورية ديموقراطية فقط» (ستالين ١٩٠٥) . اما الثورة عند ماركس فهي اما ان تكون الاطاحة بجميع اشكال الاغتراب والاستغلال ، الاطاحة بكل سلطة مستقلة عن ارادة العمال وجميع المنتجين المباشرين او لا تكون . الثورة عند ماركس شاملة شمولية اغلال وآلام الطبقة العاملة التي تقوم بها . ومثل هذه المهمة التاريخية هي من السعة والعمق بحيث لا يستطيع حزب او فصيل من الطبقة انجازها ، بل هي مهمة الطبقة البروليتارية كلها ، وقد اصبحت ثورية ، وهي «اما ان تكون ثورية او لا تكون» ، (ماركس) . هذه «الطبقة البروليتارية هي وحدها القادرة ، ويجب ان تكون قادرةعلى **تحرير نفسها** لكنها لا تستطيع تحرير نفسها بدون القضاء على شروط حياتها الخاصة ، وهي لا تستطيع القضاء على شروطها الخاصة بدون ان تقضي على **جميع** الشروط اللاانسانية لحياة المجتمع الراهن المجسَّدة في وضعها الخاص . وليس عبثا ان تكابد قسوة **مدرسة العمل** التي تملؤها ارادة ، عزما وتصميما» (ماركس — انجلز : العائلة المقدسة) .

ان تتعلم البروليتاريا من «مدرسة العمل» ، من تجاربها وخبرتها ، من هزائمها وانتصاراتها . هذه هي وسيلة المعرفة الاساسية عند ماركس . اما على عهد الاممية الثانية ، على عهد كاوتسكي ولينين فقد استبدلت وسيلة المعرفة تلك ب «مدارس الحزب الاديولوجية» لفبركة الوعي الاشتراكي وتقديمة جاهزا للبروليتاريا عبر دعاة الحزب وموظفيه المتفرغين لـ «تثويرها» !

القوة الدافعة للثورة عند ماركس ليست الارادية ليست الوعي الذي تحمله لجنة من خبراء الثورة وعلماء الاشتراكية كما هـــو عند دعاة ادخال الوعي من الخارج من بلانكي الى لينين . وليست ايضا عفوية الطبقة في شكلها البدائي . بل القوة الدافعة للثورة الاشتراكية عنده هي **مدى تطور القوى المنتجة** : ما دامت علاقات الانتاج القائمة لم تدخل في صراع مع **كلية** القوى المنتجة ، هذه القوى التي تشكل البروليتاريا الواعية عمودها الفقري ، فـــان انفجار الثورة كاحتجاج عملي على الاستغلال ومؤسسات صيانته: اجهزة الدولة ، ممكن ووارد ، وذلك ما حصل فعلا في معظم بلدان العالم الصناعي والاقل تصنيعا على امتداد قرن وربع على الاقل (منذ باريس ١٨٤٨) ، لكن رعب البورجوازية كان عقابها الوحيد . وفعليا كانت الثورة البروليتارية طوال هذه المدة ، وفي كل مرة ، تقريبا ، تنتهي الى احدى هزيمتين : اما الى مذبحة جديدة واما الى ظهور طبقة بيروقراطية جديدة . ذلك ان ظهور اللحظة الثورية، انفجار الازمة ، عادة أثر هزيمة الطبقة الحاكمة في حرب ، يجعل جميع الامكانيات المتناقضة الكامنة في الواقع المحدد **راهنة** ، كما يجعل جميع التيارات الاجتماعية المتصارعة الكامنة في المجتمع تطفو على السطح . فما الذي يحدد هزيمة امكانية وانتصار اخرى، وغلبة تيار على آخر ؟ هو مدى تطابق احدى الامكانيات وتجاوب احد التيارات مع متطلبات الشروط الفعلية للقوى المنتجة ، وعلى رأسها الطبقة العاملة **ونوعية وعيها** . اذ لا يكفي ان تكون الامكانية الثورية راهنة على ارض الواقع بل لا بد ان تكون ايضا قد غدت راهنة في وعي الطبقة الثورية التي ادركت ان وسيلة انتصارها هي انتصارها ذاته : سلطتها المباشرة ، سوفياتاتها . وان تكون القوى الفعلية للطبقة العاملة وحلفائها قادرة على تحقيقها تحقيقا لا رجوع فيـــه .

الفرق النوعي بين مضمون الثورة البروليتاريةوذاتها التاريخية (الرئيسية) (البروليتاريا) عند ماركس ومضمون الثورة عند لينين «خطتان» ولينين ـ كرونشطاط وذاتها التاريخية الاساسية (الحزب) ، هو نفس الفارق النوعي الذي يفصل بين التصور الماركسياني للحزب والتصور اللينيني للحزب . وهكذا ف «الحزب الماركسي ـ اللينيني» أسطورة يجب ان تنتهي وتبقى حقيقة الحزب اللينيني ، بدون تغطية ماركس المستعارة ، عارية امام النقد الثوري الذي لا يخشى عواقبه ولا يخشى الاشتباك مع السلطات القائمة .

يجمع لينينيو فضلات الحقبة الستالينية على أنه بدون الحزب البلشفي ما كان للثورة الروسية ان ترى النور . لقد كانت الثورة في روسيا وعدا وبدونالحزب البلشفي كانت ستظل وعدا لا اكثر. وبما ان الحزب البلشفي كان «قابله الثورة» في روسيا ١٧ فان نسخا منه هي وحدها المؤهلة لتكون قابلة الثورة في كل زمان ومكان . وبذلك اختزلوا وصفة الثورة الى حزب بلشفي حديدي الانضباط يجلس في قمة هرم مراتبه زعيم مطاع ، نسخة اخرى، ان لم تكن من لينين ، الذي لم يكن له كفء احد ، فمن ستالين ، ماو ، خروشوف او تروتسكي على هوى اسعار القادة البلاشفة في بورصة الاعتبار المتقلبة . وويل لمن يجرأ على دحض هذا **الخطأ الشائع** ليقول بصوت عال ليس الحزب البلشفي هو الذي فجّر الثورة ولا هو الذي قادها الى «النصر» . بل ان الثورة انفجرت بفعل شروط تاريخية مستقلة عنارادة اكثر القادة البلاشفة ارادية، بل انها لم تكن حتى في حساب اكثر قادة البلاشفة المعية . ذلك يشبه الى حد ما بل الى حد بعيد وضع من يجرأ على القول ، امام مجموعة من الريفيين الاغبياء ، ان الشمس لا تشرق ولا تغرب ، بل ان الارض هي التي تشرق وتغرب !

هيهات ان يصدقه الريفيون وهيهات ان يصدقه اللينينيون

حتى ولو كان هذا القائل الجريء هو لينين نفسه الذي أكد مرارا: «بدون نشوب الحرب العالمية كانت الثورة الروسية ستتأخر ولا شك لعشرات السنين» . الحرب ، وليس الحزب ، ايها السادة هي التي كانت وراء نشوب الثورة الروسية . وعلى كل حال تعالوا نرى دور الحزب البلشفي في ثورتي ١٩٠٥ و١٩١٧ بعيدا عن اساطير الدعاة المغرضين .

تفوق الطبقة الثورية على الحزب

الادعاء بأن الحزب هو الذات الصانعة للثورة ، هو الاوعى من البروليتاريا الواعية لحظة انفجار الازمة العامة ، ادعاء كذبته شواهد تاريخ الثورات البروليتارية في القرنين التاسع عشر والعشرين . وقد كرسنا سلسلة كاملة : «ثورات البروليتاريا في القرن العشرين» لاثبات هذه الموضوعة (١) . وحسبنا هنا ، نقدم باقتضاب ضروري شواهد مادية تاريخية :

● ثورة ٢٥ فبراير ١٨٤٨ اطاحت البروليتاريا الباريسية بملكية يوليو واعلنت الجمهورية «الاجتماعية» . وفي ٢٢ يونيو انتفضت البروليتاريا الباريسية عفويا ضد تصفية البورجوازية للجمهورية الاجتماعية . ويشهد ماركس بان «العمال الذين كانوا دون قادة، دون خطة جماعية، دون اموال وجلهم كانوا عزلا من السلاح، قد هزموا طوال ٥ ايام ، بشجاعة وعبقرية لا مثيل لهما ، الجيش، الحرس المتنقل ، الحرس الوطني الباريسي والحرس الوطني الذي

---

١ – صدر منها الكراس الاول : **الثورة البروليتارية الالمانية ١٨–١٩١٩** – دار الطليعة ، (ايلول ١٩٧٣) .

كان يتدفق من الاقاليم» (صراع الطبقات في فرنسا) . ويشهد انجلز في مقدمة **الحرب الاهلية في فرنسا** بان السليقة الثورية عند عمال الكومونة تفوقت على وعي جميع قياداتهم وجميع الاحزاب .

الرد على هذه الاطروحة جاهز على جميع الشفاه : ذلك صحيح لان هذه الاحزاب لم تكن لينينية ـ في حقبتها ـ ولأن الحزب اللينيني ـ لا اي حزب آخر ـ هو وحده القادر على ادخال الوعي من الخارج وعلى هداية البروليتاريا في معمعان الثورة سواء السبيل . فلنرى اذن الدور الذي لعبه الحزب اللينيني بشهادة لينين نفسه في ثورتي ١٩٠٥ و١٩١٧ وعلى حياة لينين (١) الذي كان دائما ابعد نظرا من حزبه ، وأقدر على استشفاف الاحتمالات القادمة **والالتحاق** السريع براديكالية الجماهير البروليتارية غير الحزبية من كل حزبه ، حتى لا يكاد المتتبع لتاريخ الحزب البلشفي يستنتج ، ربما مع شيء من الجرأة ، بأنه في الامكان اختزال هذا الحزب الى زعيمه ، وبان هذا الحزب ، بدون لينين ، لم يكن الا تجمعا متخلفا عن حركة الجماهير ، معاديا لها وعاجزا عن اللحاق براديكاليتها .

لنشرع في قراءة شيء من تاريخ ثورتي ١٩٠٥ و١٩١٧ ودور

---

١ ـ ولن نشير الى تفوق البروليتاريا في جميع ثوراتها اللاحقة على احزابها اللينينية ، حيث لم **تصبح** هي نفسها بعد هدفا لانتفاضات البروليتاريا . فقد لعبت في كل ثورة عمالية (انظر : الانتفاضة المسلحة ـ دار الطليعة ١٩٧١) لا الدور المفترض ، دور «قابلة الثورة» بل دور الكابح لاندفاع البروليتاريا ، والقامع لراديكالية وعيها الخاص . وأفضل العناصر التي انجبتها هذه الاحزاب هي تلك التي كانت **تلتحق** بحركة البروليتاريا الثورية ، متعاطفة معها بدلا من الوقوف في وجهها لضبطها او قمعها .

الحزب اللينيني فيهما بعينين **صاحيتين** ومن خلال الوقائع التي سجلها البلاشفة القدامى انفسهم وخاصة لينين وتروتسكي .

لينين منظّر الحزب ـ حامل ـ الوعي ـ وصانع ـ الثورة يعترف هو نفسه بواقع ان ثورة ١٩٠٥ ، التي وقف منها في البداية هو وحزبه ذلك الموقف المعروف ، كانت من صنع البروليتاريا نفسها . وكذلك تشهد روزا لوكسمبور (فبراير ١٩٠٦) : «بأن الجماهير كانت كما يحدث ذلك كثيرا وغالبا ، في اللحظة الحاسمة من المعركة ، تدفع عفويا الزعماء امامها وتحثهم على تبني اهداف اكثر تقدما» . وفي اغسطس ١٩٠٦ اعترف لينين نفسه بهذه الحقيقة «المرة» : بأن البروليتاريا الروسية الأمية والمتأخرة كانت ، عندما ثارت ، أقدر من الحزب البلشفي ـ حامل ـ الوعي ـ اليها ، على وعي تغير شروط النضال وضرورة الانتقال من الاضراب الى الانتفاضة : «تغير الشروط الموضوعية للنضال الذي كان يفرض ضرورة الانتقال من الاضراب الى الانتفاضة **توقعتها** البروليتاريا قبل قادتها بوقت طويل» (١) . اي قبله هو نفسه بوقت طويل ! واكثر من ذلك ، فان لينين شاعر الوعي ـ المحمول ـ من الخارج (٢) يعترف بالعبقرية الجماعية التي لا

---

١ ـ «دروس انتفاضة موسكو ـ اغسطس ١٩٠٦» .

٢ ـ لا بد من التذكير بأن التهويل من دور الحزب والتهوين من دور الطبقة العاملة عند لينين «ما العمل» لم يصل قط ، على فظاظته ، الى مرحلة العبادة المرضية للحزب التي راجت وما تزال رائجة لدى الستالينيين في البلدان المتخلفة ، أولئك الذين جعلوا من الحزب ـ كمحاولة للتعويض عما يفتقدون ـ دماغا الكترونيا يحصي كل شيء ، حتى الحركة التاريخية الملأى بالمفاجآت ، عدّا. انهم ، الى كونهم يريدون بوعي ـ وهذا ما لم يعد اليوم بعد اكثر من نصف قرن سرا ـ قطف ثمار نضال الجماهير الكادحة لحسابهم الخاص ، وحرمان الجماهير

تارى لا عند العمال وحسب بل وعند الجماهير الشعبية التي تتندر بـ «غباوتها» البيروقراطية الصغيرة الستالينية عندنا : «اذكروا لي حقبة واحدة في تاريخ روسيا او في تاريخ العالم ، ودلوني فيها فقط على ٦ شهور او حتى على ٦ سنوات حيث تم انجاز ما يعادل هذا الذي انجزته المنظمات (السوفياتات) **العفوية والحرة** للجماهير الشعبية خلال هذه الاسابيع الستة من الاعصار الثوري الروسي» (مارس ١٩٠٦ ج١٠ ص ٢٦٥) . وقد اشاد مرارا خلال أحداث ١٩٠٥ بـ «النشاط التنظيمي للشعب وخاصة البروليتاريا» ، التي فاجأته بشكل ومضمون ثورتها وكل ثورة بروليتارية قادمة : المجالس .

عندما يكون الحزب قد نصب نفسه وصيا ابويا على البروليتاريا فمن الطبيعي ان يمارس عليها رقابة اب هرم لا يتشاءم من شيء كتشاءمه من نزوات ابنائه ومبادراتهم «الصبيانية» . وهذا ما رأيناه في موقف الحزب البلشفي من اول اعظم ثورة

الشعبية منها ، انما يعملون على نزع ثقة الطبقة العاملة الفتية بنفسها . وهو نفس الهدف الذي جاهد في سبيله جهادا دينيا جميع حملة اقلام وسيوف البورجوازية وجميع الطبقات السائدة في العالم القديم منذ القرن التاسع عشر حتى اليوم . وهذا بحد ذاته كاف لتصنيفهم دون حرج في عداد أعداء العمال . اما تركيزهم على الاهمية الحاسمة للتاكتيك الصحيح والخط السياسي الصحيح كترياق سحري لتثوير الجماهير الكادحة بمعزل عن متطلبات الشروط الفعلية نفسها ، فانما هو تصور بيروقراطي مستورد مباشرة من التقنوقراطية البورجوازية التي تختزل التاريخ وارادة ملايين الناس الفاعلة فيه الى مجرد حساب صائب او خاطىء لعالم او مجمع علمي او لدماغ الكتروني ، وليس **لجدل التاريخ الفعلي**، لمدى تجذر الشروط الفعلية ومدى تجذر وعي الجماهير الثورية والتأثر والتأثير المتبادلين بينهما .

عمالية في القرن العشرين ، ثورة ١٩٠٥ السوفياتية ، هذا الموقف الذي راوح بين التردد والعداء الصريح بما في ذلك موقف لينين نفسه . لكن لينين ما لبث ان شرع يتعلم منها . اما موقف الحزب البلشفي المتردد من الثورة فانه ظل تقريبا على حاله . بل ان لينين خاض ، دون كبير جدوى ، صراعا مريرا ضد الحزب اللينيني لاقناعه بأهمية ثورة ١٩٠٥ ، بضرورة الاشتراك فيها وبالموقف الصحيح منها . اذ ان كثيرا من قادة الحزب اللينيني الذين تشبعوا بالاديولوجيا الكاوتسكية ــ اللينينية : اديولوجيا التهويل من دور الحزب والتهوين من مبادرات الجماهير العمالية والشعبية ، لم يصدقوا ان السوفياتات كانت فعلا حدثا ثوريا . الم يتعلموا من الاديولوجيا الكاوتسكية ــ اللينينية ان الطبقة العاملة ، بدون وصاية الحزب ــ الاب ، لا يمكن ان تتخطى الوعي المطلبي ، الاصلاحي ، البورجوازي في النهاية ؟ لقد تغلغل فيهم مفهوم التنظيم المركزي ، المراتبي المنضبط انضباطا ثكنيا على انه التنظيم الصحيح الوحيد كما لقنتهم اياه اللينينية . وبات من الصعب عليهم ان يعترفوا بتنظيم السوفياتات ، **النقيض** المباشر لتنظيمهم ، بلا مركزية وبلا مراتبية والخالي من انضباط المصنع والثكنة .

تزعم بوجدانوف **Bogdanov** المسؤول عن المكتب الروسي للتنظيم الحملة المعادية لسوفياتات ١٩٠٥ زاعما ان «السوفياتات يمكن ان تصبح نواة حزب معاد للاشتراكية» مطالبا بارغام السوفياتات لا على تبني برنامج الحزب وحسب بل وبارغامها على الخضوع للجنة المركزية للحزب . وأعلن بأنه اذا عارضت السوفياتات قبول برنامج الحزب والامتثال لاوامر لجنتهالمركزية ــ فان على البلاشفة ان يتخلوا عنها ويشجبوها . كما طالب كراسين **Krassine** ممثل الحزب في سوفيات العاصمة من هذا السوفيات ان يأتمر بأوامر الهيئات الحزبية والا ... وفي ٥ نوفمبر نشرت جريدة الحزب البلشفينوفايا جيزين **Novaia Jizn**

مقالا يشكك بجدوى السوفياتات ، التي ستصبح فيما بعد اسما لا للجمهورية الروسية فقط بل ايضا لحقبة تاريخية كاملة ، طارحة على قواعد الحزب هذا الخيار : اما ان نكون مع السوفياتات واما ان نكون مع الحزب . كتب لينين ردا على هذا المقال : «من الخطأ طرح هذا السؤال : هل نحن مع سوفيات نواب العمال ام مع الحزب ؟ اعتقد ان طرح السؤال بهذا الشكل خاطىء . ان علينا ان نصل بحزم الى هذا الحل : نحن مع سوفيات نواب العمال ومع الحزب» . ويمضي لينين رادا على بوجدانوف والقادة البلاشفة الآخرين الذين طالبوا بارغام مجلس مندوبي العمال على تبني برنامج الحزب والخضوع له : «من العبث ان نطلب من مجلس مندوبي العمال تبني برنامج الاشتراكية الديموقراطية . يجب ان نعتبر مجلس العمال نواة حكومة ثورية موقتة» (ج١٠ ص ١١) لكن جريدة الحزب الرسمية رفضت نشر مقال لينين الذي اعتبرته دفاعا «في غير محله» عن مجلس العمال وعن ضرورة استقلاله عن الحزب !

«الاحد الاحمر» الذي انطلقت منه شرارة ثورة ١٩٠٥ لا فقط لم يشترك فيه الحزب البلشفي بل انه ـ ما عدا لينين ـ قابله بتحفظ وتهكم على طابع مظاهرته البدائي وشبه الديني . وموقف الحزب من «الانتفاضة المسلحة» لم يكن أقل سوءا من موقفه من السوفياتات ذاتها . ولينين نفسه يعترف ب «اننا استهنا بأهمية وحتمية الانتفاضة» (ج٨ ص ٣٧٢) . وتمنى على حزبه ان يناقش لا فقط مبدأ الانتفاضة بل ان يناقش ايضا الاعداد العملي للانتفاضة التي كان الحزب ـ هذا الحزب الذي بات لينينيا واستقل عن لينين ـ يشكك في جدوى الانتفاضة . وفي ٢٠ يونيو ١٩٠٥ ناشد لينين حزبه بحرارة : «لتتلاشى جميع الذبذبات والشكوك بأسرع ما يمكن . ليفهم الجميع وكل احد بأقصى السرعة **غباوة وبشاعة**

الرغبة في التملص الان من هذه المهمة ، مهمة الاستعداد بأقصى طاقتنا للانتفاضة المسلحة» . وحذر حزبه من الخطر المميت في اللحظات الحاسمة : «خطر المماطلة والتسويف» . **فهل تخلى** الحزب عن «المماطلة والتسويف» ؟ هل استمع الحزب اللينيني لنداءات لينين ومناشداته ؟ كلا ! ففي ١٦ اكتوبر ـ وبعد ٤ شهور من نداء يوليو ـ كتب لينين الى لجنة المعركة البلشفية في بطرسبرج : «انني أشاهد برعب ، حقا برعب ، بأنكم تتحدثون عن القنابل منذ اكثر من **ستة شهور** دون ان تصنعوا قنبلة **واحدة** . والذين يتحدثون هم الناس الاكثر علما ... اذهبوا الى الشباب ايها السادة ... هذا هو ترياقكم الوحيد . اذهبوا الى الشباب . شكلوا فوريا وفي كل مكان مجموعات مقاتلة . لتتشكل فورا فصائل من ٣ ، ١٠ ، ٣٠ شخصا واكثر ، لتسلح هذه الفرقة نفسها فورا بقدر ما تستطيع ، هذا بمسدس وذاك بسكين وآخر بخرقة مضمخة بالبترول يتخذ منها جذوة ... ان **الخوف الشيخوخي من المبادرة** ذلك هو داؤنا اليوم» (ج٩ ص ٣٥٦) .

جاءت ثورة ١٩١٧ ـ بعد ١٢ عاما ـ لتجد ان الخوف الشيخوخي من المبادرة العمالية والشعبية قد ظل الداء العضال الذي لم يشف منه الحزب البلشفي قط !

عندما اندلعت الحرب العالمية الاولى في ١٩١٤ ـ التي كانت القابلة الحقيقية للثورة الروسية ـ اتخذت منها الاشتراكية الديموقراطية الالمانية بزعامة كارل كاوتسكي وبالتالي الاممية الثانية موقف «الدفاع عن الوطن» بدلا من الموقف الانهزامي الثوري الصحيح الوحيد : تحريض العمال المجندين بتحويل الحرب من حرب قومية الى حرب اهلية . وفعلا فقد اتخذ لينين هذا الموقف في روسيا بينما اتخذ بليخانوف موقف «الدفاع عن الوطن» الروسي . لكن الحزب اللينيني رفض في شبه اجماع موقف لينين الانهزامي الثوري . ووقف عمليا في صف كاوتسكي وبليخانوف

والاممية الصفراء كما سنرى بعد قليل .

تقرر مصير ثورة فبراير بما يمكن ان يسمى ب «الخمسة المجيدة» ، (من ٢٣ الى ٢٧ فبراير ١٩١٧) .

كان يوم ٢٣ فبراير هو «عيد المرأة العالمي» وهكذا كانت جميع الاحزاب وعلى رأسها الحزب البلشفي تريد ان تجعل من هذا اليوم مجرد ذكرى ل «عيد» المرأة . ولم يخطر على خاطر حزب واحد ان العاملات والعمال اللاحزبيين والاوعى من جميع الاحزاب سيجعلونه لا يوم ذكرى «عيد» المرأة بل يوم بداية عيد الثورة التي ستهز روسيا والعالم لعدة شهور . واكثر من ذلك فان الاحزاب القائمة جميعها وعلى رأسها الحزب البلشفي كانت تحذر من الاضراب الذي كان يمكن في اجواء التوتر السائدة ان يتحول الى صدام مفتوح مع السلطات القائمة . وكان الحزب البلشفي يرى ان لحظة الصدام «لم تحن بعد» . لكن عكسا لنصائح لجنة العمال البلشفية في دائرة فيوربورج ـ وهي ، بشهادة تروتسكي من اكثر منظمات الحزب البلشفي كفاحية ـ التي دعت الى مقاطعة الاضراب ، وهو قرار تبنته جميع الاحزاب القائمة دون استثناء، أضرب صباح ٢٤ فبراير عاملات النسيج وأرسلوا (١) مندوبات عنهم الى عمال المعادن لكي يساندوا اضراب عاملات النسيج ، لكي يجعلوا من ٢٣ فبراير بداية الهجوم الحاسم على الحكم المطلق .

كتب تروتسكي في **تاريخ الثورة الروسية** : «من الثابت ان عناصر القاعدة التي تغلبت على معارضة تنظيماتها الثورية الخاصة هي التي فجرت ثورة فبراير وانتقلت المبادرة عفويا الى شريحة من البروليتاريا المستغلة المسحوقة اكثر من غيرها ـ عاملات النسيج

---

١ ـ نون النسوة لم تعد مستعملة في لغة الحياة اليومية العربية ولهذا صرفنا عنها النظر .

اللواتي كان بينهم عدد لا بأس به من نساء الجنود . وقد جاء الدفع الاخير من صفوف الانتظار التي لا نهاية لها امام ابواب المخابز . وقد بلغ عدد المضربين في ذلك اليوم نساء ورجالا ٩٠ الفا» (١) .

اذا كان الحزب لا فقط لم يبادر الى التحريض بالاضراب بل حرض ضده . فكيف تصرف بعد اندلاع الثورة **عفويا** ؟ هل كان طليعتها الاكثر وعيا والاشد مراسا في قيادة الصراع الطبقي كما ظل يقول عن نفسه طوال اكثر من ١٥ عاما ، ام انه بالعكس كان مؤخرتها الاقل وعيا براهنية الثورة التي وعتها عاملات النسيج قبل ان يعيها الحزب البلشفي بوقت طويل ؟ لنطلب شهادة الوقائع : «ماطلت القيادة العليا للحزب مماطلة موئسة . قرر مكتب اللجنة المركزية للحزب البلشفي في صباح ٢٥ فقط اصدار منشور يدعو

---

١ - انظر ص ١٤٨ من ج١ من تاريخ الثورة الروسية . (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) ترجمة الهيثم الايوبي وأكرم ديري (المقطع من ترجمتي) وهو كتاب بالغ الاهمية وجدير بكل ثوري ان يقرأه بعينين صاحيتين ووعي يقظ ونقدي. ومن المؤسف ان الهيثم الايوبي ، وهو مترجم غزير الانتاج وغالبا ما يحسن اختيار الكتاب المطلوب للترجمة في الوقت المناسب ، قد حذف فصولا من هذا الكتاب لا غنى عنها للقارىء العربي الذي يجهل كل شيء تقريبا عن التاريخ الحقيقي للثورة الروسية ، لان ارشيف هذه الثورة حتى اليوم لم ينشر بعد . ومن المعروف ان ستالين ضرب صفحا عن نشر محاضر جلسات الحزب البلشفي نفسه خلال الثورة . وما أحوج القارىء العربي الثوري ان يعرف جميع الحقائق المجهولة او المطموسة عن تاريخ الثورة الروسية وجميع الثورات البروليتارية في القرن العشرين . ولعل المترجم يتدارك هذا الخطأ ويترجم الفصول المحذوفة لتضاف للطبعة الثانية او تصدر جزءا ثالثا . كما ان المترجم بخصوص المصطلحات الماركسية اعتمد على «المنهل» وهو في هذا الباب لا يجوز الاعتماد عليه ، لان الوعي الثوري ليس الضمير الثوري !

الى الاضراب العام في روسيا كلها . وفي اللحظة التي خرج فيها هذا المنشور الى النور ـ **هذا اذا كان قد خرج فعلا** ـ كان الاضراب العام في بتروجراد قد تحول الى انتفاضة مسلحة كاملة . امـا قيادة الحزب فقد كانت تراقب الانتفاضة من عليائها وكانت تتردد وتماطل اي انها لم تكن تقود . لقد كانت في مؤخرة الحركة»(١) . سنرى من خلال بعض الوقائع القادمة ان أقل مواقف الحـزب البلشفي شرا كانت وقوفه في مؤخرة الحركة العمالية الثورية لا وقوفه في وجهها !

غاب الحزب البلشفي عن قيادة حركة الطبقة العاملة والجماهير الثورية فيثورة فبراير لكن الارض مع ذلك لم تتوقف عن الدوران. فرغم ان «الجماهير كانت دون قيادة عليا ، والصحف كانت تلوذ بالصمت ، فان الاضراب كان جبارا والجماهير كانت تصنع تاريخها الخاص بنفسها دون ان تتلفت وراءها» (٢) للقادة البلاشفة الذين اقبل بعضهم على بعض يتلاومون : «ستقضي الحكومة علـى الانتفاضة» ! والادهى من ذلك وأمر ان الحكومة القيصرية ، التي لم تقرأ بالطبع البيان الشيوعي ، كانت ابعد نظرا وأقدر على رؤية النتائج العامة للصراع الثوري الناشب من مجموع احزاب اليسار في روسيا ١٧ : «كانت الحكومة التي لم تتخل بعد عن جهـاز السلطة ، تنظر الى مجمل الاحداث نظرة اكثر تشاؤما حتى مـن احزاب اليسار التي لم تكن ، كما هو معروف ، بمستـوى الاحداث» (٣) كانت خائفة ومنهارة العزائم «اما الجماهير فلا اطلاق النار ولا نكسات الامس ثبطت عزائمها (...) . بعد ان انتشرت

---

١ ـ نفس المصدر ، ص ١٥٨ (ترجمتي) .

٢ ـ نفس المصدر ، ص ١٦٥ .

٣ ـ نفس المرجع ، ص ١٦٥ .

الجماهير المنتفضة في الشوارع ، واشتبكت مع العدو ، وهزت اكتاف الجنود ، وتسللت بين لبان الخيل ، وكرت وفرت ، تاركة جثث قتلاها على مفارق الطرق ، مستولية احيانا على بعض الاسلحة ، متناقلة الاخبار ملتقطة الشائعات ، غدت (الجماهير المنتفضة) انسانا جماعيا له عيون وآذان ولوامس لا تحصى ولا تعد (١) » ولم تترك الجماهير المعركة الا ليلا لكي تعود الى أحيائها العمالية لتحاسب نفسها وتقيِّم حصيلة يومها الثقيل . و«منذ الصباح تدفق العمال على المصانع ، وقرروا في جمعياتهم العامة مواصلة النضال . وكان عمال حي فيوبورج هم اكثر العمال تصميما كما كانوا دائما . وكانت الاجتماعات التي انعقدت في هذا اليوم بالاحياء الاخرى ملأى نشاطا . وكان القرار العام هو مواصلة المعركة ! فماذا كان يعني ذلك في هذا اليوم بالذات ؟ (...) ان قرار مواصلة المعركة يعني في ذلك اليوم الدعوة الى الانتفاضة المسلحة . بيد ان احدا لم يدع الى ذلك . لقد كانت الاحداث تفرض الانتفاضة المسلحة ، لكنها مع ذلك لم تكن مسجلة اطلاقا على جدول اعمال الحزب الثوري (٢) » ، «وكانت قيادات الاركان «الاشتراكية» الشرعية ونصف الشرعية (...) تكرر الانذارات وتعاكس الحركة . بل حتى قيادة أركان البلاشفة المركزية اظهرت عجزا وافتقارا الى المبادرة مذهلين ★ . في الواقع كانت أحياء

---

١ ـ نفس المصدر ، ص ١٦٥ .

٢ ـ نفس المصدر ، ص ١٦٦ .

★ ـ ظاهرة خوف الاحزاب من خوض الثورة مع الجماهير التيدفعت وحدها ومن تلقاء نفسها بالصراع الطبقي الى اقصى نتائجه : الحرب الاهلية ، عمت جميع الاحزاب المتبقرطة سواء منها احزاب الامية الثانية او الثالثة . وقد تجلت بسطوعفي موقف بيروقراطيةالحزب البلشفيمن ثورة١٩٠٥ وثورتي ١٩١٧ خاصة=

المدينة والثكنات تناضل وحيدة . ولم يوجه أول منشور موجه

= الاولى. والسبب الاساسي عائد الى ان البيروقراطيين الحزبيين خاصة بيروقراطي الصف الثاني يعون بان احتمال هزيمة الثورة (وفي كل ثورة يكون احتمال الهزيمة واردا) يعني هزيمة مؤكدة لحزبهم ولهم . ولهذا تراهم ، بدلا من خوض تجربة ثورية قد يتركون فيها جلودهم ، يفضلون دعوة الجماهير العفوية ، التي لـــم يروضوا بعد جموحها ، الى الاعتدال ، وقراءة حساب لعلاقات القوى كما يرونها هم ، وانتظار نضج جميع الشروط وايام افضل الخ الاسطوانة المعروفة . لان الحزب لم يعد ، في نظرهم ، مجرد اداة من ادوات الصراع الطبقي ، بيد الطبقة العاملة ، ولا وسيلة من وسائلها للتحريض بالثورة . بل تحول الى غاية في حد ذاته . يخشى البيروقراطيون ان يخسروا بالثورة حزبهم الذي هو مصـــــدر امتيازاتهم المادية والمعنوية . اما الجماهير البروليتارية التي ليس لها ما تخسره بالثورة الا اغلالها فانها تتقدم الى حلبة الصراع غير هيابة . هذه الظاهرة هي ظاهرة تاريخية ما زالت تتكرر . وظاهرة موضوعية اي مستقلة عن ارادة هـــذا البيروقراطي او ذاك . لانها ظاهرة ملازمة للمنطق الداخلي لوجود الجهاز نفسه ، لوجود المؤســـسة الدائمة . فما أن يتحول التنظيم الثوري من اداة نضال موقتة الى مؤسسة دائمة حتى يتبقرط ، ويتحول الى مؤسسة اصلاحية ، مساومة ، مفاوضة واقعية ومعادية للثورة التي تهدد بنسف الوضع الراهن ، هذا الوضع العزيز على قلوب جميع البيروقراطيين . ولهذا فان اللينينيين «الجـــدد» ، الداعين لتكوين نقابات ثورية جديدة للقيام بمهمة مزدوجة : النضال ضد النقابات الاصلاحية القديمة وقيادة الصراع الطبقي في اماكن العمل ، لم يدركوا بعد هذه الظاهرة ادراكا تاريخيا جدليا . لم يدركوا ان الداء ليس ملازما للنقابيين كأفراد بل للنقابة كجهاز دائم له مصالح دائمة منفصلة بالضرورة عن مصالح جماهـــير العمال . ومن هنا فان الحل ، برأينا ، هو في تشكيل العمال بانفسهم للجان عمالية ثورية موقتة منتخبة مباشرة من جميع عمال مكان او اماكن العمـــل ، لتنسيق نشاطهم خلال الاضراب . وما ان ينتهي النشاط الجماهيري الثوري حتى=

الى القطاعات العسكرية وضعته منظمة الاشتراكيين الديموقراطيين القريبة من البلاشفة الا في يوم ٢٦ . وفي صباح ٢٧ وزع هذا المنشور الذي كتب بعبارات غاية في التردد حتى انه لا يحرض الجيش بالانحياز الى الشعب . وقد صرح احد زعماء التنظيم قائلا: «ورغم ذلك فقد كانت مسيرة الاحداث الثورية سريعة بحيث ان شعاراتنا كانت دائما متأخرة عنها . وعندما انتشرت منشوراتنا بين جماهير الجنود كانت هذه الجماهير قد تحركت قبل ذلك (١) » وعلينا ان نقبل مبدئيا بان القادة في تلك الايام كانوا متخلفين عن الجماهير بقدر ما كانوا من عليائهم يسيطرون عليها (١) » . «ويذكر شليابنكوف في مذكراته ، وهو الذي كان آنذاك عضوا رئيسيا في قيادة بلاشفة بتروجراد المركزية ، انه لما طلب العمال منه السلاح، على الاقل بعض المسدسات ، أجابهم بالرفض ، وأحالهم على الثكنات لمطالبة الجنود بالسلاح . وكان يرمي من رفضه اعطاء السلاح الى العمال تجنب الصدامات الدموية بين العمال والجنود معتمدا فقط على كسب هؤلاء بالتحريض اي بالكلمة الطيبة والمثل الحسن » (٢) .

من الذي قاد ثورة فبراير ١٧ التي بدونها ما كانت ثورة اكتوبر لتكون ظافرة ، على حد قول لينين ؟ جميع الوقائع

= تنتهيمعه اداة تنسيقه، لتعود للظهور مع عودته. وهكذا دواليك الى المناسبة التي يصبح فيها النشاط الثوري الجماهيري راديكاليا ومعمما ، عندئذ تتحول اللجان الموقتة الى مجالس عمالية وشعبية تكون ، في وقت واحد ، اداة قيادة الثورة وأداة تسيير مجتمعها الثوري .

١ ـ نفس المصدر .

٢ ـ نفس المصدر ، ص ١٦٧ .

التاريخية تشهد ، معززة بشهادة جميع المؤرخين المحايدين والبلاشفة على السواء ، بان الطبقة العاملة هي وحدها التي خاضتها وقادتها بنفسها دون مساعدة الحزب البلشفي ولا اي حزب كان . العمال هم وحدهم الذين كنسوا الاستبداد القيصري بمكنستهم العملاقة :

«كانت الثورة التركية انتفاضة الجيش الظافرة ، انتفاضة أعدها وحققها قادة الجيش. ولم يكن الجنود سوى منفذين طيعيين لمخططات ضباطهم . اما في الثورة الروسية فان الامر كان بالعكس، اذ ان أفواج الحرس ، التي اطاحت في ٢٧ فبراير بعرش روسيا ، قامت بذلك بدون ضباطها ... لم يكن الجيش هو الذي فجّر الانتفاضة ، بل العمال هم الذين فجروها . ولم يتقدم الى روما الامبراطورية جنرالات بل جنود . ودعم الجنود العمال لا امتثالا ذليلا لاوامر ضباطهم ، بل لانهم كانوا يحسون بدم العمال يجري في عروقهم ، لانهم ينتمون مثلهم تماما للطبقة العاملة . ويشكل العمال والفلاحون الطبقتين الاجتماعيتين اللتين صنعتا الثورة الروسية» (١) . و«ليس من المبالغة في شيء القول بان بتروجراد حققت ثورة فبراير وحدها (٢) » و«بدون مساعدة اي حزب كان».

فهل سيتعلم الحزب البلشفي من ممارسة البروليتاريا الثورية؟ هل ستدفعه هذه الاحداث التاريخية لكي **يعي** اخيرا ان عليه ان يغير شعاراته البالية التي حيا بها وعاش عليها ١٢ عاما كاملة من نوع : «دفع روسيا الهمجية الى اللحاق بالرأسمالية الامريكية» (لينين) و«اقامة جمهورية ديموقراطية فقط» (ستالين) ؟ وان عليه خاصة ان يدعم حتى **النهاية** العمال الذين صنعوا الثورةوأطاحوا بالقيصرية

---

١ ــ صحيفة بيرجيفيه ... عن نفس المصدر ص ١٨٥ .

٢ ــ نفس المصدر ، ص ١٨٨ .

ويحرضهم بضرورة تحقيق تحررهم الذاتي الكامل بأنفسهم ؟ كلا ، فقد كتبت البرافدا في عددها الاول : «المهمة الجوهرية هي اقامة نظام جمهوري ديموقراطي» ! وكتب القائد البلشفي شليابنكوف: «لقد كنا (البلاشفة) متفقين مع المناشفة على القول بأننا كنا نمر بمرحلة تدمير ثوري لعلاقات الاقطاع والقنانة لتحل محلها جميع انواع «الحريات» التي تميز الانظمة البورجوازية» (١) . هذا رأي قيادة الحزب البلشفي وصحيفته . اما العمال ، ، حتى داخل الحزب البلشفي نفسه ، فقد كان لهم راي آخر قمعته القيادةطبعا:

«اصطدم العمال البلاشفة منذ اللحظات الاولى بالحكومة الموقتة اصطدامهم بحصن معادٍ قطع عليهم طريقهم فجأة . وعقدت لجنة فيبورج اجتماعا ضم آلاف العمال والجنود الذين اتخذوا ، فيما يشبه الاجماع ، قرارا بضرورة استيلاء مجلس العمال على السلطة (...) وبلغ من نجاح هذا القرار ان الجماهير طبعته على ملصقات وعلقته على الجدران . لكن لجنة بتروجراد (البلشفية) رفضت هذا القرار بمنتهى الحزم واضطرت لجنة فيبورخ الى الخضوع (٢) » عملا بالمركزية الديموقراطية : خضوع المراتب الدنيا للمراتب العليا وخضوع قواعد الحزب لقيادته حتى عندما يكون موضوع الرهان مصير الثورة نفسها !

«بذل البلاشفة اليساريون وخاصة العمال كل جهودهم لتحطيم الحجر المفروض عليهم . لكنهم هم ايضا كانوا عاجزين عن مجابهة حجج (القيادة البلشفية) الخاصة بالطبيعة البورجوازية للثورة وبأخطار عزلة البروليتاريا » (٣) .

---

١ ــ نفس المصدر ، ص ٣٣٤ .

٢ ــ نفس المصدر ، ص ٣٣٤ .

٣ ــ نفس المصدر ، ص ٣٣٥ .

في ٢ مارس صوّت سوفيات بتروجراد على مشروع نقل السلطة من مجلس العمال الى حكومة كيرنسكي . ويقول شليابنيكوف : لم يصوت ضد هذا القرار الا ١٩ صوتا بينما كان مندوبو البلاشفة في المجلس ٤٠ عضوا . اي ان اكثر من نصف البلاشفة على الاقل صوّت بالموافقة على ضرورة انتقال السلطة من مجلس العمال الى الحكومة البورجوازية برئاسة كيرنسكي ! «ومر هذا الانتخاب دون ان يلحظه احد ، وبطريقة برلمانية صرفة ، ودون ان يطرح البلاشفة اقتراحاتهم المضادة والواضحة ، ودون صراع ودون ان يظهر في الصحافة البلشفية أدنى تحريض» (١) .

وفي ١٥ مارس ١٧ اعلنت افتتاحية البرافدا التي كان يراس تحريرها ستالين : «ان البلاشفة سيدعمون بكل حزم الحكومة الموقتة ما ناضلت هي ضد الرجعية والثورة المضادة» . أما بخصوص الحرب الامبريالية فان موقف البرافدا لم يكن الموقف الانهزامي الثوري الذي رفعه لينين منذ ١٩١٤ في وجه المرتد كاوتسكي : «تسقط الحرب !» ورفضه الحزب في حينه بل كان: «ما دام الجيش الالماني مطيعا لامبراطوره ، فان على الجندي الروسي ان يظل صامدا في موقعه ليرد على كل رصاصة بمثلها وعلى كل قذيفة بمثلها» «ولن نرفع الشعار المائع : «لتسقط الحرب !» وشعارنا هو الضغط على الحكومة الموقتة لاجبارها على القيام بمحاولة تهدف الى جعل جميع البلدان المتحاربة تفتح المفاوضات فورا وحتى ذلك الحين فعلى كل طرف ان يظل في موقعه القتالي» ! هذه الافكار ، بل حتى الصيغ نفسها تتفق كليا نصا وروحا مع شعارات كاوتسكي عن **الدفاع الوطني** . ان برنامج

---

١ ـ نفس المصدر ، ص ٣٣٤ .

الضغط على الحكومة الامبريالية بهدف «دفعهـــا» الى استخدام اساليب عمل سلمية ، هو برنامج قديم طرحه كاوتسكي في المانيا، وجان لونجه في فرنسا وماكدونالد في انجلترا ولكنه لم يكن ابدا برنامج لينين الذي كان ينادي بقلب سلطة الامبريالية . (...) لقد كتبت البرافدا : «لقد ماتت كل **انهزامية** ... منذ ان ظهر اول فوج ثوري في شوارع بتروجراد » ان هذا القول انفصال واضح عن لينين . اذ لم تكن الانهزامية بدعة اختلقتها الصحافة الخاضعة للرقابة القيصرية . كلا ، ان لينين هو اول من صاغها عندما قال: «هزيمة روسيا هي أخف الضررين»(١). ولم تأبهالبرافدا للمعارضة التي أثارتها هذه الافتتاحية ــ البرنامجية لدى العمال وقواعـــد الحزب البلشفي العمالية نفسها ! ويقول احد القادة البلاشفـــة واصفا حقيقة الوضع يومئذ : انفصال القيادة البلشفية عن العمال وتخلفها عنهم : «كان علينا في تحريضنا ان نعتمد على مبـــدأ ازدواجية السلطة ... وان نبرهن على **حتمية** هذا الطريق الملتوي لجماهير العمال والجنود ، التي استطاعت ، خلال هذه الخمسة عشر يوما من الحياة السياسية المكثفة ، ان تعي حقيقة مهامها اي عكسا لما كنا نحرضها به» (٢) .

وفي ١٥ مارس لم يصوت الحزب البلشفي في بتروجراد الا بصوت واحد وحيد على قرار يقضي بتشكيل حكومة سوفياتية ثوريـــة !

ما ان عاد لينين من أوربا حتى شرع يقوّم اعوجاج حزبه ويتعلم،

---

١ ــ نفس المصدر ، ص ٣٣٨ .

٢ ــ ١٥ يوما فقط من الحياة السياسية المكثفة مكنت الجماهير من وعـي مهماتها الحقيقية التي لم يدركها الحزب البلشفي الذي ظل يحمل اليها «الوعي» من خارجها طوال ١٥ عاما على الاقل بشهادة شاهد من **اهلها** !

كما في ١٩٠٥ ، من ثورة ١٩١٧ الدروس التي سينساها بسرعة فيما بعد خاصة في كرونشطاط ١٩٢١ كما نسي في الماضي جميع الدروس ألتي تعلمها في مدرسة ثورة ١٩٠٥ !

قدم لينين موضوعات ابريل (٤ ابريل) : ليست الحرب القائمة حربنا ، علينا ان نحارب أنصار «الدفاع الوطني» ، يجب النضال في سبيل ديكتاتورية البروليتاريا ، تحريض البروليتاريا الاممية على الثورة ، لقد بدأت الثورة الاممية في روسيا ، نجاح الثورة الاممية هو ضمانة انتصارنا الوحيدة : ضمانة انتقال روسيا الى الاشتراكية .

«نشرت البرافدا **موضوعات ابريل** باسمه الشخصي ، وباسمه الشخصي فقط . واستقبلتها مؤسسات الحزب المركزية بالعداء الذي لم يكن يخفف منه الا الذهول . ولم يضع اي تنظيم ، او اية مجموعة ، او اي مناضل بلشفي توقيعه على هذه الوثيقة الى جانب توقيع لينين . حتى زينوفييف الذي جاء مع لينين من الخارج حيث تكوّن تفكيره خلال ١٠ سنوات تحت تأثير لينين المباشر واليومي عليه ، تخلى عنه بصمت (١) ، و«تثير قراءة محاضر ندوة (كنفرانس) ممثلي ٨٤ مجلس عمال وجنود عموم روسيا التي انعقدت في مارس ١٩١٧) ، هذه المحاضر التي لم تنشر حتى الان والتي تثير قراءتها دهشة بالغة وتدفع للتساؤل : هل ان الحزب الذي مثله هؤلاء المندوبون ، هو الحزب الذي سيستولي ، بعد ٧ شهور فقط ، على السلطة بيد من حديد ؟» (٢) . فقد صوّت المندوبون والقادة البلاشفة في هذه الندوة على قرار حول السلطة قدمه المناشفة والاشتراكيون الثوريون : انتقال السلطة من مجلس

---

١ ــ نفس المصدر ص ٣٤٨ .

٢ ــ نفس المصدر ص ٣٤٨ .

العمال الى الحكومة البورجوازية التي كانت على حد قول التقرير الذي قدمه ستالين «توطد دعائم مكاسب الشعب الثورية» ! اما ديكتاتورية البروليتاريا التي كانت مطروحة على ارض الواقع فلم تكن مطروحة على جدول اعمال الحزب البلشفي . وعندما حاول لينين ان يطرحها على حزبه كمهمة راهنة قوبل بالاستياء والذهول وكان ، كما كان في ١٩٠٥ ، معزولا في حزبه نفسه . ولعل التقييم الساخر الذي قيم به جولدنبرج ، احد اعضاء اللجنة المركزية البلشفية السابقين ، «موضوعات نيسان» ، التي سجل بها لينين قطعيته مع اللينينية ، كان تلخيصا وفيا لموقف غالبية البلاشفة منها ومن لينين : «لقد ظل مكان **باكونين** في الثورة الروسية شاغرا خلال سنوات طويلة وها ان لينين قد شغله الان » (١) .

لقد بدا لينين ، بخطته الجديدة ، المضادة لـ «خطتان» ، للجميع ، لغالبية البلاشفة والمناشفة وحتى لسعادة السفير الانجليزي **فوضويا** ، سخيفا وخياليا : «يوجد بين **الفوضويين** القادمين حديثا ـ كما لاحظ السفير الانجليزي في تقريره لحكومته ـ شخص يدعى لينين ، حضر من المانيا بعربة قطار مقفلة. وقد ظهر في مكان عام لاول مرة في اجتماع الحزب الاشتراكي الديموقراطي حيث استقبل استقبالا سيئا» (٢) . ويبدو ان تقييم السفير الانجليزي لسوء استقبال الحزب اللينيني لينين وموضوعاته الجديدة كان دقيقا . فقد كتب سوخانوف : «وكان انعزاله (لينين) الكامل وسط كافة رفاق الحزب الواعين واضحا ولا شك فيه ، خلال الايام الاولى التي تلت قدومه» . وتكاد شهادات البلاشفة

---

١ ـ نفس المصدر ص ٣٥٨ .

٢ ـ نفس المصدر .

انفسهم تجمع على ان الحزب البلشفي وخاصة قيادته وصمت شعارات لينين الجديدةحول راهنية الثورة الاشتراكيةوديكتاتورية البروليتاريا بأنها كانت «انحرافا نقابيا» لان «بعده عن روسيا أبعده ايضا عن الواقعية وجعل تحريضه طوباويا» ! وليس ابلغ في التدليل على مدى تخلف الحزب اللينيني عن البروليتاريا الواعية، عن الواقع الروسي المثوّر وعن زعيمه نفسه مما كتبته البرافدا في ٨ ابريل ١٩١٧ : «فيما يتعلق بالمخطط العام للرفيق لينين ، فهو يبدو لنا غير مقبول لكونه يعتبر الثورة الديموقراطية البورجوازية منتهية ويطالب بتحويل هذه الثورة الى ثورة اشتراكية» . ويعترف اولمنسكي، احد البلاشفة «اليساريين» وعضو هيئةتحرير البرافدا في مارس ١٩١٧ : «الثورة القائمة لا يمكن ان تكون الا ثورة بورجوازية ... لقد كان هذا الحكم **اجباريا** لكل اعضاء الحزب ، وكان يمثل الراي الرسمي للحزب ، وشعاره الدائم الذي لا يتبدل حتى ثورة فبراير ١٩١٧ ، بل وبعد اندلاعها بفترة ايضا» . ويضيف «بالتأكيد اننا لم نطرح مسألة سقوط رأس المال وكان الامر يدور حول سقوط الحكم الفردي والاقطاع» . ويضيف : «لقد توجهنا جميعا (أو عدد كبير منا على الاقل) نحو الثورة البروليتارية من **دون وعي** ، وكنا نعتقد آنذاك اننا كنا نسير نحو الثورة الديموقراطية البورجوازية . اي اننا كنا نعد ثورة اكتوبر وكلنا اعتقاد بأننا نعد ثورة فبراير» .

بينما كان الحزب البلشفي ، المتخلف ، ممارسة ووعيا عن البروليتاريا الثورية التي فجرت ، خاضت **وقادت ثورة فبراير ١٩١٧** في غيبة الحزب بشهادة الوقائع العنيدة واعتراف قادته انفسهم ، كان ما زال يعتقد ان الثورة القائمة منذ شهرين «لا يمكن ان تكون الا ثورة بورجوازية» و«كان هذا حكما اجباريا لكل الاعضاء» ، كانت الطبقة العاملة الواعية تسير بوعي نحو السلطة الاشتراكية: سلطةالمجالسالتيعثرتعليها اخيرا في١٩٠٥(وتذكرتها

في١٧) لتحقيق تحررها الشامل من رأس المال ومؤسسات صيانته، هذه المجالس التي كانت منذ ظهورها المكتمل في ١٩٠٥ مطروحة على جدول اعمال التاريخ الثوري ولكنها ، كما يعترف تروتسكي في **تاريخ الثورة الروسية** ، لم تكن مطروحة على جدول اعمال او في برنامج اي من جناحي الاشتراكية الديموقراطية الروسية المنشفي والبلشفي. فأي تكذيب لاسطورة الحزب ـ الذي ـ يحمل ـ الوعي الاشتراكي و ـ العلمي ايضا ـ للبروليتاريا من خارجها ابلغ افحاما من وقائع ثورتي ١٩٠٥ و١٩١٧ !

في احدى لحظات صفوه النادرة اعترف لينين علنا بهذه الحقيقة المرة عندما رد على احد الليبراليين ، الذي اكد في أوائل مايو ١٩١٧ بانه كلما اتجهت الحكومة الى اليسار اتجهت البلاد الى اليمين ، بقوله : «أؤكد لك ايها المواطن ان «بلد» العمال والفلاحين الفقراء هو الف مرة اكثر توجها الى اليسار من أمثال تشيرنوف وتسيرتلي ، ومئة مرة اكثر توجها الى اليسار **منا** . ومن يعش يرى » (١) . «وكان لينين يقدر ان العمال والفلاحين كانوا اكثر تطرفا الى اليسار من البلاشفة بـ «مائة مرة» (...) وكان لينين على حق ايضا عندما قال ان الجماهير كانت اكثر تطرفا الى اليسار من البلاشفة ، لان الحزب باكثريته الساحقة ، لم يكن قد وعى بعد قوة المشاعر الثورية التي كانت تغلي غليانا في أحشاء الشعب الذي هب من رقاده » (٢) .

لينين لم يكن الوحيد بين البلاشفة الذي اعترف بواقع تخلف الحزب اللينيني عن راديكالية الجماهير في ثورة ١٩٠٥ وثورتي فبراير وأكتوبر ١٩١٧ ، وليس من همنا هنا أن نحصي هذه

---

١ ـ نفس المصدر ص ٤٦٣ .

٢ ـ نفس المصدر ص ٤٦٤ .

الاعترافات عدا ... فهذه مثلا البلشفية القديمة لودميلا ستال تعترف ببساطة : «كان جميع الرفاق قبـــل قدوم لينين **تائهين** وسط الظلمات . ولم يكن امامهم سوى صيغ ١٩٠٥ . وعجزنا عن اعطاء الدروس للشعب الذي كان يبدع الثورة **بعفويتـــه**» (١) . وتمضي قائلة : بأن الحزب اكتفى بالاعداد للمجلس التأسيسي وفق الاسلوب البرلماني ، ولم يفكر لحظة واحدة بالاندفاع الى الامام . لقد كان يخشى الثورة !

معظم البلاشفة متفقون على ان لينين هو الذي دفع الحزب الذي كان «يخشى الكومونة» الى اللحاق براديكالية الجماهير . كتب تروتسكي «يمكننا الاتفاق مع سوخانوف على ان اعادة تسليح الحزب : «كانت اكبر وأهم انتصار حققه لينين في اول ايام مايو»» . والحقيقة ان سوخانوف كان يعتبر ان لينين خلال هذه العملية استبدل سلاح الماركسية بسلاح الفوضوية» (٢) . وهو تقديـــر صحيح تماما اذا ادركنا ان السلاح المفلول الذي وقع استبداله هو سلاح «الماركسية» الروسية التي لم يكن مضمون ثورتها ، حتـــى ابريل ١٩١٧ ، يتخطى مضمون الثورة البورجوازية : اللحـــاق بالرأسمالية الامريكية . ويرى تروتسكي ان عودة لينين «المفاجئة» الى روسيا بعد طول غياب وصراعه المرير مع جميع قادة حزبـــه وانتصاره السريع عليهم «عجلت بتسريع السيرورة الجارية فقط . وان تأثيره الشخصي قصّر امد الازمة . لكن هل يمكن ان نقول بكل ثقة ان الحزب كان سيعرف طريقه حتى بدون لينين ؟ ذلك ما لا نستطيع تأكيده بحال من الاحوال» (٣) . وفي مارس ١٩٣٥ كتب

---

١ ـ نفس المصدر ص ٣٧٦ .

٢ ـ نفس المصدر ص ٣٧٦ .

٣ ـ نفس المصدر .

تروتسكي في **مذكراته** : «لو لم يكن لينين في بطرس بورج ولم اكن انا هناك ، لما تحققت ثورة اكتوبر ولحالت قيادة الحزب البلشفي دون اندلاعها» (١) .

ربما نجحت قيادة الحزب البلشفي (لجنته المركزية) ، لولا لينين ، في منع البروليتاريا من تحقيق ثورة اكتوبر . لكن من الاكيد انها ، لولا لينين ايضا ، لكانت اكثر عجزا على قطف ثمار ثورة اكتوبر لحسابها الخاص !

والآن ما هو الدرس الذي يجدر بالثوريين الامميين ان يستخلصوه من تاريخ الحزب البلشفي ، موقفه من ثورة ١٩٠٥ وثورتي ١٩١٧ ومن نتائج استيلائه على السلطة لحساب نفسه . هذا الاستيلاء الذي كانت حصيلته ظهور الستالينية التي نعرف ؟ هذا الدرس لا يمكن ان يكون أقل من التحريض ضد ظهور حزب بيروقراطي لن يعرض علينا اكثر من هذا **الخيار المشؤوم** : اما ان تحول قيادته دون قيام الثورة واما ان تنجح ، اذا قامت بالرغم منها ، في قطف ثمارها لحسابها الخاص . واكثر من ذلك يحق لنا ان نتساءل عن نوعية الثورة المطلوبة في حقبتنا بعد ان تغلغل راس المال بشكليه الخاص والدولوي وسادت علاقاته في كل مكان من العالم المعمور بعمق واتساع يفوقان ألوف المرات ما كان عليه تغلغل راس المال وعلاقاته في العالم عندما تمت صياغة **البيان الشيوعي** . على كل حال اذا كان المطلوب ثويرة بيروقراطية لـ «تحقيق جمهورية ديموقراطية فقط» (ستالين) و«الانتقال من الهمجية الى الرأسمالية الامريكية ...» (لينين) ، فهناك من الدلائل ما يشير الى انه لم تعد هناك حاجة لعناء بناء حزب بيروقراطي، على غرار الحزب البلشفي في احسن الاحوال، ــ لن

---

١ ــ نفس المصدر ص ١٩٠ .

يسعفه الحظ قطعا بوجود لينين على رأسه ـ لتحقيقها . ولماذا تجشم مثل هذا العناء طالما المخابرات الامريكية مثلا ستقدم ممنونة للذين لا يطمحون لاكثر من جمهورية «ديموقراطية» فقط ، ولاكثر من اللحاق بالراسمالية بشكليها الخاص او الدولوي ، المتعايشين تعايشا سلميا مثاليا ، أثمن المساعدات وأفضل الضباط ؟ اما اذا كان المطلوب ثورة اشتراكية جديدة «تعيد الانسان الى نفسه» (ماركس) باسقاطها ألاستغلال والاستبداد وتجاوزها الراديكالي للديموقراطية التمثيلية عبر ظهور سلطة المنتجين المباشرين المباشرة، فلا بد من التخطي الراديكالي للاشكال القديمة للتنظيم البيروقراطي التي افلست تاريخيا ، والانتقال الى اشكال جديدة للتنظيم الثوري لا تناقض بأهدافها ولا بنمط تسييرها والعلاقات السائدة فيها المجتمع الثوري الذي تحرض بامكانية تحقيقه ، وتكون بالتالي النقيض المباشر لـ «اللجنة المركزية البلشفية التي حاولت منع قيام ثورة اكتوبر» (تروتسكي) وللحزب اللينيني الذي صفاها بعد قيامها واستصفاها لحسابه الخاص .

التنظيم الثوري الحديث

«ثورات القرن التاسع عشر لا تستطيع ان تستلهم شعرها من الماضي بل من المستقبل» (ماركس) وكذلك ثورات القرن العشرين والتنظيم الذي يحرض بها .

تشكل المادية التاريخية سلاحا ثوريا لتحليل الظواهر الاجتماعية في مسيرة تحولاتها المتعاقبة نحو ضدها . ولا توجد ظاهرة اجتماعية فوق التاريخ اي فوق قانون التغير والنفي ونفي النفي . فمن المعروف حتى الابتذال ان المجتمع الطبقي مثلا كان تقدما هائلا بالقياس الى المجتمع المشاعي الاول ، والاقطاع كان قفزة تقدمية بالنسبة للاستعباد ، والانتقال من الاقطاع الى البورجوازية كان ثورة جبارة . كل هذه الاشكال التاريخية للمجتمع فقدت تقدميتها بعد ان استنفدت قدرتها على الابداع ، وبذلك تحولت من حافز على التقدم الى عائق له ، من تشكيلات اجتماعية ثورية في لحظة ما من البروتسيس التاريخي تحولت الى تشكيلات رجعية في لحظة لاحقة هي عادة لحظة الاحتضار ، لحظة الانتقال من حقبة تاريخية عاشت دهرها الى حقبة اخرى جديدة . هذا الاتجاه

التاريخي نحو النفي والتحول من النقيض الى النقيض ينطبق ايضا على ظاهرة الاحزاب والنقابات البيروقراطية :

كانت النقابات ــ والى حد ما الجمعيات السرية البيروقراطية ــ هي المدرسة الاولى التي تمرنت فيها البروليتاريا الناشئة على الصراع الطبقي البدائي من اجل المطالب الكمية . وفيها تعلمت البروليتاريا المشتتة المبادىء الاولوية للتضامن الطبقي والتدخل الجماعي المنسق ضد جريمة الاستغلال المستمرة . وقد اشاد ماركس بهذا الدور الذي لعبته النقابات في القرن التاسع عشر . لكن ماركس كان ايضا، منذ ذلك الحين ، واعيا بنقيصة النقابات الجوهرية ، مع بعض الاوهام حول امكانية تجاوزها : «لقد ظلت النقابات حتى الان حاصرة ، اكثر مما يجب ، نشاطها في النضالات الاجتماعية المباشرة ضد رأس المال . وما زالت لم تدرك بعد على الوجه الاكمل قوتها الهجومية ضد **نظام استعباد العمل المأجور وضد نمط الانتاج الراهن** . ولهذا السبب فان النقابات بعيدة كل البعد عن الحركات الاجتماعية والسياسية العامة» (ماركس ١٨٦٦ انظر ج٢ من هذا الكتاب) . كما ان ماركس ، الذي كان منذ البدء واعيا بما فيه الكفاية للطابع الموقت للاحزاب السياسية المنفصلة بماهيتها عن البروليتاريا ، لدورها الملتبس ، ولقصورها عن اجتذاب حماس الطبقة العاملة لمدة طويلة ، داعبه وهم ان تصبح النقابات، المتميزة عن الاحزاب بكونها مفتوحة للطبقة ككل لا لفصيل منها وحسب ، ــ وهو الوهم الذي تمكن من الفوضويين النقابيين الى الان ــ «حزبا عماليا حقيقيا (١) » ارقى وأشمل من جميع

---

١ ــ «لا ينبغي اطلاقا الحاق النقابات بحزب سياسي او خضوعها له اذا كانت تريد انجاز مهامها . لان الحاق النقابات بحزب سياسي او اخضاعها له يعني تسديد ضربة قاتلة لها . النقابات هي مدرسة الاشتراكية . ففيها يثقف=

الاحزاب العمالية . لكن هذا المطلب كان تحقيقه فوق وسائل النقابات . ولهذا فان النقابات لا فقط لن تصبح «حزبا عماليا حقيقيا» بل ستصبح خاصة في القرن العشرين قوة هجومية ضد وحدة البروليتاريا ومبادراتها المستقلة .

تاريخيا تزامن ظهور النقابات والاحزاب القديمة ، في القرن التاسع عشر ، مع توسع النظام الرأسمالي حيث كان المطلب المباشر لبروليتاريا القرن التاسع عشر هو **توكيد نفسها** ، اثبات وجودها، امام مدد الكاسح . وكانت الوظيفة الاساسية لهذه الاشكال التنظيمية القديمة هي مساعدة البروليتاريا البدائية الغارقة في الجهل والأمية لا على **الغاء** الاستغلال بل على **تلطيف** شروط الاستغلال : على الحد من التنافس بين العمال المتهافتين على سوق العمل ، تخفيض ساعات العمل من ١٢ وحتى ١٤ و١٦ ساعة الى ١٠ و٨ ساعات ، على رفع الاجور المتدنية بشكل لا يصدق ، على تحسين شروط السكن ، على الحد من الطرد التعسفي ، على ضمان حد ادنى من الامن اثناء العمل : الوقاية من امراض الشغل الخ ... وكانتوسيلة نضال البروليتاريا هي الاضراب الذي تنظمه النقابات وتجمع الاموال الضرورية لمساعدة العمال على مواصلة الاضراب . وتنظم الحراسة على ابواب المصانع لكي لا يشغل أرباب العمل عمالا آخرين عاطلين من جيش العمال الاحتياطي وبذلك

= العمال انفسهم ويصبحون اشتراكيين لان الصراع ضد رأس‌المال يدور كل يوم امام اعينهم . جميع الاحزاب السياسية مهما كانت وبدون استثناء لا تحرك حماس جماهير العمال الا لبعض الوقت ، موقتا . اما النقابات فهي بالعكس من الاحزاب تجتذب الجماهير اجتذابا دائما . والنقابات هي وحدها القادرة على ان تمثل حزبا عماليا حقيقيا وعلى ان تواجه رأس المال بقلعة . (...) » (ماركس : تصريح لهامان ١٨٦٩) .

يحطمون الاضراب . ولهذا الغرض شكلت النقابات فرق المضربين Piquets de grève التي تغلق المصانع وتحتفظ بمفاتيحها لمنع اقتحامها من العمال الجدد محطمي الاضراب (١) .

كانت البروليتاريا تستعين بالاحزاب والنقابات البيروقراطية لتحقيق هذه المطالب **الكمية** المقبولة من البورجوازية ولو بعد عناء المساومة . لانها ليست من النوع الذي لا تستطيع البورجوازية إن ترفضه او تقبله دون ان تسقط في الحالين. ارضاء المطالب الكمية للبروليتاريا لم يكن يشكل ادنى خطر على استمرار الاستغلال ، بل ان هذا الارضاء بات اليوم مساعدا على استمرار آلية النظام خاصة في معظم البلدان التي تجاوزت اقتصاد ديكتاتورية الانتاج الى اقتصاد ديكتاتورية الاستهلاك . ففي حالات لم تعد نادرة بات ارباب العمل هم الذين يبادرون لزيادة أجور العمال حتى قبل ان يطلبوا ذلك لا مباشرة ولا بواسطة النقابات ... وذلك تنشيطا للاستهلاك. وأكثر من ذلك هناك اليوم اتجاهات تزداد قوة في اوساط نقابات ارباب العمل تطالب بالغاء الانضباط من المصانع لاعطاء العمال **الانطباع** بأنهم أحرار «لا يكدحون تحت طاعة السوط بل يبدعون تحت رقابة انفسهم» لان ألانضباط الحديدي في المصانع (الذي استعاره لينين لحزبه) كان حافزا على الانتاجية المعتمدة اساسا على الجهد العضلي في القرن التاسع عشر والنصف الاول من هذا

---

١ - فرق المضربين اليوم لم يعد دورها منع ارباب العمل من تحطيم الاضراب بعمال آخرين من جيش العاطلين . لان هذا الجيش تضاءل في البلدان الصناعية ولان طابع الاختصاص حمل استبدال عمال مهرة بآخرين لم يمتلكوا بعد هذه المهارة امرا صعبا. وهكذا فدور فرق المضربين النقابية اليوم بات رجعيا تماما لانه اصبح لا يتجاوز منع العمال انفسهم من تحويل الاضراب الى احتلال للمصنع وتسييره من قبلهم بدون رقابة ارباب العمل .

القرن ، اما اليوم فقد اصبح عائقا لها .

وهكذا فالنظام الرأسمالي العالمي سواء منه الرأسمالية الخاصة او رأسمالية الدولة يقوم اليوم بنفسه بتحقيق المطالب **الكمية** ، **الاصلاحية** ، **الخبزية** التي كانت الاشكال التنظيمية القديمة تناضل مع البروليتاريا نضالا مريرا في سبيل تحقيقها . لقد غدت الرأسمالية العالمية اصلاحية هي نفسها ، لانها وعت بأنها لن تستطيع الرد ، بشيء من الفعالية الوقتية ، على التحدي الثوري الاممي الا اذا كانت اصلاحية . ولهذا فالاصلاح اليوم ، في حقبتنا الثورية ، هو الشكل الحديث **والممتاز** للثورة المضادة التي تحاول تلطيف شروط استغلالها واضطهادها لتأبيد استغلالها واضطهادها.

انتهت الان او تكاد ـ وعلى مستوى العالم الذي وحدته السوق ـ مرحلة نضال البروليتاريا من اجل تلطيف شروط الاستغلال وبدأت مرحلة نضالها من اجل الغاء الاستغلال . انتهت المرحلة الاولى ، البدائية ، من الصراع الطبقي في سبيل المطالب الكمية والجزئية وبدأت مرحلة ارقى من الصراع الطبقي من اجل المطالب النوعية والشاملة . ومن الطبيعي ان تنتهي مع نهاية المرحلة ادوات نضالها البدائية : الاحزاب والنقابات البيروقراطية . وتبدأ مع المرحلة الجديدة من الصراع الطبقي ادواتها الجديدة المناسبة: **الاضراب البري واحتلال المصانع** وتسييرها من العمال «المضربين» (١) . ومن الجدير بالملاحظة ان افلاس الاشكال القديمة

---

١ ـ في شهر يونيو ١٩٧٣ اعلن عمال مصنع ساعات ليب الاضراب . وبدلا من ان يذهبوا الى منازلهم كالعادة تاركين المصنع تحت حراسة فرق الاضراب النقابية ، بادروا الى احتلال المصنع وتسييره تسييرا ذاتيا . واتخذ المجلس العمالي في المصنع قرارا اجماعيا بتوحيد الاجور (١٠٠٠ فرنك) والغاء المراتب . والجدير بالذكر ان خمسة عمال من اصل١٢٠٠ عامل تضامنوا معرب العمل . =

التمثيلية للتنظيمات البيروقراطية العمالية تزامن مع حقبة افلاس اشكال وتوسطات الهيئات البورجوازية التمثيلية بدءا من البرلمان وانتهاء بالبلديات . انها دلالة تاريخية لا تخطىء على انتهاء حقبة الديموقراطية البورجوازية التمثيلية التي نظمت الطبقة العاملة البدائية نفسها على صورتها ، وعلى بداية حقبة الديموقراطية الثورية المباشرة التي يرمز لها الاضراب البري واللجان الثورية وحرق الصحف البورجوازية والبيروقراطية التي تفتري على العمال .

ليس عجيبا ان نرى اليوم الاحزاب والنقابات البيروقراطية في الغرب وفي مغرب الحسن ٢ تحارب بتصميم الاضراب البري واحتلال المصانع وظهور اللجان العمالية المنبثقة مباشرة عن القاعدة، والتي لا تدوم الا بدوام الحدث الذي اقتضى ظهورها ، بشتى الاساليب وعلى رأسها فرق حماية الاضراب التي غدت اليوم فرقا نقابية لحماية المصانع من احتلال العمال لها ، لان الاضراب البري، احتلال المصانع وظهور اللجان العمالية تعبير عن تصميم الطبقة العاملة على التحرر من وصاية النقابات والاحزاب البيروقراطية ، التي غدت احدى هيئات السيطرة البورجوازية التي تمثل معارضة صاحب الجلالة وغدت بالتالي جزءا من مؤسسات النظام القائم ، ضروري لتوازنه واداء وظيفته بفعالية اكثر ، وذلك برهان

= ولم يجدوا وسيلة للتعبير غير الاضراب عن العمل، بينما كان العمال «المضربون» يعملون بدون ارباب العمل ووكلائهم الذين ليسوا في حاجة اليهم . وقد برهن العمال بذلك الى انه اذا كان الرأسماليون والبيروقراطيون يحتاجون الى العمال فان العمال بالعكس لا يحتاجون الى الرأسماليين والبيروقراطيين . فهل ستكون تجربة ليب نقطة انطلاق لنهاية سلاح الاضراب القديم واستبداله بسلاح احتلال المصانع واماكن العمل وتسييرها ذاتيا ؟

عملي على ان البروليتاريا اصبحت قادرة على ان تفصح عن مطالبها بنفسها لان مطالبها النوعية الجديدة : الغاء الاستغلال ، الحق في الاستمتاع بوقتها ، الاطاحة بنظام المراتب القائم على تقسيم العمل في المصنع كما في المجتمع ، باتت موجهة ضد الاحزاب والنقابات البيروقراطية نفسها . لان المطالبة بالغاء الاستغلال مع الغاء المراتب وتقسيم العمل الجزئي والمجزىء ينطوي بالضرورة على الغاء وجود النقابات والاحزاب البيروقراطية ذاتها . ولذا فان رفع شعار نقابات ثورية ، كبديل عن النقابات الاصلاحية ، لا فقط هو شعار مضاد للمصلحة الفعلية للبروليتاريا ، بل ايضا يساوي في حمقه وعدم جدواه رفع شعار برلمانات ثورية كبديل عن البرلمانات الاصلاحية القائمة في كل مكان تقريبا . ما يجدر بالثوريين ان يدركوه هو ان البروليتاريا الحديثة لم تعد في حاجة الى مساعدة الاشكال البيروقراطية القديمة للتنظيم وحسب بل انها غدت في حاجة الى النضال الحازم ضدها لانها باتت ادوات لا للصراع الطبقي بل للتصالح الطبقي ، للمحافظة على السلم الاجتماعي في المصنع وفي المجتمع سواء بسواء . ولم تعد ادوات لتحقيق التضامن العمالي بل اضحت ادوات لتفتيت التضامن الطبقي بتشجيع الاضرابات القطاعية ورفع المطالب الفئوية بدلا من تعميم الاضراب ليشمل الطبقة العاملة بجميع قطاعاتها والبلاد بجميع انحائها وبدلا من رفع مطالب موحدة للطبقة العاملة التي هي وحدها شرطه الاساسي: بائع لسلعة قوة العمل .

لقد بدأت البروليتاريا ، في كل مكان، تعي ان الاشكال القديمة للتنظيم الحزبي والنقابي تشكل لا احدى العقبات بل العقبة الاولى في طريق مسيرتها نحو استقلالها الكامل وتحررها الشامل من جميع سادتها .

لا يسع النظرية الثورية التي «تستمد العلم من المعرفة النقدية للحركة التاريخية» (ماركس) والتي هي اساسا تعبير عن الصراع

الطبقي الموجود فعلا ، الا ان تناضل هي الاخرى ضد الاشكال التنظيمية البيروقراطية القديمة القائمة على المركزية والوصاية وادخال الوعي من الخارج ، والمتفرغين والفصل بين الاقتصادي (النقابات) والسياسي (الاحزاب) وبين المطالب اليومية والمطالب التاريخية للبروليتاريا . ونضالها ليس سلبيا فقط يكتفي بتحطيم الاشكال القديمة بل هو ايجابي اصلا يشير الى الاشكال الجديدة للتنظيم الماركسي الحديث ، وهذا اول ما يميز الثوريين الجدد عن العفويين الذين لم يجدوا ردا مناسبا على غباوة التمسك بأشكال التنظيم البيروقراطي القديم ألا غباوة رفض جميع أشكال التنظيم لان التاريخ ، هذا الحزب ـ الرسول الآخر غير المرئي ، يعرف كيف يتم عمله بحتمية لا تصد ولا ترد ، ولان العمال لا يحتاجون للنظرية الخ .. مثل هذه العفوية هي في آن معا احتقار للعمال وللتاريخ الذي هو اساسا **النشاط الانساني الواعي** . وهكذا فالعفويون اختزلوا انفسهم الى متفرجين على مسرح التاريخ واختزلوا التاريخ نفسه الى ظاهرات فلكية ترصد لكن لا تغير . فهم يتفرجون على الاحداث كما يتفرجون على خسوف الشمس وكسوف القمر ! متناسين أن الصراع الطبقي لا يدور داخل المصانع ولا وسط الحقول لنقد نظام الاستغلال الاقتصادي معزولا عن مجمل آلية السيطرة الطبقية الشاملة وحسب ، بل يدور ايضا ويجب ان يدور على ارضية الحياة اليومية المغتربة والعلاقات الانسانية المتشيئة . والنظرية الراديكالية هي في وقت معا تعبير عن الصراع الفعلي الدائر واستباق له ، بنقد المجتمع البورجوازي نقدا سديدا يعري عورته ويحقره في وعي ضحاياه . والعالم القديم ، عالم السلعة والقمع المعمم ، الذي حسّن سلاح الايديولوجيا وارتقى به، بعد ظهور التلفزيون وتطوير المشهد ، الى مستوى قوة ضاربة للوعي النقدي ، يتطلب تحطيمه اكثر من اي وقت مضى لقاء سلاحين : سلاح النقد ونقد السلاح ، سلاح الانسانية المفكرة وسلاح الانسانية

المتألمة ، اللتين وحدتهما شروط الانتاج الحديث .

خارج غباوتي المركزية والعفوية هناك مكان للتنظيم الماركسي الحديث الذي يعي اهمية **وحدود** دوره في وقت معا . وسنقدم في الصفحات التالية ملامحه الاساسية .

التنظيم الماركسي الحديث ليس حزبا جماهيريا على غرار حزب **مرض الطفولة** . وليس ايضا حزب نخبة بيروقراطية على غرار حزب **ما العمل ؟** ، بل هو طليعة بمعنى **البيان الشيوعي** . فهو يعي انه لا يمثل الجماهير . وبهذا المعنى فهو منفصل عنها . لكنه بنقده النظري لعالم الفصل بين النظرية والممارسة ، بين العامل ومنتوج عمله ، بين الانسان ونفسه وبين وحدة جميع مظاهر النشاط الانساني في الحياة اليومية ، وببرنامجه الذي يحرض بظهور السلطة الوحيدة والمطلقة ، سلطة المنتجين المباشرين المنافية والنافية لكل سلطة منفصلة عنها ، وبالممارسة النظرية ــ العملية اليومية لاعضائه وبنمط تسييره الديموقراطي يعي ايضا بأنه **انفصال عن عالم الانفصال** البورجوازي والبيروقراطي : انفصال عن انفصال عالم القادة والمقودين ، عالم الحاكمين والمحكومين ، عالم الظالمين والمظلومين . التنظيم الحديث بنظريته الراديكالية التي يبلورها حول الهيئات الديموقراطية المباشرة بصفتها الشكل الوحيد الملائم لتشكيل العمال في طبقة واعية ومستقلة ، **بشعاره المركزي** : «تحرر الطبقة العاملة من صنع الطبقة العاملة نفسها» ، بتحريضه بالاضراب البري ، باحتلال المصانع ، بالتسيير الذاتي المعمم للمجتمع القادم ، بنمط تسييره وبممارسته غير المنفصلة عن نظريته الراديكالية وشعاره المركزي لا يستطيع ان يتحول بسهولة الى حزب بيروقراطي له اهداف منفصلة عن اهداف الحركة العمالية ، لا لانه لا يريد ذلك وحسب بل لان نظريته المعلنة وممارسته المنسجمة معها اي المعادية للاستبدالية البلشفية ، لتقسيم العمل ، للمراتبية وللبيروقراطية بالتالي تمنعه من ان ينصب نفسه هيئة

أركان مطاعة على الجيش البروليتاري المطيع .

لا جدال في ان هناك انفصالا فعليا ، **موقتا** ، بين التنظيم الثوري والطبقة العاملة ، لكن من العبث ان يتحول التنظيم المنفصل الى الروح القدس لكي يحمل بواسطة وعظه لجماهير العمال وعي هدفهم ووعي وسائل تحقيقه . ولو كان ذلك ممكنا فعلا لكنا اليوم في غنى عن خوض هذا النقاش ، لان الثورة كانت تكون قد قامت منذ زمان بعيد : منذ نصف قرن على الاقل ، منذ ان حمّلت الاحزاب الستالينية نفسها هذه الرسالة . لكن الانفصال بين المنظّرين الثوريين والبروليتاريا ليس أعمق من الانفصال بين البروليتاريين انفسهم في فترات الركود . فالرأسمالية تذرر العمال ، تغرق كل واحد منهم في همومه الخاصة .. الصغيرة ، الىأن تأتي لحظة الازمة العامة، لحظة الثورة فيتوحد البروليتاريون جميعا فيما بينهم ويتوحد معهم الثوريون المعزولون . لان الحواجز التي كانت تفصل معسكر البروليتاريا المتألمة والبروليتاريا المفكرة تكون قد سقطت .

لقاء النظرية بالممارسة

لقاء النظرية الراديكالية التي يحرض بها منظّر معزول (ماركس) ـ اصبحت نظريته في كل مكان وهو ليس موجودا في اي مكان ـ او تنظيم طليعي معزول بالممارسة الراديكالية للطبقة الثورية ـ التي شرعت في «تحقيق الفلسفة» (ماركس) ـ يتم عندما يتم خلال الوضع الثوري او المرهص بالثورة . في هذا الوضع تشرع الجماهير الثورية في تقرير مصيرها بوعي واستقلال ، تشرع في بناء سلطتها الوحيدة عبر احتلال اماكن العمل وتسييرها ذاتيا وتكوين لجانها ومجالسها الثورية . في ديناميك هذا الوضع

تتلاشى الفوارق او تكاد في الوعي بين المنظّرين الثوريين والعمال الطليعيين والبروليتاريا الثورية .وفي هذا الوضع تصبح الوحدة ممكنة . ذلك ان الوعي يتسارع ويتجذر ويصبح كل العمال تقريبا اذكياء وبعيدي النظر . ما بدأ كل العمال يتلمسون الطريق اليه : **تحررهم الذاتي الشامل** ، يكون التنظيم الثوري قد توقعه وصاغه قبل ذلك بزمن طويل برنامجا وكثفه يومئذ شعارات راديكالية صائبة تحدد بأقصى ما يمكن من الدقة نقاط استخدام الجماهير لنقدها العملي : للنقاط الحيوية التي يحس فيها العدو الطبقي بوقع ووجع الضربة . وهكذا **يتحد** نقد الطبقة الثورية العملي بنقد الطليعة الثورية النظري في سعير الصراع الطبقي الذي انفجر حربا اهلية .

يشكل العمال الطليعيون الذين اصبحوا «جدليين» ، على حد قول ماركس والذين هم على صلة فعلية بالطبقة العاملة في اماكن العمل ، التي لم ينفصلوا عنها والذين هم ايضا ، وفي نفس الوقت، على صلة بالنظرية الثورية او بالتنظيم الثوري من خلال الاطلاع على التحريض الذييمارسه والنظرية النقدية التي يبلورها، امكانية جدية للقاء الطبقة الثورية ككل بالنظرية الثورية عندما يتجاوزون فورا المطالب الجزئية التي انطلقت منها الحركة في بدايتها الى المطلب الشامل ، الى المطلب الذي لا يمكن ان تقبله او ترفضه الطبقة الراسمالية السائدة دون ان تسقط في الحالين: **كل السلطة للمنتجين المباشرين** .

على وجود مثل هؤلاء العمال الطليعيين غير المنفصلين عن طبقتهم ب «التفرغ» في الاجهزة البيروقراطية الحزبية والنقابية يتوقف في حالات كثيرة على الاقل تجذر اي انفجار ثوري ، لانهم أقدر من ايحزب ثوري على تجذير الصراع خلال الازمة المستحكمة، على تجذير وعي رفاقهم ، على تصعيد ما في قلوبهم الى رؤوسهم ومساعدتهم على ان يفكروا بأيديهم . وليست لهم ـ لعدم وجود

الجهاز المحافظ بماهيته ـ اي امكانية لقمع الوعي الجذري لـدى جماهير الطبقة الثورية او وضع العصا في عجلات قاطرة الثورة كما فعلت دائما وستفعل ، اذا اتحنا لها الفرصة ، الاحـــزاب والنقابات البيروقراطية التي نصبت نفسها طليعة ووصيا علـــى البروليتاريا .

وبالاجمال نستطيع القول من خلال رصد وقائع ثورات القرن ١٩ وال ٢٠ واسباب تجذرها وهزائمها ان شرط نجاح الثورات البروليتارية الاممية القادمة او على الاقل بلوغها اقصى درجات الراديكالية يتوقف على مدى نضج الشروط الفعلية ، على مـدى الراديكالية التي بلغها الصراع الطبقي ومدى الشمول الذي بلغته الازمة ، على مدى تذكر الطبقة الثورية لخبرتها التاريخية المحلية والاممية ، على مدى وجود عمال طليعيين غير منفصلين عن طبقتهم وقادرين بالتالي على ان يذكروها من داخلها بخبرتها التاريخيـــة وبمهامها الراهنة ، على قدرة التنظيم الثوري ، الذي ليست له اهداف منفصلة عن اهداف الطبقة الثورية ، على كشف ومحاربة التنظيمات البيروقراطية التي ستعمل اما على منع العمال من القيام بالثورة واما على استصفائها منهم بعد قيامها ، وعلى اعداد برنامج راديكالي قادر على اللقاء التلقائي براديكالية الطبقة العاملة بمجرد ما ان تصبح الشروط الفعلية ملائمة ، ويتوقف اولا واخيرا علـى تضامن البروليتاريا الاممية معها .

من مهام التنظيم الثوري

مهمة التنظيم الثوري الاولى هي **نقد** النظام الرأسمالي القائم بالسلاح النظري للاطاحة بجميع اكاذيبه في وعي الناس ، لكشف جميع متناقضاته وتعرية أزمته والاشارة الى المخرج الثوري منها.

اما مهمة نقد العالم القديم بالسلاح فهي مهمة البروليتاريا الثورية. هذه البروليتاريا التي سوف تحقق عمليا ما انجزه الفكر الثوري نظريا . والى ان تندلع الثورة سيظل هذان السلاحان مفصولين، والثورة وهي وحدها **وحدتهما** الجدلية الحية . وسيظل نقد الثوريين للعالم القديم ووسائل القضاء عليه وتحريضهم بحل الازمة الناشبة مفتوحا حتى نهايته المنطقية : الممارسة . وسيتوقف عندما تحل الازمة عمليا وثوريا اما قبل ذلك فلا .

تعرية التنظيم الثوري للاديولوجات ، المشلة للوعي النقدي في اوساط العمال والجماهير حتى قبل ان تكشف الممارسة الثورية للعمال والجماهير عن زيفها وفسادها ، غير منفصلة عن مهمة استخدامه الجيد لسلاح النقد تمهيدا لنقد السلاح .

لا بد من الانطلاق في كل نشاط ثوري جدير بهذا الاسم من نقد جميعالاديولوجيات السائدةمن ميتافيزيقية، قومية وستالينية، الموظفة جميعا في خدمة السادة وتضليل عبيدهم : الاديولوجيا الميتافيزيقية تعلق ارادة التأثير الانساني في التاريخ وتقرير مصائر الجماهير على قوة عليا خارج التاريخ وفوقه تقرر للجميع مصيرهم من وراء ظهورهم . ولا نستطيع نحن البشر الا التسليم بالعجز عن التحكم والتأثير فيما يجري أمامنا **وضدنا** اذ ليس لنا الا الرضى بما كتب الله لنا ... لقد حدث مرارا ، في ذروة الازمة وعندما اصبح في الامكان اكتشاف الجماهير ، التي لا سلطان لها على استخدام حياتها ، للاسباب الحقيقية للأزمة ولامكانية حلها على الارض ، ان تدخل السادة وكهنتهم لاعادة وعيها الى مواقعه الاولى مستعينين بذلك الدركي الداخلي المرابط داخل الرؤوس لمنعها من الانتفاض على مصادرة وعيها ، هذه المصادرة التي يعود تاريخها الى مئات السنين . وأبرز مثل على ذلك موعظة ٩ يونيو ١٩٦٧ : «لا يعفي حذر من قدر» !

الاديولوجيا القومية تحاول عبثا ان تشد وعي الجماهير

الكادحة ، في حقبة اصبحت فيها الثورة اما ان تكون اجتماعية او لا تكون ، الى شعارات وأوهام حقبة منقرضة : دور الزعامة الفردية اصبح اليوم صفرا ، دور الانقلابات العسكرية في التغيير بات رجعيا (١) ، ودور الطبقات الرجعية السائدة بات انفصاليا والتعويل على المشاعر القومية لاثارة النخوة في امراء النفط بات مهزلة . يكفي اليوم ان يكون للمرء عينان لكي يرى بمنتهى الوضوح ان الطبقات الرجعية السائدة تغلب مصالحها القطرية وحتى الفئوية جدا والوضيعة جدا على مصالح الامة العربية الحيوية . وهكذا الحال مع جميع الاوهام التي داعبت بها الاديولوجيا القومية وما زالت تداعب بها ، خاصة في ليبيا القذافي ، أماني الجماهير العربية في التحرر الشامل من سيطرة السادة الاجانب والمحليين.

اما الاديولوجيا الستالينية فهي تلعب ، اضافة الى دورها الخاص ، دوري الاديولوجيا الميتافيزيقية والقومية . فهي الاخرى تعلق تقرير مصائر الجماهير العربية على قوة دولية ، لا تتصرف في سياستها الا بوحي مصالحها القومية والطبقية ، زاعمة بأنها تحنو على مستقبل الجماهير العربية حنو المرضعات على الفطيم (٢) . فصداقة الكرملين هي شركة التأمين ضد جميع الاخطار ، وهي التي ستؤمن الجماهير من خوف وتطعمها من جوع ، وما جاءنا من خير (؟) فهو منها وما اصابنا من شر فهو من انفسنا ، من ميلنا الى

---

١ ــ لا بد من الاشارة الى والاشادة ببعض الثوريين الذين اتحدوا داخل بعض الجيوش في العالم الثالث للتحريض ضد الانقلابات العسكرية التي تأتي دوما لاعطاء مخرج زائف من ازمة حقيقية .

٢ ــ من بيت في قصيدة لشاعر ستاليني يمدح ستالين في ١٩٥٠ ، بعد دوره الذي لا بديل له في تشكيل دولة اسرائيل ؛ ويصف حدبه على الجماهير العربية !

المغامرة ، من قلة صبرنا ، من ضعف ايماننا بصداقة الكرملين الى آخر شياطين الغواية المذكورة في المصحف البكداشي ! وتلعب الاديولوجيا الستالينية سلبيا دور الاديولوجيا القومية لانها باسم التحالفات الطبقية الطويلة العريضة ، ترفض وتنفي الوعي المستقل والدور المستقل للطبقة العاملة العربية . وباسم التعاون الطبقي تقمع الاتجاهات النامية للصراع الطبقي . اما دورهـــا الخاص فهو اشد خطرا لانه اكثر تخفيا : ذلك هو كونها تشهد امام العمال زورا على حقيقة التاريخ الثوري ، مقدمة لهم ثورتي ١٩١٧ اللتين كانتا اساسا مأثرة السوفياتات وتكذيبا عمليا لـ **ما العمل** علـــى انهما اساسا مأثرة الحزب البلشفي وانجيله ما العمل (١) وهـــي بذلك لا تبرر تخليف الستالينية وأحزابها لوعي البروليتاريـــا ومصادرتها لدورها الذي لا بديل له واغرائها العمال بأن يصنعوا أغلالهم بأيديهم وحسب ، بل انها ايضا وخصوصا تختزل امكانيات الابداع الثوري في التاريخ الى حدث واحد وحيد هو ثورة اكتوبر ١٧ بعد أن اعادت فيها النظر وصححتها كما يحلو لها . وذلك لجعل وعي البروليتاريا الثورية والثوريين المعزولين اقل قدرة علـــى تعاطي اجدى نشاط للفكر الثوري المعاصر الا وهو اعادة تنظيـف وتنظيم السلاح النظري والسلاح العملي للحركة الثورية الجديدة، وأقل اقتدارا عن ادراك كل جديد يجد في التاريخ وبالاحرى على اخذ زمام المبادرة لاحداثه . وتقوم الاديولوجيا الستالينية بدور رديف لدورها الاساسي هو الكذب على التاريخ **بالنسيان** : نسيان

---

١ ـ كان ذلك قبل ظهور اتجاهنا الذي ينشط اليوم وينضم اليه او يلتقي به كل يوم اكثر الثوريين ذكاء ، راديكالية وتماسكا لتطهير الساحة العربية مـن المزابل الاديولوجية . ومنذ ظهوره بات من المحال دوام الحال على ما كانت عليه في السابق .

الثورات العمالية او الكذب الصريح عليها اذا لم تجد من ذكرها وتذكرها بدءاً من ثورة كرونشطاط ١٩٢١ (١) الى ثورة المجر ١٩٥٦ مرورا بعديد من الثورات الاخرى . وبنفس الضربة ترمي الاديولوجيا الستالينية بسياستها التجهيلية حيال تاريخ الحركة الثورية الاممية الى ان تحول ، بقوة الكذب المعاد ، دون امكانية بلوغ الوعي الثوري ارقى درجات صحوه وتماسكه : توجيهه سهام النقد الذي لا يرحم لجميع الطبقات القائمة على القمع والكذب شرقا وغربا ، دون انخداع بكذب اي منها على نفسها وعلى بروليتاريتها التي ما زالت لم تستطع بعد تكذيب الناطقين زورا باسمها . لان في افتقاد الوعي الثوري لهذه الرؤيا الشاملة فقدانا لتماسكه وأمميته وبالتالي لجوهره . لانه ما ان يصبح الظلم مقبولا في مكان حتى يغدو من الممكن قبوله والتواطؤ معه في كل مكان .

تصدي التنظيم الماركسي الحديث لنقد منوعات الاديولوجيا السائدة لا يكون فعليا وذا مردود تاريخي الا اذا ترافق **بعدم انتاج** اية اديولوجيا اخرى ادنى او ارقى من المنوعات الاديولوجية الرائجة . لان الحركة الثورية لا تحتاج الى اديولوجيا اخرى تضاف للرصيد النحس من الاديولوجيات السائدة ، بل تحتاج **لنظرية** ثورية تقاطع اوهام جميع الاديولوجيات وتسعى لوضع حد فاصل للفصل الاديولوجي اساسا بين النظرية والممارسة ، هذا الفصل الذي كان وما زال العلة الاولى للعجز النظري والعملي الذي أطاح بجميع المحاولات الثورية على صعيد النظرية والممارسة وعاقها عن الادراك الجدلي الشامل للواقع الفعلي المتناقض وعن التحقيق الذي يجب ان لا يقل شمولا للهدف الثوري .

---

١ ـ انظر مقالنا عنها في دراسات عربية ، مارس ١٩٧٣ ، وانتظر كراسنا القادم عنها .

نقد التنظيم الثوري الحديث للاديولوجيا السائدة محليـــا وللمجتمع السائد الذي تبرره كل منها على طريقتها لا يكون منطقيا مع نفسه الا اذا كان في الوقت ذاته نقدا لجميع الاديولوجيات السائدة عالميا ولاشكال المجتمع السائد الذي تبرره وتحاول اخفاء هويته عن وعي نفاته ، اي الا اذا كان اكتشافا وكشفا للوحـــدة العميقة لعالم السيطرة ، عالم الاستغلال والاغتراب ، عالم التعايش الودي بين طبقات العالم القديم .

من وحدة وعالمية عالم السيطرة ليس من الصعب اكتشاف وحدة حفاري قبره وأممية الثورة . ذلك هو الحد الادنى لتنظيم حديث يطمح لان يكون في مستوى المهام الثورية التي يطرحهـــا التاريخ الفعلي على الذين صمموا على ان يصنعوه .

يظل نقد عالم السيطرة القائم غير مكتمل اذا لم يقتـــرن باستشفاف بديله الثوري . وبديله هو قلبه : عالم لا سيطرة فيه ولا استغلال ولا اغتراب ، عالم تختفي منه السلعة وسلعة قـــوة العمل . اذن عالم جديد تستطيع فيه الانسانية الجديدة المتحررة من جميع عاهات المجتمع التسلطي ان تعيد خلق نفسها باعادتهـا خلق شروط حياتها وعلاقاتها بكامل الوعي والحرية ، واعـــادة صياغة حاجاتها صياغة انسانية متوازنة في اطار «منظمات المنتجين الاحرار والمتساوين» (ماركس) التي اتخذت فيما بعد اســـم المجالس .

الاشكال التي يمكن ان يأخذها هذا التحرر لا يمكن حتى التنبؤ بها . لكن مضمونها معروف منذ الان : التسيير الذاتي لجميـــع مظاهر الحياة التي استعادت وحدتها المضيعة في عالم الانفصال الراهن ، بامتلاك المنتجين المباشرين : الاحرار والمتساوين لكامل وقتهم الذي يعد نهبا مقسما بين وقت مكرس للعمل المستغل الذي لا يدركون هدفه ولا يسيطرون على نتاجه، ووقت مكرس لاسترداد الانفاس (اكل بائس ونوم غير مريح) للعودة للعمل المغترب اياه ، بل

اصبح **وقتهم** بأتم معنى الكلمة ، يوظفونه في نشاطهم الابداعي ، الحر والواعي ، في سيطرتهم الواعية على تاريخهم الذي باتوا يصنعونه بأنفسهم ولانفسهم ، والذي لم يعد يوجد فيه ما هو مستقل عن ارادتهم ولا ، بالاحرى، ما يحول دون تحقيقهم لذواتهم بتحقيقهم لجميع رغباتهم التي كبتتها على مر الدهور حضارات القمع التي كبلت الانسانية بأغلال التحاريم الدينية والدنيوية نافية رغباتها الى مستودع اللاوعي المكتظ بالصبوات المحبطة والوعود المغدورة .

في برج بابل الذي اختلط فيه الحابل بالنابل حول هوية الذات الثورية ، القادرة على تحقيق هذا المشروع الثوري ، يصبح لزاما على التنظيم الثوري الحديث ان ينسف جميع الاوهام الستالينية، الماوية والماركوزية (١) حول استبدال البروليتاريا ، باعتبارها ذاتا ثورية رئيسية، بالفلاحين، بالطلبة ، بالمثقفين وحتى بالجيوش(٢). لان البروليتاريا المدينية والريفية هي ، من بين جميع الطبقات ، الطبقة ذات الآلام الشاملة والاغلال الراديكالية ، ومن بين جميع الطبقات ، هي الطبقة الوحيدة التي بتحررها الذاتي تحرر المجتمع كله والطبقات جميعها بإلغائها جميعها بما فيها هي . وهي وحدها

---

١ ـ مركوزه الذي زعم ان الطبقة العاملة في الغرب لم تعد ، بعد اندماجها النهائي المزعوم بالنظام السائد ، صانع الثورة الاشتراكية الرئيسي ، وانها استبدلت بالفئات الهامشية ، بالطلاب والشباب في الغرب وبفلاحي العالم الثالث ، تراجع بعد ثورة مايو الباريسية ٦٨ عن هذه الحماقة ليقع طبعا في حماقات اخرى حول الحزب اللينيني !

٢ ـ نشر ايديولوجي روسي في اكتوبر ١٩٦٦ مقالا وزعته وكالة نوفستي حول اضطلاع الجيش في مصر ، اليمن ، الجزائر والسودان ... بدور الطبقة العاملة !

من بين جميع الطبقات القادرة على امتلاك وعي جذري بوضعها وبوضع جميع الطبقات الاخرى وعلى نقده وقلبه نقدا وقلبا لا يقلان جذرية .

غزو السلعة للعالم كله وتحويل الغالبية العظمى من الانسانية الى بروليتاريا وسكان مدن ، وسكان المدن اليوم يفوقـــون بما لا يقاس سكان الارياف ، جعل البروليتاريا التقليدية ، الصناعية ، تتعزز نوعيا وكميا بجيش عرمرم من البروليتاريا الجديدة : مـــن الطلبة ، والمثقفين وأجراء الدولة والجنود والبروليتاريا الريفيـــة وعدد من الفئات الهامشية الاخرى . حتى في العالم العربي حيث البروليتاريا الصناعية محدودة ، فانها ، هي ، مع البروليتاريـــا الريفية ، متحالفة مع الطلبة والمثقفين المنسلخين طبقيا ، التي يجب انيتوجه لها التنظيم الثوري بتحريضه لكي تتحرر منالادیولوجیات السائدة ومن التنظيمات البيروقراطية التي تروج لها حتىتستطيع ان تتشكل في طبقة واعية ومستقلة .

اللحظات الحاسمة التي على التنظيم الثوري الحديث ان يلعب فيها دوره كاملا ويستنفد فيها جميع امكانياته هي لحظة الهبـــة الثورية ، لحظة ظهور جميع التيارات الاجتماعية المتصارعة علـــى السطح . على التنظيم عندئذ ان يركز نيران تحريضه ضد جميـــع التنظيمات والتيارات المعادية لشعار : «تحرر العمال من صنـــع العمال انفسهم» ، فاضحا امام اوسع الجماهير النوايا الخفيـــة للتنظيمات البيروقراطية التي ستستخدم الف يد ورجل لاجهاض الثورة لصالح طبقة بيروقراطية جديدة تجعل البروليتاريا تلعب من جديد دور **الحذاء** الذي كان دائما دورها . ولا توجد اهمية تعادل اهمية تنظيم ثوري يحارب كل قوة اجتماعية او سياسية تريد ان تبقى مستقلة عن الشعب الثوري الذي انجز ثورته ، تنظيم يقول للبروليتاريا الحديثة ما قاله ماركس للبروليتاريا الالمانية في ثورة ٤٨ ـ ١٨٤٩ : «على البروليتاريا ان لا توجه حذرها ضد الحزب

الرجعي المهزوم بل ضد حلفائها القدامى ، ضد الحزب الذي يريد وحده الاستفادة من النصر المشترك (...) هذا الحزب الذي سيبدأ بخيانة العمال منذ الساعة ألاولى للنصر» .

هكذا يستطيع التنظيم الثوري ان يكون الذاكرة الثورية القوية للطبقة العاملة يذكرها بخبرتها التاريخية القريبة والبعيدة ، يذكرها بالاسباب الفعلية لهزائم جميع ثورات البروليتاريا الامية . « ان يشرح لها وللجماهير الثورية مدلول ومنطق قرارهـا سلبيا او ايجابيا دون ان يقول لها ابدا ما كان ينبغي حمل السلاح، ان يشرح لها ما هي قادرة على انجازه فعلا واضعا امامها جميع الامكانيات التي اعطاها الوضع الثوري ليساعدها بذلك على قراءة مهامهـا المقروءة على ارض الواقع لكي تنخرط بكل **قواها** وبكل **جد** فـي اختيار امكانية تحقيق سلطتها الوحيدة والمطلقة ، محذرا أياها من التذبذب ، منتقدا بشدة ميولها للوقوف في منتصف الطريق الذي ستكون فيه هزيمتها الكاملة ، محذرا لها من **الاتكال** على المنقذين وأناجيل خلاصهم (...) مصارحا لها بالصديق الـذي عليها ان تحالفه والعدو الذي عليها ان تحاربه ، طارحا عليها شعاراته التي لا يمكن ان تكون الا تلخيصا مكثفا للمهام الفعلية الراهنة ...»(١). وان يساعدها على تنسيق نشاطها المبعثر ليشمل كل المناطق وكل القطاعات .

نمط تسيير التنظيم الثوري الجديد

لا يستطيع التنظيم البروليتاري الحديث ان ينجز هذه المهام

---

١ ـ انظر مقالنا : «مهام التيار الثوري العربي الجوهرية» دراسات عربية عدد ٤ ـ فبراير ١٩٧٣ ـ . وعلى الذين يهمهم الوقوف على الرؤيا التنظيمية التي نحرض بها ان يعودوا الى هذا المقال لانه يتمم هذا الجزء من المقدمة .

بأقصى الفعالية وان يكون النقيض الحي لنمط تسيير وبنـــاء التنظيمات البيروقراطية القديمة التي يحرض بتخطيها الا اذا كان هو نفسه قائما على الديموقراطية المباشرة .

الديموقراطية المباشرة ، التي هي نمط تسيير المجتمع الثوري القادم ، يحاول التنظيم ان يبرهن على امكانية تحقيقها فعليا ولو على أضيق نطاق : في داخله هو نفسه . والحد الادنى لذلك هو :

● «ان يكون التنظيم الثوري مجالسيا اي ان يكون برنامجه الاقصى اقامة السلطة المطلقة لمجالس العمال والفلاحين ، وان يكون في شكله ديموقراطيا ديموقراطية هذه المجالس» (١) .

● ان تكون جميع هيئات التنظيم البسيطة الى اقصى حــد منتخبة وقابلة للعزل في كل لحظة (٢) .

● تطبيق مبدأ **دورية** تحمل المسؤوليات تفاديا للتخصص الذي يفرخ التسلط البيروقراطي .

● انهاء الفصل بين هيئات اتخاذ القرار وهيئات تطبيقــه . لكي تكون مسؤولية اتخاذ القرار ومسؤولية تنفيذه مسؤوليـــة جماعية موحدة بيد جميع هيئات التنظيم الذي يصبح على هـــذا النحو «مفكرا جماعيا» ، كما يقول جرامشي .

● الغاء التقليد الكاوتسكـــي ، تقليد ادخـــال «الثوريين المحترفين» ، الذين ليسوا الا متفرغين بيروقراطيين مأجورين ، في التنظيم ، هذا التقليد الذي رفض ماركس وانجلز بحزم ادخاله الى التنظيم (انظر ج١ من هذا الكتاب) .

---

١ ــ انظر مقال مصطفى الخياطي : ملاحظات نقدية حول مسألة التنظيم الثوري . دراسات عربية عدد ١١ ــ سبتمبر ١٩٧١ ــ وهـــو مهم لمن يريدون التعرف الكامل على رؤيانا التنظيمية .

٢ ــ انظر البند ٢٥ من القانون الاساسي لرابطة الشيوعيين : «ينتخب اعضاء(...) المجلس المركزي(...) وهم قابلون للعزل في كل لحظة من قبل ناخبيهم».

● جميع مهام التنظيم تنجز من قبل اعضاء التنظيم **مجانـــا** وبالتناوب قطعا لدابر التفرغ والتخصص البيروقراطيين .

● الاعتراف الصريح بحرية الاتجاهات وحق المعارضة في نشر آرائها وبرامجها في نشريات وصحف التنظيم وبين الجماهير . لان تنظيما يلغي تعدد الآراء والاتجاهات داخل التنظيم باسم المحافظة على **الاسرار الحزبية** سيعمل في المجتمع الذي يحرض بظهوره على الغائها باسم المحافظة على اسرار الدولة . يصبح لزاما على التنظيم الثوري ، في المجتمعات التي اعتبرت دائما الاعتراض معارضـــة والمعارضة جريمة ولم تعرف خلال تاريخها الطويل (كالمجتمعـــات التي اطلق مونتسكيو ثم ماركس عليها اسم الاستبداد الشرقي) ، التسامح مع تعدد الاتجاهات واختلاف الاجتهادات ، ان يكون منذ الان نقيضها المباشر وان لا يكتفي بالتسامح مع تعدد الآراء وصراع الاتجاهات وحسب بل وان يشجعه ويحرض به داخـــل وخارج صفوفه .

● لا بد تحقيقا لمبدأ المساواة الفعلية في اتخاذ جميع القرارات وتنفيذها ان تكون الاقلية وجميع الاتجاهات داخـــل التنظيـم حاضرة مباشرة او بواسطة مندوبيها (في المؤتمرات او الندوات الخ) لحظة اتخاذ القرارات . «الثوريون في تنظيم واحد ليسوا بالتأكيد متساوين لا في الامكانيات ولا في المواهب لكن التنظيم **مفكر جماعي** متكامل ، والعلاقات التي ينبغي ان تسود فيه هي علاقات تكامل واثراء متبادل وليست علاقات سيطرة وخفض الجبين لمن هو أقل امكانيات وأقل مواهب» (١) .

الانضباط الحر

في جميع التنظيمات البيروقراطية ارغم المعارضون على ابتلاع

---

١ ـ انظر كتابنا الجماعي : من كومونة باريس الى مجازر عمان . ص٦١ ..

السنتهم وغالبا على ابتلاع أضراسهم باسم الانضباط الحديدي . وجميع القوانين الاساسية لجميع الشيع ، التي اطلعت عليها حتى الان ، تحتل فيها بنود الانضباط محل البسملة في النصوص الدينية .

الانضباط البقري كلي الحضور في كل خانة من خانات المجتمع الثكني القائم . الاب ، المدرس ، رب العمل ، الشرطي ، الزعيم ، والملك المتوج او غير المتوج كلهم هنا لفرض احترام الانضباط الحديدي ، لاخماد كل نزوع الى الحرية المعاشة ، لقمع كل محاولة لتحرير الابداعية الفردية وكل محاولة لتنمية وتوسيع وتجذير **الحساسية ضد السيطرة** .

عندما يلجأ الثوري من هذا المجتمع الابوي المستبد الى التنظيم لتجذير وعيه بضرورة الحرية المعاشة ، بضرورة تحرير الابداعية الفردية ، بضرورة الغاء استغلال الانسان للانسان ، وطغيان المؤسسات على الافراد وباختصار بضرورة الغاء المواكب الكئيبة التي كانت دائما رديفا ملازما للاستغلال والطغيان ، فهل تراه سيحقق هدفه بتوسيع دائرة الانضباط الحديدي من المجتمع الى التنظيم المضاد بماهيته لهذا المجتمع ؟

هذا هو السؤال الجذري الذي على كل ثوري ان يطرحه ويجيب عليه . بالنسبة الينا المسألة محسومة : التنظيم الثوري لا يمكن ان يكون ـ الا اذا اراد ان يفقد مبرر وجوده نفسه ـ امتدادا للمجتمع القائم وانما هو اصلا وأساسا نقيضه الحي ونفيه المباشر . لان قلب الاستبداد السائد يتطلب حتميا تجذر الحساسية ضد الاستبداد عند جميع الثوريين وعند اوسع عدد من ضحايا الاستبداد الراسمالي ، يتطلب حتما وعي ضرورة التحرر وامكانية تحقيقه . وليس التنظيم ـ المصنع القائم على مناقبية الانضباط الحديدي هو المكان الملائم لنمو حاسة الحاجة الى الحرية المعاشة والحساسية المعادية للسيطرة .

الانضباط الوحيد المقبول في التنظيم الثوري والنظام الوحيد الذي ينبغي ان يسود العلاقات بين الثوريين **المتساوين** ، همـــا الانضباط والنظام اللذان هما **فعل الحرية** : الثوري الذي هـــو بماهيته انسان نوعيا ارقى تمنعه حساسيته المتطورة ضد انماط السلوك السائدة في مجتمعات العالم القديم من كذب ومنـــاورة ومنافسة ان يكذب على رفاقه ، ان ينصب لهم الفخاخ ، ان يعتدي على حريتهم . فهو يسهر تلقائيا على تحقيق الانسجام الضروري بين حريته وحريتهم ، بين تحقيق ذاته وتحقيق ذواتهـــم ، بين سلامته وسلامتهم . لان الانسجام بين حرية الثوري وحرية مجموع الثوريين هو الشرط الاولي لتحقيق كل منهم لحريته المعاشة .

كما ان اعضاء المجتمع الثوري القادم ـ الذي وفرت التكنولوجيا الحديثة شرط تحرره الراديكالي من الحاجة ـ سيحيون فـــي انسجام وتآخ يفوق نوعيا تآخي جماعات المؤمنين الاوائل لانـــه تآخ خال من التضحية التي لم يعد لها ، في عصر الوفرة ، مبرر ، يلتزمون ، دون الزام ، بجميع القوانين التي تحـــرم التحريم ، القوانين التي تسنها الارادة الجماعية للمجتمع الثوري المســـير ذاتيا ، هذا المجتمع الذي اصبح هو نفسه خاضعا لرغبات الافراد ، وتلك الارادة الجماعية التي تشارك معها وتتعرف على نفسها فيها كل ارادة فردية متحررة ، فكذلك يلتزم اعضاء التنظيم الثوري ، الرائد لمثل هذا المجتمع والبرهان العملي على امكانية تحقيقه ، بالانضباط الحر الذي كف عن كونه انضباطا كما تكف « دولة » ديكتاتورية البروليتاريا عن كونها دولة .

لا بد وان كلمة الانضباط الحر ستخيـــف الكثيرين . لان كلمة الحرية غدت في حد ذاتها مخيفة في المجتمعات ما قبـــل الرأسمالية ، مجتمعات الحاجة والعوز ، لان الحرية فيها مرادفة للحد من حرية ذوي السلطان في الارتواء الكامل او شبه الكامل من الخيرات المادية المتاحة وفي الاستمتاع بوقتهم الحر ، على حساب

الحرمان الكامل او شبه الكامل لمن لا سلطان لهم على استخدام حياتهم وامتلاك وقتهم المصادر . وحتى في المجتمع الرأسمالي الناشيء استمرت الحرية كلمة مخيفة ، لانها اخذت معنى هداما، فقد غدت مرادفة لحرية المنافسة على الاسواق . فكل رأسمالي حر في ان ينافس رأسماليا آخر ، في ان يكتب له الافلاس ، وحر في استغلال العمال والمستهلكين .

الحرية في التنظيم الثوري وفي المجتمع القادم ، الذي سيلغي الحاجة والتنافس في وقت واحد ، هي النفي الراديكالي لهذين النمطين الاساسيين من الحرية التاريخية . الحرية الثورية هي حرية الارتواء الكامل للجميع وكل فرد . هذا الفرد الذي كف عن كونه ذرة ضائعة بين ملايين الذرات التي لا تقل ضياعا ، والذي لن يجد مبررا لتوكيد ذاته ضد ذوات الآخرين ، بل سيؤكدها في التضامن والتواصل الحار بين جميع الذوات المتساوية في **الوعي والحرية** .

سيرد البيروقراطيون الكبار والصغار ، على هـــذه الرؤيا ، بتأكيد ان وجود علاقات لا قمعية في التنظيم الثوري ، كما فـي المجتمع الثوري القادم هي مجرد حلم طوباوي . وهو موقف مفهوم تماما . لان وضع تحقيق الممكن تاريخيا على رف الاحلام الطوباوية هو **حجر الزاوية** في ايديولوجيا الثورة المضادة .

ايديولوجيا الثورةالمضادة هي: العقلاني واقعي والواقعيعقلاني. والقمع هو واقع الانسانية وهو ماضيها وهو مستقبلها . وهكذا فكل محاولة لتجاوز ما هو واقع ، لنسف الاستبداد الظاهـــر والخفي الذي يسحق الفرد ويحيله الى ذرة مطيعة وضائعة فـي خضم مجتمع مُغفَل وقمعي ، لقلب منظورات القمع راديكاليا هي، في قاموس البيروقراطية ، حلم طوباوي مستحيل التحقيق . الكن هل نسي هؤلاء البيروقراطيون الذين يحسبون انفسهم علـــى الاشتراكية ، ان الاشتراكية التي حلم بها ماركس ما زالت حتى

الان شيئا تمتلكه الانسانية (البروليتارية) في الحلم وحسبها ان تعيه لكـي تمتلكه في الواقع » ؟ هل نسوا ان الديموقراطيـــة اليونانية المباشرة (حكم الشعب لنفسه بنفسه) ما زالت في كـل مكان مجرد امل ؟ هل تناسوا ان وعود جميع الحضارات القديمة والحديثة ما زالت ، رغم صعود البشر الى القمر ، مجرد وعـود مغدورة ؟

اذا كانت الاشتراكية الماركسيانية ، الديموقراطية اليونانيـة ووعود جميع الحضارات والاديان لم تتحقق حتى الان فهل معنى ذلك انها لن تتحقق ابدا ومن ثم فعلينا ان نعدها في عداد أضغاث الاحلام ونلقي السلاح امام الواقع الكئيب الذي اختزل الحياة الى بعد حيواني وحيد وخفض الانسان الى منزلة دودة الارض ؟ حتى اكثر انبياء السوء البورجوازيين صفاقة لم يعد يجرأ على مثل هذا التأكيد المتشائم الغبي . حتى نكسون لم يجد بدا من الاعتراف الحزين بأن امريكا مقبلة على ثورة لكنه صلّى لكي تكون «عاقلـة» وسلمية !

تقسيم العمل والمراتب

في العائلة البورجوازية ، خلية الاساس للمجتمع التسلطي ، يكيف الطفل ، تضبط رغباته وتقمع عفويته ويهيء نفسيا ليلعب دور المنفذ السلبي للاوامر الفوقية . تتسلم المدرسة البورجوازية الطفل لاتمام ما بدأته مؤسسة العائلة ، لتجهز على ما ظل عنده من الابداعية اليومية ، من العفوية ، من الفضول ، من الاعتداد بالذات، من الرغبة في اباحة كل متاح .

ينتقل هذا الطفل من المدرسة الى المجتمع البورجوازي ليجده عائلة موسعة ومدرسة بلا جدران . فاذا اصبح ثوريا اي اذا وعى

بؤس وضعه وامكانية تغييره راديكاليا فانه يلتجىء الى الذين يفكرون مثله ليضم قدرته على نقد المجتمع القائم الى قدرتهم على نقده ، ليشكل واياهم جمعية مضادة للمجتمع البورجوازي ، جمعية يكونون فيها ، على مثال المجتمع الثوري القادم ، سادة انفسهم : التنظيم الثوري .

في هذا التنظيم كما في المجتمع القادم لا تعود العلاقات الانسانية ، العلاقات الرفاقية قائمة لا على المراتب ولا على التحكم ولا على التلاعب بل على المشاركة الجماعية الفعلية في ابداع نمط حياة يومية جديدة ، على التواصل الانساني ، الرفاقي حقا ، على تحقيق الذات وجميع الرغبات دون شعور بالاثم . وفي هذا التنظيم كما في المجتمع القادم تعني الممارسة ، التي هي بماهيتها خلق وابداع ، ان يعي الثوري كلية ابعاد نشاطه ، ان يعيد تعريف انسانيته ، ان يتمرن على تقرير مصيره بحرية يوميا ، وباستقلال عن كل ما هو مستقل عن ارادته ورغباته الذاتية الثورية طبعا . في مثل هذا التنظيم يتحول العامل والبروليتاري عموما من كائن مفصول عن ملكية وسائل الانتاج ، من انسان لا سلطان له على حياته ، من كائن مغترب ، من اداة سلبية ، يتحول الى ثوري يدرك وضعه ادراكا جدليا ويدرك بالتالي قدرته على امكانية السيطرة عليه مع الطبقة الثورية ، القدرة على خلق نمط حياة يومية جديدة نافية لنمط الحياة اليومية الراهنة الميتة المميتة .

برهنة التنظيم الثوري على امكانية تحقيق تحريضه النظري بالديموقراطية المباشرة والتسيير الذاتي المعمم منذ الان ، وان في اضيق نطاق ، نطاق التنظيم ، هو في ذات الوقت برهان على تماسكه اي على انسجام اقواله مع افعاله وعدم الفصل بين نظريته وممارسته .

الفارق النوعي الحاسم بين التنظيم الثوري الحديث والتنظيم البلشفي القديم ، هو ان التنظيم الحديث يستمد شعره من

المجتمع الثوري القادم والتنظيم البلشفي يستمده من المصنع . هذا المصنع الذي تغنى لينين بدوره «الرائع» في تعليم البروليتاريا طاعة العصا والانضباط الحديدي . ونسي كما لاحظت روزا ان يضيف ايضا دور ثكنة الجيش القيصري في تعليم العمال ـ الجنود الانضباط البقري !

التنظيم ـ المصنع يقوم تماما كالمصنع الرأسمالي على تقسيم العمل . تقسيم العمل ليست له وظيفة انتاجية وحسب بل له ايضا وظيفة سياسية . فهو يحرم العمال من وعي **كلية** عملية الانتاج ودورهم فيها . ويفتت وحدة وعيهم ووحدتهم الطبقية بتقسيمهم الى مراتب ، بعزلهم بعضهم عن بعض بحواجز مصطنعة (تفاوت في الرواتب والرتب) .

ادخال تقسيم العمل والمراتب الى التنظيم تعني اعادة انتاج مصنع آخر اشد رهبة من المصنع الحقيقي ، لان العمال هناك يعون انهم عمال وان المصنع ليس اداة خلاصهم . اما في المصنع الثاني فانهم يخسرون كل شيء بما في ذلك **وعي** حقيقة وضعهم . تقسيم العمل في التنظيم لا يقع الا بين ثورجيين ليست بينهم مساواة فعلية واذن تحكمهم علاقة العامل برب العمل ، علاقة السيد بالعبد ، علاقة الحاكم بالمحكوم في المجتمع الرأسمالي . وهدف هذا التقسيم سياسي لا تقني . هدفه هو الحؤول دون امتلاك المراتب الادنى والقواعد لوعي متماسك وشامل بكلية وضعها، بكلية اهدافها، بوسائل انتصار الطبقة الثورية التي هي انتصارها ذاته: اقامة سلطتها المباشرة والوحيدة .

لا تستطيع البيروقراطية ان تولد ، تنمو وتصبح كلية الحضور والجبروت الا في تقسيم للعمل دقيق الى ابعد الحدود . لانه كلما تعاظم تقسيم العمل داخل التنظيم وكلما ازدادت الاجهزة والمراتب المتخصصة ، المفصولة عن بعضها بعضا بجدار صيني ، كلما اصبح التنظيم جهازا غريبا عن ارادة اعضائه لا فقط منفلتا من رقابتهم

الفعلية بل موجها ضدهم لتدمير ذكائهم ، ابداعهم ، نقديتهم ومبادراتهم . دورهم في هذا التنظيم ليس بأفضل من دور الاديب الحزبي ، كما حدده لينين ، مجرد برغي قابل للاستبدال في آلة الحزب الهائلة .

في التنظيم المصنع ، القاعدة ليس لها الا ان تتكل على منقذ اعلى ، على «اب عبقري لجميع الشعوب» يرى الغابة كلها في حين لا ترى هي الا شجرة هنا واخرى هناك . والقيادة البيروقراطية تقاوم بضراوة كل محاولة لتصدي القاعدة لاحتكارها لكلية السلطة في التنظيم العمالي ، لان معرفتها الشاملة هي ، في مقابل المعرفة الجزئية للقاعدة والمراتب الدنيا ، ضمانة هيمنتها ، اذن ضمانة سيطرتها وبالتالي ضمانة امتيازاتها المعنوية والمادية .

وظيفة الراسمالي ، كما يقول **رأس المال** ، تنزع نزوعا لا يقاوم الى الانفصال عن وظيفة العامل . وكذلك تنزع بنفس القوة وظيفة القائد في التنظيم العمالي المراتبي الى الانفصال عن وظيفة العامل المقـود .

كما ان العامل في المصنع فرضت عليه ادارة المصنع المسؤولة وحدها عن تقسيم العمل ان لا يتقن غير الحركة الجزئية ، الدائبة والدائمة التي فرضت عليه وان لا يرى ابعد من دائرة اختصاصه المختزلة الى اضيق حدودها الممكنة ، فكذلك نرى المناضل في التنظيم البلشفي ـ المصنع ، القائم على تقسيم العمل لا على **دورية تحمل المسؤوليات التي تتيح للثوري الاستمتاع باكثر الوان النشاط الثوري تنوعا** ، مختزلا الى تنفيذ مهام جزئية دائبة ودائمة ، عملية وغالبا ذات طبيعة تقنية : تعليق مناشير ، هتاف ، حراسة ، عمليات انتحارية الخ . لم يشارك في تحديدها ولا في التخطيط لها ولا يدرك بالاحرى مكانها ووظيفتها في **كلية** مهام ووظائف التنظيم وعلاقاتها بالهدف النهائي غير المنفصل عن وسائل تحقيقه ، بل هو لا يعرف على وجه الدقة حتى ما تعنيه فعلا لان

شعار التنظيم : **«نفذ ثم ناقش»** قد اختزله الى جسم منزوع الرأس والقلب ! ولهذا فهو ينجزها ، على نحو ما ينجز التلميذ مهاما فرضها عليه معلم مستبد ، بدون لذة وبدون شغف . بينما الثورة هي اساسا شغف خلاق بتدمير العالم القديم . وليست واجبا دينيا . والتنظيم الذي يحول الثورة من ارادة انسانية متحررة تحرك الثوريين لدك المجتمع الرجعي الذي صادر ارادتهم الى فريضة حزبية - دينية هو بالكنيسة اشبه . والتنظيم الذي يحول الثوري - الانسان الى مناضل - رقم هو بالثكنة اشبه ، بل هو اياها .

المناضل - الرقم هو «محترف للنشاط العملي الذي لا يعي بنفسه لا شكله ولا مضمونه (١) » لا يجد لا الوقت ولا **حتى** الرغبة الذاتية للتوقف لحظة للتساؤل او السؤال عن معنى كده اليومي الغريب عنه بأتم معنى الكلمة . وعندما يطلب ان يعرف **فقط** نوعية المهام التي يمكن ان تسند اليه يسأله التنظيم - الموت - ومعذرة اذا لم اجد تسمية اقوى من ذلك ! - ما اذا كان يقبل ان يموت - في مكان مجهول وفي مهمة مجهولة ومن اجل هدف مشكوك فيه - في أقل من عام (٢) .

فرض تقسيم العمل في الحزب الشيوعي يعني - وهذا ما عناه

---

١ - انظر : **من كومونة باريس الى مجازر عمان** . ص ٦١ ...

٢ - طلب مناضل في احدى التنظيمات «الماركسية اللينينية» من المختص بقيادة العمليات الخارجية الانضمام الى دائرة اختصاصه ورجاه ان يحدد له المهام التي يمكن ان تسند له ليرى ما اذا كان جديرا بانجازها . فأجابه المسؤول بدم بارد وأعصاب هادئة وعينين فقدتا القدرة على التعبير : هل تقبل ان تموت بين ٦ و١٢ شهرا . فكر ٣ ايام ثم بلغني الجواب ! وهكذا يأتي الثوري لمثل هذه التنظيمات ليعيد تعريف انسانيته فيفقد انسانيته وحياته ذاتها !

تاريخيا ـ تحويل مناضلي قاعدة الهرم الحزبي ومراتبه الدنيا الى منفذين عميان ، عاجزين عن الفحص والتقديـر يطبقون بصمت الاموات وبحركة آلة صماء ما يصدر اليهم من اوامر ـ شبه دينية بل فوق ـ دينية تعبر عن ارادة قيادة جماعية بيروقراطية او عن ارادة قائد فرد «ستالين كبير او صغير في مكانه» ، مهمته الاولى هي تصفية الوعي **المستقل** عند اعضاء حزبه لكي يصفيه بعد استلام السلطة ، باسم الطبقة العاملة عند أفراد وبروليتاريا شعبه .

ليس عجيبا ان لا يدرك تروتسكي بعد طرده من الحزب ـ الثكنة او يتظاهر بعدم ادراك الجذور البعيدة لذلك الشعار الرهيب الذي رفعته القيادة البلشفية في سنة ١٩٢٤ في وجه قواعد الحزب وجماهير البروليتاريا : **«التفكير ممنوع ، واتخاذ القرار من اختصاص الرؤساء الذين يفوق ذكاؤهم ذكاءك» ، في ما العمل ،** في المركزية ، في خضوع المراتب الدنيا للعليا ، في عادات الجيش المحارب : «يجب على جميع اعضاء لجنة المصنع (...) ان يحافظوا على قوانين وعادات الجيش المحارب (لينين: ج٦ ص ٢٥٠)» وماذا تقول قيادة جيش بورجوازي لجنوده غير : «التفكير ممنوع ... لانه من اختصاص الرؤساء ...» ؟

لكي لا تتكرر المأساة الستالينية

بدون الرجوع الى التقاليد البلشفية في الحزب ، تقاليد عبادة الاختصاص والاحتراف والقادة (١) لا يمكن فهم **واجتناب** ما اطلق

---

١ ـ عبادة القادة ، الذين اصبحوا بقدرة قادر فوق الطبقة يفكرون ويقررون بالنيابة عنها ؛ هي احدى الطقوس الفلاحية التي استوردتها البيروقراطية من العصور الخوالي ، من عصور الانبياء والاولياء والعرافين . لم تكن شروط الفلاحين ، المشتتين في قرى متباعدة ، الملتصقين بالارض والخاضعين للطبيعة خضوعا مطلقا ، تسمح لهم بالتفكير الجماعي في وضعهم ولا بالعمل الجماعي من اجل خلاصهم ولا بالقيادة الجماعية لنضالهم المستقل. لقد كانت المدن هي التي =

عليه فيما بعد اسم الظاهرة الستالينية التي تتجاوز شخص ستالين وحزبه الى جميع الستالينيين وجميع احزابهم البيروقراطية .

الستالينية هي البلشفية الظافرة وقد تحولت نهائيا الى دين، والحزب البلشفي الحاكم وقد تحول نهائيا الى كنيسة ملحدة ، والامين العام وقد اصبح زعيما فوق النقد وفوق الجميع . لقد تحققت نبوءة تروتسكي ١٩١٤، تروتسكي «مهامنا السياسية» حول نتائج تطبيق **ما العمل؟** : ديكتاتورية الحزب على الشعب، ديكتاتورية اللجنة المركزية على الحزب وديكتاتورية الامين العام على اللجنة المركزية. لكنها ـ وهذا من سخرية التاريخ المريرة ـ تحققت على يد وبمشاركة نبيها نفسه : تروتسكي !

غداة مذبحة كرونشطاط انتصرت ديكتاتورية الحزب على البروليتاريا انتصارا حاسما ، وانتصرت ديكتاتورية اللجنة المركزية على الحزب انتصارا لا يقل حسما اذ الغى لينين وتروتسكي في المؤتمر العاشر (١٩٢١) حرية الاتجاهات والمعارضة داخل الحزب البلشفي ، بعدما الغياها داخل المجتمع كله . وفي المؤتمر الرابع عشر (١٩٢٥) اكتملت المأساة فصولا بانتصار ديكتاتورية الامين العام نصرا أغر على الحزب والشعب معا .

في هذا المؤتمر ، الذي عمّد ستالين «ابا عبقريا للشعب

= تزودهم بين حين وحين بقائد او مغامر يركب حركتهم لتحقيق مصالح طبقة غريبة عنهم . ولكنهم كانوا في كل مرة يبتلعون الطعم لان ذاكرتهم قصيرة . ولانهم كما لاحظ هيجل بصواب «يضعون ثقتهم في القائد اكثر مما يضعونها في المبدأ» . اما البروليتاريا التي انقذتها المدن الصناعية من تشتت الريف ، وتجاوزت ، انطلاقا من واقعها ذاته ، طقوس عبادة القادة فانها اصبحت مفكرا جماعيا وقائدا جماعيا يستعصي على الانقياد .

الروسي» ستضيف صحيفة الحزب «الشيوعي» الفرنسي فيما بعد: «الاب العبقري لجميع الشعوب» ، تقدم القائد البلشفي ليـف كامنيف (أعدمه ستالين بتهمة التجسس والخيانة العظمى فـي ١٩٣٦) بخطاب نقدي لتكريس زعامة ستالين للحزب واصفا نظرية الزعامةبأنها «بورجوازية صغيرة، مثالية ومضادة لروح الماركسية»، لكن المؤتمر المفصل على المقاس واجه تجديف كامنيف بما يجدر ان يواجه به كل تجديف في كنيسة تغلغل فيها الايمان بقداسة وعصمة البابا :

كامنيف : اننا ضد خلق نظرية « الزعيم » . اننا ضد تنصيب « الزعيم » ... لا نستطيع ان نعتبر انه من الطبيعي بل نعتبر انه من المضر بالحزب استمرار وضعية حيث الامانة العامة للحزب تجمع بين يديها السياسة والتنظيم ، وبذلك تحدد سلفا السياسة (ضجيج) ... لقد اقتنعت اخيرا ان الرفيق ستالين غير قادر على القيام بدور الموحّد لقيادة الاركان البلشفية ...

اصوات مختلفة : كذب ! هراء ! هذا كل شيء ! لقد افتضحت اوراقك في اللعب ! (ضجيج) .

تصفيق وفد لينينجراد !

صراخ : لن نسلمك المناصب القيادية ! ستالين ! ستالين ! يهب مندوبو المؤتمر وقوفا تحية لستالين . رعد من التهليل والهتاف . صراخ : هكذا يتوحد الحزب . يجب على قيادة الاركان البلشفية ان تتوحد .

يفدوكيموف ، من مقعده : يحيا الحزب الشيوعي بروسيا ! هورا ! هورا ! يهب المؤتمر واقفا ويصرخ بصوت واحد : هورا . ضجيج . تصفيق عنيف متواصل .

يفدوكيموف ، من مقعده : تحيا اللجنة المركزيـــة لحزبنا ! هورا ! (يهب المندوبون وقوفا ويصرخون : هورا ! **الحزب فوق كل شيء !** نعم الحزب فوق كل شيء ! تصفيق وصراخ : هورا !)

اصوات مختلفة : يحيا الرفيق ستالين !

(تصفيق عنيف متواصل . صراخ : هورا ! ضجيج) .

الرئيس : سكوتا من فضلكم ايها الرفاق. على الرفيق كامنيف ان يتم خطابه .

كامنيف : ... بدات خطابي بهذه الكلمات : نحن ضد نظرية هيمنة فرد ،نحن ضد تنصيب «زعيم» . وبنفس هذه الكلمات انهي خطابي . **(تصفيق وفد لينينجراد)** .

صوت : ماذا تقترح ؟

الرئيس : اقترح ايقاف المناقشة لمدة عشر دقائق .

لعلها اطول عشر دقائق في التاريخ : فقد توقف النقاش فـــي الحزب البلشفي ومؤتمراته دهرا وما يزال !

بعد تكريس عبادة الاحتراف والاختصاص وعبادة الزعيم انتقل الحزب البلشفي ، طوال ليل الستالينية الذي لم ينجل بعد ، الى تكريس عبادة «العلم البروليتاري» الذي ينتجه «عمال الفلسفة» الحزبيون ، الى «الاشتراكية الصحيحة» التي شجبهـــا ماركس وانجلز في **الاديولوجيا الالمانية** بقسوة مستحقة : «ما ان تغدو هذه الحماقة المثالية فعالة حتى يتجلى طابعها الخبيث فـــي وضح النهار : رغبة كهنوتية في السيطرة ، تعصب ديني ، دجل ، رياء تقوي وخدعة تقية» . هذه «الرغبة الكهنوتية في السيطرة» . وهذا التعصب الديني ل «حقائق» «الاشتراكية الصحيحة» كمـــا يعرضها ، حسب قانون العرض والطلب فـــي بورصة الحزب ، مختصو الاديولوجيا بلغت في المعسكر الستاليني شأوا لم يطلـــه خيال ماركس وانجلز وهما يهجوان الاشتراكية الصحيحة فـــي المانيا النصف الاول من القرن التاسع عشر !

في عصر جدانوف الذي نصبه الحزب الستاليني قيصرا على الفن والفكر والادب اتخذت الاشتراكية العلمية او الصحيحة اشكالا اكثر حماقة واغراقا في الجنون الذي لا تسعفنا المعاجم بكلمات مناسبة لوصفه . فقد امر الحزب بغلق متحـــف الانطباعيين . واعتبر الجاز «فنا منحطا» ... اما كيمينوف ، رئيس العلاقات الثقافية مع الخارج ، فقد قدم لملايين القراء الروس في عهـــد ستالين كتابا فنيا هذه بعض جواهره : التكعيبية : «هي احـــد السمات الاكثر تمييزا للفن البورجوازي الرجعي للحقبة الامبريالية وللانسانيته العدوانية» . «من المستحيل التدليل ، عند تحليل الفن البورجوازي الحديث ، على ما اذا كانت احدى اللوحات هي من انتاج احد نزلاء مستشفى المجانين أو من انتاج فنان يتصنع الجنون ويقلد المجانين ليثري (...) سيكتشف ابناء الاجيـــال القادمة آثار بيكاسو ، سارتر ، هنري مور ، بول كلي ... ومن لف لفهم من الفنانين الآخرين . والاصحاء عقليا من ابناء الحقبة القادمة لن يطلبوا من النقاد تحليل آثار هؤلاء الفنانين بل سيطلبونه من اطباء الامراض العقلية » (١) .

اما على جبهة العلوم الفزيائية فقد شن جدانوف حربا عوانا على علماء الذرة الذين قدموا تصورا للمادة مناقضا للتصور الذي قدمه عنها «عالم الذرة : لينين» في كتابه «المادية والتجريبيـــة النقدية» وعلى «الحيل الكانتية ، حيل الفزيائيين الذريين المعاصرين التي تؤدي بهم الى بحوث لا تقدم المادة الا على انها مجموعة مـــن

---

١ ـ النقافتان : السوفياتية والغربية . موسكو ١٩٤٩ . ولهذا السبب يحال الكتاب غير المتثلين الى اليوم على سجون المستشفيات العقلية ! ورغم انه لا شيء يجمعنا مع المؤمن سولجانتيسن الا اننا نقدر فيه شجاعة رجل يقاوم وحيدا نظاما ليس الا الاضطهاد وقد تجسد نظاما .

التموجات والدعوات الشيطانية الاخرى Diablerieas » (١) . اما في **القاموس الفلسفي الصغير** (الذي طبع منه في ١٩٥٢ مليـون و ٢٠٠ الف نسخة) تأليف الشهير روزانتال ويو دين فان مختصي الحزب من «عمال الفلسفة» نجحوا في دفع الاشتراكية الستالينية الصحيحة ألى ذرى من الحماقة المجنونة لم يسبق لها نظير: «نظرية انشتاين النسبية هي تصور رجعي ومعاد للعلم». اما المسالـم برتراند راسل الذيدعاه لينين ضيفا على روسيا وبدأ خروتشوف يراسله بانتظام منذ ١٩٥٤ فهو في **القاموس الفلسفي** ليس الا : «**محرضا** على حرب عالمية جديدة (...) وأحـد الاديولوجيين الاكثر ضراوة في الدعوة الى التجهيلية»(٢) . اما الستاليني المستنير واللاحزبي سارتر فهو «داعية الخيانة الكوسموبوليتية» (٣) . ان سارتر ، كامو ومن لف لفهما يبذلان وسعهما لتلطيخ النضال ضد الفاشية ، وينشران العدمية الفكرية والاخلاقية ويحرضان علـى احتقار العلم والاخلاق» . الوجودية : «فلسفة معادية للانسانية ومنحطة» . الفرويدية : «تيـار مثالي ورجعـي (...) اذ ان

---

١ ــ انظر كتابه : حول الادب والفلسفة والموسيقـى . باريس ١٩٥٠ ــبالفرنسيةــ . وقد ترجمته دار نشر بيكين مؤخرا بالعربية . والجدير بالذكر ان العالمين الذريين الروسيين : كابيتسا ولانداو لوحقا بوليسيا من اجلهرطقتهما الذريـة !

٢ ــ نعل نقـد راسل للكنيسة من افضل ما كتب منذ الثلاثينات حتى الان!

٣ ــ اعتبرت الاحزاب الماركسية اللينينية الكوسموبوليتية عارا وسبة. اما عند ماركس فقد استعملها مرارا كمرادف للاممية : «القوة الكوسموبوليتيـة للبروليتاريا» ومجد الثوريين البولانديين كـ «جنود الثـورة الكوسموبوليتين» (ماركس : ج١٨ ص ٤٣٩ و٥٧٤ . انظر ج١ من هذا الكتاب) واستخدمها فـي **الحرب الاهلية** بمعنى العالمية !

السيكولوجيا العلمية تنفي نفيا قاطعا وجود «العقل الباطـــن» الفرويدي (...) لقد استخدم الفاشيون الالمان الفرويدية لتبرير تصرفاتهم الحاقدة على الانسانية (...) الفرويدية تشكل احـــد الاسلحة الاديولوجية بيد الامبريالية الفاشية الامريكية ...»

على هذا النحو «العلمي» جدا ! و«الموضوعي» بشكل لا يصدق! كان المختصون في الحزب البلشفي وما زالوا «ينورون» جماهير الحزب والشعب ! ويدخلون اليها «الوعي الصحيح» من خارجها ! لانه بغير هذه «التوعية» الفريدة وذاك «التنوير» الذي لا يقل تفردا لا تستطيع قيادة الحزب البيروقراطي او بالاصح قائده : ستالينه، خروتشوفه او ماوه ان تروض نقدية اعضاء الحزب وابنـــاء الشعب ليصبحوا على اكمل استعداد نفسي لتصديق «حقائق» القائد العر"اف والتعليمات الآمرة لمن قلدهم نتفا من سلطته المطلقة، والمحافظة عليها محافظة السذج على تعاليم وفروض دينهم . على غرار ما فعلت الكنيسة الكاثوليكية في عز القرون الوسطى عمد الحزب البلشفي الستاليني في عز العصر الحديث ، لكي يرســخ سلطته في أعماق اعضائه ورعاياه ، الى اغتيال فكر اعضائه ورعاياه فاستل من رؤوسهم جرثومة التفكير النقدي واستل من قلوبهـــم مكمن النزوة . لقد حولهم الى ارقام، الى خراف في قطيع يسمعون فيطيعون ، الى رعايا كلما دعاهم ملكهم المفدى الى ملمة او مهزلة قالوا آمين . انهم لا يفكرون بأنفسهم بل بالجهاز . ولا يشعرون بالخجل ، لان الشعور بالخجل عاطفة انسانية ثورية جُر"دوا منها، امام ترديد الحماقات والاكاذيب المتضاربة طالما ان الجهاز امرهم بذلك . والجهاز ، دائما على حق لانه يتكلم ، كبابا الفاتيكان ، لكن باسم التاريخ المتأله وباسم البروليتاريا المجردة !

ستالين ــ مثلا ومثلا فقط ! ــ ظل «الاب العبقري لجميـــع الشعوب» ٣٢ عاما او تزيد حتى اذا ما اعلن خروتشوف في ١٩٥٦ بانه لم يكن «الا مجرما سفاكا» ، لم «يكن الا دملا سرطانيا علـى

جسم سليم» (كما لو كان لدمل سرطاني ان يظهر على جسم لم يدب منه العطب في الصميم !) حتى مسح اهل الكهف (اهل الحزب) عيونهم من نوم طويل وانطلقوا يشتمون «عبادة الشخصيـــــة» ويترحمون على«شياطين الامس» كامنييف وبوخارين وريازانوف.. الذين قتلوا بغير جريرة ، ويردون الاعتبار لالوف المناضلين بعد ما اصبحوا ترابا في التراب ! ويسبحون بحمد خروتشوف «الذي اعاد التقاليد اللينينية الى حزب لينين العظيم» (لومانيتي ، جريدة الحزب «الشيوعي» الفرنسي) . لكن ذات مساء من سنة ١٩٦٤ اطيح بخروتشوف لانه هو الآخر «مارس عبادة الشخصيـــــة» و«خرق تماما كسلفه التقاليد اللينينية» ومن جديد وضعت نفس الجريدة نفس الاسطوانة لتسمعها لقرائها الذين طَهّروا من شيطان الذاكرة !

وكتاب ليو شاوشي : **كيف تكون شيوعيا جيدا ؟** ، الــــذي احتل في الحزب الشيوعي الصيني طوال ٢٨ عاما مكانة الانجيل في الكنيسة الارثوذكسية واثنى عليه ماو نفسه جم الثناء ، حتى اذا جاءت سنة ١٩٦٧ اكتشف نفس الحزب انه كتاب كتب «لاعادة الرأسمالية الى الصين» وأمر لين بياو ، قائد الثورة الثقافيـــة بحرقه» ليكتشف نفس الحزب في ١٩٧١ ان لين بياو لم يكن هو الآخر الا «خائنا وعميلا ذا وجهين» والبقية تأتي ...

وفي كل مرة لا يستطيع اعضاء الحزب الذيــن لا يعرفون الا شظايا من **الحقيقة الرسمية** ، بينما تمتاز القيادة عليهم بان مــــن حقها واختصاصها ان تعرف كل شيء ، الا ان يقولوا ما قيل لهم كما تقول الببغاء . لانهم ، بمنطق تقسيم العمل ، لا يستطيعون ، بماهيتهم ، بمنزلتهم المراتبية الدنيا ، اضافة جديد للحزب لـــم تبادر اليه القيادة ولا ان يكتشفوا حقيقة غير الحقيقة الرسمية التي قدمتها اليهم القيادة . ليس من حقهم ان يحرموا ستالين او يعيدوا له الاعتبار لان ذلك بكل بساطة ليس من اختصاصهم انما هو من

اختصاص القيادة !

انها لردة حتى عن «عصر التنوير» البورجوازي الذي اشاد به انجلز «كمقدمة لتحرير التفكير الانساني من تجهيلية القرون الوسطى» وعودة كاملة لا الى تجهيلية القرون الوسطى وحسب بل والى جاهلية العصور الخوالي ، الى البربرية في اكثر أشكالها اكتمالا : في أكثر أشكالها احتقارا لذكاء الانسان بل تدميرا لذكاء الانسان وللانسان ذاته .

ما ان غدت الماركسية اللينينية دينا له كنيسته القومية : الحزب ، مسيحه : لينين ، وبأباه : ستالين حتى اكتسب كل خصائص الدين وعلى رأسها العصمة والاصطفاء : الحزب لا يخطىء ولذا فهو دائما على حق . واعضاؤه هم «شعب الله المختار» ، هم خير أمة اخرجت للناس : «اننا نحن الشيوعيين بشر من طينة فريدة ، لم يسبق لنا مثيل . لا يوجد في الدنيا ما هو اكثر سموا من لقب عضو في الحزب الشيوعي ، وليس بامكان اي كان ان يكون عضوا في مثل هذا الحزب» (ستالين : تأبين لينين) .

لم تكد تمضي ١٣ عاما حتى كان ستالين قد اعدم جميع قادة البلاشفة القدامى الذين لم يكونوا على حد قول نفس ستالين الا : «حفنة من الجواسيس ، القتلة والمخربين الزاحفين على بطونهم امام الاجنبي والمنبطحين بذلة امام اقل موظف اجنبي وعلى أهبة الاستعداد ليكونوا جواسيس له» (١) . حقا ليس بامكان اي كان ان

---

١ ـ لقد تأكد انه من بين الـ ١٣٩ ، اعضاء اللجنة المركزية الذين انتخبوا في المؤتمر السابع عشر اعتقل منهم وأعدم رميا بالرصاص ٧٠ بالمئة ا ي٩٨ عضوا وجلهم بين سنة ١٩٣٧ و١٩٣٨ (التقرير السري الذي قدمه خروشوف للمؤتمر العشرين ١٩٥٦) .

يكون عضوا في مثل هذا الحزب الذي اتضح لستالين ان ٩٩ بالمئة من قادته على اهبة ان يكونوا جواسيس ! ولا ان يكون شيوعيا من مثل هذه الطينة الفريدة في قذارتها !

لم تكد تمضي ٢٨ عاما على خطبة التأبين حتى كان ستالين قد أباد ٢٠ مليونا من ابناء شعوب الاتحاد السوفييتي بينهم بضع مئات الآلاف من اعضاء حزبه انفسهم .

التوتاليتارية البيروقراطية تماما كالتوتاليتاريـــة اللاهوتية لا يمكن ان تتسامح مع استقلال أقل مظهر من مظاهر الحياة اليومية عنها ، ولا ان تسمح لفرد او مجموعة لترى واقعها الفعلي بعين غير العين الرسمية . هذه العين التي ترى خافيات الصدور وتـرى مجاهل الماضي وآفاق المستقبل بوضوح مساو لنفسه ابدا .

لكن ديكتاتورية البيروقراطية هي رسميا ديكتاتورية غـــير مشخصة . انها ديكتاتورية الجهاز : ديكتاتورية الحزب المؤله .

تأليه الحزب البلشفي واعتباره حارسا ليليا على جميع مظاهر النشاط الفردي والجماعي هو المظلة التي حمت بها البيروقراطية الدموية نفسها . فكل شيء قابل للرقابة وخاضع لها فعلا بما في ذلك النثر والشعر والرسم والموسيقى . وعقل الفرد عاملا كان ام فيلسوفا يجب ان يتلاشى امام عقل الحزب الكلي المعرفة . الحزب هو الذي يخطط لملايين البشر ، من وراء ظهرهم ، نمط حياتهـم وتفاصيل استخدام وقتهم ، وهو الذي يقرر الخطة الاقتصادية ، وهو الذي يقرر ، دون اعتراض ، اي مدرسة ادبية او فلسفية يجب ان تسود وأي الاتجاهات الفنية والفكرية التي يجب ان تحرم وتباد ، وهو وحده ، وحسب متطلبات متغيرات السياسة الداخلية والخارجية ، الذي يكتب تاريخ البلاد وتاريخ العالم على هواه . فالتاريخ لم يعد نتاج المادية التاريخية بل اصبح نتاج اهواء الحزب وتاكتيكاته الآنية ، والوقائع نفسها كفت امام عناد الحزب عن ان تكون عنيدة . والعلم كف عن كونه الحركة التـي يصنعها الشعب

بنفسه بل اصبح طقوسا وقوانين ثابتة ثبوت الرواسي ومسطورة في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . والحقيقة كفت هي الاخرى عن كونها واقعا او توقعا قابلا للمعرفة موضوعيا بل غدت شيئا آخر تماما : كل ما تأمر به ، تعلنه او تؤكده قيادة الحزب **القائمة** في وقت ما ولهدف ما لا يحق لغيرها ان يسألها عنه او حتى يتساءل عنه بينه وبين نفسه لان هذه الخطيئة سماها ماو الاغتياب : «التحدث عن الحزب والرفاق من وراء ظهر الحزب والرفاق» . لقد تلاشت الفوارق الموضوعية بين الوهم والواقع ، بين الصحيح والخاطىء . فالحزب البلشفي تقمص ، في قلب الحضارة الصناعية ، دور الساحر القديم في الحضارات الزراعية، ذلك الساحر الذي كان يحول الحبل الى حية تسعى ، وللحزب البلشفي نفس القدرة الاسطورية على التلاعب بالحقائق والوقائع كما يشاء وكيفما يشاء ومتى يشاء . فكل ما هو واقعي عقلاني وكل ما هو عقلاني واقعي بشرط واحد وحيد : اعلان قيادة الحزب لذلك مهما كانت شهادة الواقع اللاحزبي ، الواقع الموضوعي والتاريخي معاكسة لها ، لانها هي الحجة على التاريخ وليس للتاريخ عليها من سلطان . بل انه كلما امعن التاريخ في تحديها مكذبا ادعاءاتها واحدا بعد واحد امعنت هي في توكيد أكاذيبها برغم انف الواقع التاريخي .

الحزب هو حارس نقاوة «العلم الماركسي اللينيني» ، هذا «العلم» الكلي الجبروت حقيقة ومجازا لانه كلي السلطة وتحميه حراب البوليس. اعتبار الحزب حارس نقاوة «العلم» الماركسي اللينيني هو التبرير الايدولوجي لجميع الحماقات الدموية للبيروقراطية الستالينية . واعتباره كذلك ليس بدعة ستالينية محضة ، كما يحلو للستالينيين النقديين الى حد ما ان يزعموا ، بل هو بدعة لينينية : اعتبار الحزب معلم البروليتاريا الاول ، مستودع وعيها الثوري ومعرفتها الوحيدةالصحيحة هي الارضيةالايدولوجية

التي ترعرعت عليها الاديولوجيا الستالينية ، وهي بلا جدال ارضية اديولوجية لينينية .

ادانة التنظيم الثوري الجديد للستالينية ليست منفصلة عن ادانة اللينينية التي تهـــول من دور الحزب وتهـــون من دور البروليتاريا ، والتي ترتفع بالجهاز الى مرتبة متعالية وتنحـــدر بالبروليتاري ، بالانسان الى الدرك الاسفل . الحزبي المثالي ، بمقياس اللينينية ، ليس ذلك الانسان الانســـــي الذي يتميز بالتلقائية ، بالمبادرة ، بحرارة العاطفة وبالاستقلال الفكري، بل هو ذلك المناضل **الرقم** الذي يتميز بالانضباط الحديدي ، بالتنفيــذ الآلي ، بالتخلي غير المشروط عن كل استقلال وعاطفة وصبوات فرديــة .

لكي لا تكرر المأساة الستالينية ملهاة عربية ، على التنظيـــم الثوري الجديد ان يشجب منذ الان ارضيتها المادية وعفشهـــا الاديولوجي : امكانية نجاح الثورة الاشتراكية واستمرارها في بلد واحد ، «العلم» الماركسي اللينيني ، تأليه الحزب الواحد ، عبادة القادة واعادة بناء آلة الدولة التي فككتها الثورة .

لان بناء الاشتراكية في بلــد واحد ، مطـــوق بالضرورة بالرأسمالية ، كان المبرر الاساسي الــذي مكن التوتاليتاريـــة الستالينية من تشديد كلابة قمعها واستغلالها واخضاعالبروليتاريا اخضاعا كاملا اقتصاديا وسياسيا للدكتاتورية البيروقراطيـــة ، ومكنها من مبرر سهل التصديق لتنمية اجهزة القمع الملازمة لدولة الاستبداد البيروقراطي الشرقي الحديث الى درجة قصوى لـــم يسبق لها مثيل ، ومكنها اخيرا من تحويل هدف الانتاج من اشباع حاجات المنتجين المباشرين كما يحددها المنتجون المباشرون بأنفسهم الى اشباع حاجات بيروقراطية الحزب ـ الدولة .

ولان «العلم» الماركسي اللينيني ، بصفته تلك ، يرفـــض الاعتراض والمعارضة ويرفض بالتالي تعدد الآراء . لانه اذا كان هناك علمان ، فان احدهما سيكون في السلطة والثاني لن يجــد

خارج السجن مكانا !

ولان تأليه الحزب البلشفي ، اي اقرار مبدأ الحزب الواحد هو البيان رقم ١ للردة البيروقراطية التوتاليتارية : «في بلادنا ايضا يمكن ان توجد احزاب اخرى . لكن دونكم المبدأ الجوهري الذي يميزنا عن الغرب : الوضع الوحيد الممكن هو التالي : حزب واحد سائد وباقي الاحزاب في السجن» (بوخارين ١٣ نوفمبر ١٩٢٧) . «يمكن ، تحت ديكتاتورية البروليتاريا ، ان يوجد حزبان ، ثلاثة او حتى اربعة لكن بشرط واحد فقط : احدهما في السلطة والآخرون في السجن . ومن لم يفهم هذا لم يفهم ذرة من جوهر ديكتاتورية البروليتاريا ، من جوهر ديكتاتورية الحزب البلشفي» (البرافدا ١٩ نوفمبر ١٩٢٧) .

وكل اعتراض او معارضة لديكتاتورية البروليتاريا المختزلة الى ديكتاتورية الحزب البلشفي هرطقة لا يمكن ان تبقى بدون عقاب مستحق من محاكم تفتيش الحزب «الشيوعي» الحاكم .

ولانه طالما ظل هناك قادة فلا بد ان يتصرفوا كقادة اي كمتسلطين . ولهذا ففي التنظيم الماركسي الجديد ليس هناك وجود سادة لانه ليس فيه عبيد لان الجميع فيه، كما سيكون الجميع في المجتمع الثوري القادم ، سادة انفسهم .

ولانه ، اخيرا ، اذا اعيد بناء الدولة التي قوضتها الثورة ، فان بناءها لا يمكن ان يقوم الا على انقاض الثورة . لانه كما ان وجود الثورة ووجود الحرية امران متلازمان ، فان «وجود الدولة ووجود الرق امران متلازمان» (ماركس) .

دور المنظرين المعزولين

«يتضح اكثر فاكثر ان المهاجرين (الثوريين) يشكلون مؤسسة على المرء ان ينفصل عنها كليا ، مقتصرا على دور الكاتب المستقل الذي يزدري كل الازدراء الحزب الثوري المزعوم والا فانه سيغدو بالتأكيد مجنونا ، حمارا او وغدا سوقيا » .

من رسالة انجلز الى ماركس (١٢-٢-١٨٥١)

بالتأكيد لا يمكن انجاز نقد نظري دقيق للمجتمع المعاصر بأقصى قدر من **الفعالية** التاريخية الا اذا كان حصيلة جهد **جماعي** منظم . لكن لا شك ايضا في ان الانخراط في تنظيم ماركسي لا يقوم على الديموقراطية المباشرة ويقوم على تقسيم العمل لا يعني ، على ضوء التجربة التاريخية المعاشة وفي شروط وعي حقبتنا ونوعية المهام التي تطرحها فعليا ، ابتعادا واعيا عن سيرورة الامكانية الثورية

الراهنة عالميا وحسب ، بل يعني الانحياز الصريح لمعسكر الثورة المضادة . لقد واجه ماركس وانجلز في عصرهما وضعا مشابها الى حد ما وجدا حلا له في الاقتصار على دور المنظرين المعزولين الذي أسماه انجلز في رسالته دور **«الكاتب المستقل»** لكي لا يغــــدو الانسان «مجنونا ، حمارا او وغدا» بيروقراطيا . طالما لم تنضج ضرورة التنظيم الماركسي الحديث في وعي الثوريين **الامميين** ، فان الاقتصار على دور المنظّر الاممي الذي يواجه وحيدا ، كما واجه ماركس وانجلز ، العالم الرأسمالي بجميع فرقه وجميــــع احزابه ، في انتظار ان ينضم اليهمنظرون ثوريون من جميع البلدان لممارسة النقد النظري ، هذه الممارسة التي لن تتوقف قبــل ان تتدخل الطبقة الثورية حتى النهاية لتضع بنقدها العملي الفاصل نهاية منتظرة لممارسة النقد النظري ، هو **الموقف الراديكالي** الممكن الوحيــد .

دور المنظّر لا بديل له ، سواء كان منظرا ثوريا معـــزولا او منظّرا في تنظيم طليعي منفصل عن الجماهير اذن معزول عنها ، لا بديل له . لكنه ليس صانع التاريخ . لان التاريخ يحركه صراع الطبقات لا اختراع النظريات . النظرية هي ، عندما تبلغ اقصى تماسكها ، تعبير عن الصراع الطبقي الفعلي الذي تدور رحاه امام عيون المنظّرين وليس العكس . حتى في العصور الخوالي حيث كانت وسائل الانتاج بدائية جدا ، والطبقـــات لم تتبلور بعد ، والبورجوازية والبروليتاريا لم تظهرا بعد ، والانبياء يفوقون جميع زعماء عالمنا عددا وجرأة ، كانت الايديولوجيا المطعمة بالعصمــة المتعالية لا تلعب **عموما** الا دور التغطية والتبرير البعديين لمصالح فرقاء الصراع **المادية** والتي كثيرا وغالبا ما كانت وضيعة جدا . انطلاقا من هذه الحقيقة التاريخية ليس في قدرة المنظّرين ، حتى ولو كانت نواياهم الخفية هي ان يلعبوا دور الانبياء القدماء متوجين بتاج هيبتهم ، ان يحركوا قاطرة التاريخ بعزائمهم وتمائمهم . ما ان

تتأكد هذه الحقيقة حتى يتأكد بنفس الضربة دور المنظّرين الثوري: تقديم تحليل لا ينقصه لا التماسك ولا الراديكالية ولا الشمول للأزمة الحقيقية القائمة في المجتمع المعاصر غربا وشرقا : **مصادرة** ارادة ملايين البشر ، أمما ، طبقات وأفرادا ، في تقرير مصيرهم في الحياة بالطريقة التي يفضلونها بعيدا عن كل توجيه ظاهر أو خفي من اي مصدر اعلى من ارادتهم ، **وشل** ارادتهم لكي لا يغيروا الشروط الاجتماعية والعلاقات الطبقية المفروضة عليهم برغم انف التقدم المادي الذي جعلها بالية في العالم الصناعي وبالتالي في العالم ،**والافقار** المتزايد للعالم الثالث الخاضع لنهب مزدوج : نهب البورجوازيات والبيروقراطيات الدولية ونهب طبقاته السائدة ، السائر جنبا لجنب مع الافقار المتزايد لنوعية الحياة اليومية في العالم الصناعي واذن في العالم كله، **وسيطرة** التحاريم البوليسية التي فاقت عددا وبشاعة جميع التحاريم في جميع الاساطير : اذ ان الراسمالية ما ان اعلنت خلع السماء في كل مكان حتى سارعت الى تنصيب التحاريم في كل مكان .

الى تحليل جميع مظاهر الازمة الراهنة على صعيد الحياة اليومية والاقتصادية في **كل واحد** والتحريض بالتحرر من الاستعمار الجديد حقا لحياة جميع الشعوب والطبقات البروليتارية والافراد الذي تمارسه اقلية تسيطر سيطرة مطلقة على مراكز اتخاذ القرار في كل دولة رأسمالية ، يقدم المنظرون المعزولون تعريفا شاملا جغرافيا وطبقيا للقوى الثورية فعلا القادرة على حل الازمة الشاملة اي حل الشروط والطبقات الاجتماعية التي ولّدتها ، القادرة على آخر تغيير لآخر تنظيم قسري للحياة الانسانية ، والقادرة اخيرا على اكتشاف اشكال التنظيم الجديد للحرية المستعادة في المجتمع الانساني القادم ، تنظيما يمنع بخلوه خلوا كاملا من علاقة السيد بالعبد كل ردة الى العهد البائد . كما يترجمون ويبلورون الرغبة في التغيير الشامل التي تتلجلج في

صدور الملايين حتى تغدو اكثر وضوحـــا واستنفارا للمعنيين انفسـهم . وفي نفس الوقت يقدمون لها العناصر والادوات المعرفية (رأس المال مثلا (١)) الضرورية لتحقيق افضل ادراك للخلـــل الاساسي في المجتمع المعاصر وتحديد نقاط ضعفه المركزية التي ينبغي ان توجه له منها الضربة القاضية . وعلى هؤلاء المنظّريـــن المعزولين ان يوضحوا منذ الان لبروليتاريا بلدانهم وجميع البلدان، التي ما زالت مستعمرة بمنوعات ايديولوجيا الطبقات السائدة التي تروجها وسائل الاعلام الامبريالية ، ما هو واضح دون حاجة الى توضيح بالنسبة لبروليتاريا معسكر الراسماليـــة البيروقراطية : حقيقة انه في الاشتراكية لا معنى لتغيير علاقات الانتاج القديمة ان لم يكن يعني تغيير مركز اتخاذ القرار من الاقلية التي تنتج الاوامر الى الاكثرية التي تنتج ثروة المجتمع . وان المطلوب في الاشتراكية هو تغيير علاقات الانتاج القائمة على علاقة العامل برب العمل ، على بيع سلعة قوة العمل ، على استمرار قانون القيمة ، وليس تغيير العلاقات الحقوقية للملكية الراسمالية ، بل القضاء على الراسمال نفسه سواء اكان فرديا ام جماعيا . وان الثورة الاشتراكية ليست الثورة البيروقراطية اي ليست الاعادة الموسعة لانتاج العالم القديم، بل هي الثورة التي تقضي فيها وبها البروليتاريا على نفسهـــا كبروليتاريا لتتحد بحرية مع جميع الناس المتحررين في منظمات العمال الاحرار الذين لا سلطان لهم على احد ولا سلطان لاحـــد عليهـم .

---

١ ـ كان المنظّر المعزول ماركس وهو يمارس بلورة النظرية في كتابه رأس‌المال بالمتحف البريطاني ، الذي يدخله في الساعة التاسعة صباحا ليغادره في الساعة التاسعة ليلا، اكثر قدرة على التحريض بتغيير العالم من جميع الفرق والاحزاب التي كانت تمارس الركض الحيواني في المدن والارياف وما زالت !

المنظرون هم طليعة المثقفين النقديين. وهؤلاء المثقفون يتزايدون عددا وراديكالية . فكما زودت البورجوازية دائما معسكر البروليتاريا بقطاعات واسعة من الحرفيين ، صغار التجار ، صغار الفلاحين .. فانها اليوم ، وقد اقترب صراع الطبقات من اللحظة الحاسمة فعلا ، وباتت ازمتها اكثر شمولا ، واستحكاما ، بدأت تزود بكمية اكبر ونوعية افضل ووتيرة اسرع معسكر نفاتها ، معسكر البروليتاريا الثورية التي تمتلك زمام المستقبل ، بالمثقفين الذين ارتفعوا الى مستوى الادراك النظري للمسيرة العامة للحركة التاريخية .

قديما كان المثقفون هم عادة مبرري النظام القائم ، منتجي ايديولوجيته وسدنة مؤسسات صيانته . لكن الشروط الجديدة التي خلقتها الرأسمالية التي اكدحت العالم كله بما فيه المثقفين وحولت العدد الاكبر منهم الى بروليتاريين لا فقط بمعنى انهم لا سلطان لهم على شروط ، معنى ومنتوج نشاطهم وحسب بل حتى بمعنى انهم يبيعون قوة عملهم الذهنية اليها . وهكذا حققت الرأسمالية الخاصة والدولوية لقاء شغيلة الفكر بشغيلة اليد . وبقي على البروليتاريا الجديدة ان تحقق لقاء النقد النظري بالنقد العملي للطبقة التي وحدتهم في شروط حياة مملة ومذلة .

في العالم الصناعي اخضعت الطبقة السائدة شغيلة اليد وشغيلة الفكر لديكتاتورية الانتاج وديكتاتورية الاستهلاك مع اختلاف في الدرجة لا في النوع . اما في العالم المتأخر صناعيا فقد عجز اقتصاده المتخلف عن اخضاع جميع السكان لديكتاتورية الانتاج ، لانه لا يكاد ينتج شيئا بنفسه ، ولا بالاحرى لديكتاتورية استهلاك السلع لانه يمسك بهم على حافة المجاعة ، فأخضعهم لديكتاتورية البوليس واستهلاك الخطب التي بات ما فيها من كذب يصدم حتى اكثر المثقفين ميلا الى التصالح بله الى التواطؤ مع الرأسماليات الاقل غباء (الازمة الراهنة بين المثقفين السينيجاليين

وحكومتهم من بين افضل الادلة على صحة هذا التحليل . فقد وضع سينجور في السجن مثقفا ظل لعدة سنوات يعمل عنده كمستشار مجاني بالمراسلة !) . لكن الراسماليات المتخلفة باتت تصادر حتى الحد الادنى من نقدية المثقفين الميالين للتصالح ، لان وضعها المتأزم جعلها تخشى **بحساسية** من اي اعتراض او معارضة جزئية قد تنفلت من حدودها لتحرك نقدا من نوع وعيار آخر ، اكثر راديكالية وشمولا عند طبقات اخرى ما زالت لا تستطيع اساسا اقناعها بغير هراوي البوليس وسلاح الدرك .

لم يعد امام الثقافة ـ في حقبة تعميم شرط البروليتاريا على اوسع جماهير المثقفين ، ووعي اكثر المثقفين المعية وراديكالية لافلاس الثقافة التي تحولت الى سلعة تباع وتشترى ، الى ديكور لمقابر الاحياء ، وكفت ، في عصر باتت فيه امكانية تحقيق الفن والفلسفة راهنة ، عن الابداع الحق والتجديد الحق ـ الا هذا الخيار : اما الاندماج دون احتجاج بعالم السلعة وحارسها : البوليس كخادم لا كند . واما الانتقال الجذري الى جبهة اعدائه التاريخيين وعلى رأسهم البروليتاريا . وهذا ما بدات تمارسه فعلا.

هذا الانتقال من جبهة الى اخرى ترافق بظاهرة جديدة : قرف شباب البروليتاريا في العالم الصناعي من العمل المغترب وقرف الفنانين الموهوبين من العمل الفني الذي لا يقل هو الآخر اغترابا لانفصاله عن الحياة الفعلية وتبريره لزيفها .

تحقير العمل المغترب وتحقير الفن المصعّد هما العنوانان الكبيران **للبيان الشيوعي** الجديد الذي تستعد البروليتاريا الجديدة لكتابته على ارض الواقع : ارض الشوارع المنتفضة ، اماكن العمل المحتلة والمسيرة ذاتيا والمتاحف المحطمة .

اندماج المثقفين النقديين بالبروليتاريين يفترض انفصالهم عن البورجوازيين والبيروقراطيين انفصالا معلنا قولا ومعاشا فعلا . وذلك يعني ، كحد ادنى ، مقاطعة وسائل قمعهم الاديولوجي ،

تحويل نمط الحياة الرأسمالية القائم على علاقة السيد بالعبد ابتداء من العائلة وانتهاء بالمصنع ومرورا بالمدرسة والدولة الى فضيحة يومية ، تنظير وبالتالي تجذير الفعل المستقل للجماهير الثورية باعطائه مدلوله الكامل ونقد شوائبه ، وكشف المثقفين المتعاونين مع طبقات العالم القديم الذين قلدوا انفسهم مهمة جعل الاستغلال مقبولا والاغتراب مريحا ، كشفهم اساسا لانفسهم ليشعروا بالعار منها وكشفهم للآخرين تخريبا لمهمة نشر الوعي الزائف وتخليف الوعي بالازمة القائمة وترويض النقدية الشعبية ووضع الزهور على الاغلال لكي تصبح اكثر احتمالا، التي اضطلعوا بها ونشرا لروح الرفض، رفض الاستمرار في تمثيل المسرحية بين صفوفهم او على الاقل تثبيطا لحماسهم وارباكا لهم .

وكما تبلورت النظرية الماركسية انطلاقا من نقد الفلسفة في شتاء عمرها ، فان النظرية البروليتارية الجديدة بدأت تتبلور انطلاقا من نقد الفن المصعّد الذي يمر بأزمته الاخيرة ، من نقد الحضارة برمتها ، هذه الحضارة التي منعها نمط اللاحياة السائد في العالم من الوفاء بوعدها التاريخي في حقبة بات فيها الوفاء ممكنا وسهلا . لتسريع تحقيق هذه الامكانية بات لزاما على الفكر الثوري المعاصر ان ينشط لاعادة تنظيف وتنظيم السلاح النظري والسلاح العملي للحركة التاريخية الجديدة .

عدن ٢٨ يوليو ١٩٧٣

ملف : « ما العمل ؟ »

رسالة بوترسوف الى لينين

٢٢ مارس ١٩٠٢

لقد قرأت ذلك الكتيب مرتين متتاليتين ، من أوله الى آخره ، ولا يسعني الا ان أهنىء مؤلفه . ان الانطباع العام الذي يتركـــه ـ رغم السرعة الواضحة التي كتب بها والتي اشار اليها المؤلـــف نفسه ـ جيد جدا . عند قراءته ، كنت أشعر ان المؤلف قد فكّر مليا ونظر في تخطيطه طويلا . اني لا أشك في ان هذا الكتـــاب سوف ينال نجاحا كبيرا وسوف يكون له دور في التنظيم . وليس لي الا ملاحظة وحيدة : لقد أفرط المؤلف ، لسوء الحظ ، فـــي تكثيف الفصول الاولى ، وفي دعوته لمكافحة « العفوية » بالـــغ في دور «الوعي» ، لغايات **عملية وسجالية** . « ان الحركة العماليـــة العفوية هي التريد ـ يونيونية » . يبدو لي أن الامر ليس على هذا النحو ولم يكن دائما هكذا ، بينما كانت الحركة العمالية لم تأخـذ بعد الا أشكالا بدائية ، كانت الافكار الشيوعية قد بدأت تجول في رؤوس قادتها (وليس في رؤوس قادتها فحسب) . ان المسألة لم تعد تتعلق بالنضال « من أجل زيادة في الاجور بنسبة ١ بالمئة » ، بل من أجل ازالة الوضع الراهن الذي يشعرون نحوه بكره عميق ،

انك تفرط في التأكيد على ما هو « آت من الخارج » ، لا شك أن هذا الاسهام موجود في تاريخ الاشتراكية ، لكنه اسهام مـــلازم للرفض الشامـــل للبنية الاجتماعية الموجود مسبقا **داخل** الطبقة العاملة . وهذا الرفض أوسع واكثر شمولا من أي شكل من اشكال التريد ـ يونيونية . ان التريد ـ يونيونية لا تنمو الا في ملابسات اجتماعية خاصة . والكاتب ، لهذا السبب بالذات ، يعبر عن فكره بـ « قوة مبسطة » ويرى نفسه مضطرا الى الاشارة الى انـــه لم يقصد « الحديث عن بعض المفارقات » .

لكنني أكرر أنه ، ما عدا هـــذه التفاصيـــل ، فان الكتـــاب ممتـــاز . (...)

« ما العمل ؟ » والاشتراكيون الثوريون
تطور الفكر الاشتراكي الروسي

يتحدث الكاتب عن السجالات العنيفة القائمة في صفوف الاشتراكيين الديموقراطيين ويلاحظ أن الخلاف القائم بين الشعوبيين والاشتراكيين الديموقراطيين كان يتلخص ، تقليديا ، في نظر الاشتراكيين ــ الديموقراطيين في النقيضة التالية : يرى الشعبويون ان العامل انما هو موجود من أجل الثورة لا العكس أما الاشتراكيون ــ الديموقراطيون فيرون أن الثورة هي التي تكون من أجل العامل .

يستشهد الكاتب بعدة مقاطع من « ما العمل ؟ » ثم يضيف :

« هنا يضمحل كل فرق بين الشعبويين والاشتراكيين ــ الديموقراطيين وانه لمن سخرية القدر أن يتم ذلك على أيدي المذهبيين الارثوذوكسيين انفسهم . كان يمكنهم في السابق ان يميزوا خصومهم بقولهم ان العامل بالنسبة لغير ــ الماركسيين ليس الا اداة للثورة المنشودة . هل ان الارثوذوكسيين سيستمرون على هذا الرأي اليوم ؟ (...) .

كان الشعبويون يرون بوضوح أن الشروط المرهقة لحياة الجماهير الكادحة لا تمكنهم من الدخول الى المملكة الاشتراكية للعمل والتضامن ما لم تقم ثورة عنيفة ، ثورة تقوم بها أقليةواعية بمهام الثورة الصاعدة ، متشبعة بالافكار الاشتراكية ومستخدمة ، لبلوغ هدفها الاكبر ، التطلعات العفوية لجماهير المستغلين والمظلومين . كانت المشكلة تتمثل في ادخال نور الوعي الاشتراكي في حركة الجماهير المندفعة الى الثورة . كانت هذه المهمة تقوم على كاهل المثقفين (الانتليجنتسيا) ، على أن احدا من الشعبويين — نؤكد على ذلك — لم تخطر بباله فكرة استثناء (من الانتليجنتسيا الثورية) ممثلي العمل الذين ارتفعوا ، بفضل ذكائهم ونشاطهم ، الى فهم واع لمهام الثورة . لكن هؤلاء الناس كانوا يشكلون أقلية تكاد لا تذكر .

يمكن أن نتساءل الآن : هل يمكن أن نجد اليوم فرقا أساسيا بين هذه الآراء ومفاهيم الماركسيين الارثذكسيين المعاصرين ؟ (١) . واذا كان هناك فرق فهو ، بانعكاس غريب للادوار ، يتمثل في أن هذا الفريق من الماركسيين يعطي للانتليجنتسيا دورا في السيرورة التاريخية أكبر قليلا من الدور الذي كان ينسبه اليها الشعبويون .

لا يسعنا الا ان نحيي تطور الماركسيين الارثذكسيين الذين أصبحوا يضمنون برنامج عملهم الثوري نفس الشروط التي كانوا يلومون عليها الشعبويين بشدة . في الواقع ، لم تكن « **ارادة الشعب** » ، مع كونها حزب اشتراكيين — ثوريين ، تخشى اعلان أنها تمثل ، سياسيا ، تطلعات الشعب الروسي الكبير بأسره ، تطلعات كل الطبقات ، كل المجموعات القومية ، كل الفئات المظلومة، وأنها حزب الشعب بأسره (...) . لقد تبنى الارثذكسيون بدورهم

---

١ — يقصد بهم كاوتسكي ولينين .

هذا الموقف بتأكيدهم على الضرورة التاريخية ، بالنسبة لحزب اشتراكي منظم ، لتمثيل المطالب الديموقراطية الناضجة لكل البلاد ، وعلى ضرورة «التوجه الى كل فئات الشعب»(١) وتحريضها وتحضير الهجوم العام ضد البورجوازية في أوساطها. يجد القارىء في كتيب الارثذكسي المذكور آنفا نقدا عنيفا لسلوك الاشتراكيين ـ الديموقراطيين الروس الذي كان يؤدي الى قصر النشاط الثوري على الفئات العمالية وحدها والى قصر هذا النشاط على المشاكل العمالية .

أكيدا ان هذا التبدل في مفاهيم اليسار المتطرف للماركسية الروسية تبدل مشروع وهو وليد متطلبات النضال الحالي نفسها . لكن نشاطا بمثل هذا الحجم وله مثل هذا الامتداد يبدو في جوهره وكأنه نمو لفكر «الاقتصاديين» .

(نشر هذا المقال في العدد ٣ من مجلة الاشتراكيين ـ الثوريين **رسول الثورة الروسية** ، عدد مارس سنة ١٩٠٣ . مقال بدون توقيع ، لا شك انه بقلم تارسوف) .

---

١ ـ استشهاد من «ما العمل ؟» .

« ما العمل ؟ » في المؤتمر الثاني
للحزب العمالي الاشتراكي ـ الديمقوقراطي لروسيا

(١٧ يوليه ـ ١٠ أغسطس ١٩٠٣)

١ ـ تدخل مارتينوف (الجلسة الثامنة، ٢١ يوليه، جلسة المساء) .

يبدأ مارتينوف بنقد جملة من نص مشروع برنامج الحـزب ، وهي : « ان عدد البروليتاريين وتلاحمهم في ازدياد مطرد ونضالهم ضد المستغلين يتصعد » يقتصر المشروع على القول ان البروليتاريا بوسائلها الخاصة تدخل حتما في صراع مهني مع الرأسماليين » . ان هذه الموضوعة ، في نظره ، مستلهمة مباشرة من جملة لينين في « ما العمل ؟ » : « ان مهمتنا ، مهمة الاشتراكية ـ الديموقراطية، هي مكافحة العفوية ، صرف الحركة العماليـة عـن نزعـة التريد ـ يونيونية العفوية الى الالتجاء تحت جناح البورجوازية ») .

اذا كان صحيحا أن البروليتاريا تتجه عفويا الى الايديولوجيا البورجوازية ، اذا كانت الاشتراكية تتكون خارج البروليتاريا ، فان

نشر الاشتراكية وسط الطبقة العاملة ينبغي أن يتم ، **فعلا** ، في شكل **نضال** بين ايديولوجيا البروليتاريا واتجاهاتها العفوية . وهذا ما يستنتجه لينين عندما يقول : « ان مهمتنا ، مهمة الاشتراكية ـ الديموقراطية ، هي مكافحة العفوية ، صرف الحركة العمالية عن نزعة التريد ـ يونيونية العفوية الى الالتجاء تحت جناح البورجوازية » . يلاحظ لينين وجود تضارب بين ايديولوجيا البروليتاريا ورسالة البروليتاريا . **من جهتي أريد أن الاحظ** التضارب الموجود بين أطروحة لينين وآراء ماركس وانجلز التي ردداها مرارا وتكرارا (...) .

التاريخ يخوّل لنا ان نقول : أولا ان **كل** الاشتراكية المعاصرة هي من انتاج الطبقة العاملة ، مع أن المواد اللازمة لذلك قد اتتها من الديموقراطية البورجوازية . ثانيا ، عند بلورة الاشتراكية المعاصرة كان هناك فئات من الطبقة العاملة قد توصلت **عمليا** بتجربتها المصيبة تارة والخاطئة طورا الى تحديد مهمات وقرارات معزولة استلهمها ايديولوجيوها من بعد ووضعوا لها أسسا **نظرية** .

ان لهذه الاطروحات معنى عظيما من حيث المبدأ. وهي تتناقض مع أطروحة لينين المعروضة في « ما العمل ؟ » ، لكنها نابعة من أسس الماركسية وقد سبق أن صيغت بشكل أو بآخر في كل البرامج الاشتراكية ـ الديموقراطية .

٢ ـ تدخل مارتينوف (الجلسة التاسعة، ٢٢ يولية، جلسة الصباح)

يقول مارتوف ، اولا ، اني فسرت، تعسفا ، المقطع المستشهد به من البرنامج بمنظور اطروحة لينين في «ما العمل ؟» (...) . ثم يجتهد مارتوف في الدفاع عن أطروحة لينين ويحاول استعمال مقطع ١٨ برومير لماركس ، الذي استشهدت به ، حسب وجهة نظر لينين (...) . اخيرا يقول مارتوف ان لينين لا يتناول المسألة من

نفس الزاوية التي تناولها منها البرنامج : بينما يتحدث البرنامج عن نزعة الطبقة العاملة ، فان «ما العمل ؟» يتحدث عن تكوّن هـذه النزعة (...) . قبل أن يدافع مارتوف عن أطروحة لينين فانـه اضطر الى تصحيحها . فهو يقول : «في جماهير البروليتاريا توجد نزعات متناقضة الى الاشتراكية والى الايديولوجيا البورجوازية ، ثم تأتي الانتليجنتزيا وتقوم باختيار اصطناعي بين هذه النزعات». اني أؤكد أنه حتى في شكلها المصحح هذا! ، فان أطروحة لينـين خاطئة . بصفة عامة ليس هناك نزعة الى الايديولوجيا البورجوازية في الحركة العمالية .

٣ ـ تدخل بليخانوف . (نفس الجلسة)

الانتقاد الذي وجهه الرفيق مارتينوف ضد البرنامج انما هـو موجه ضد جملة من احدى كتب احد محرري مشروع البرنامج . يمكن ان يفهم من هذا، بالتالي، ان كل افكارنا الاخرى ممتازة(...) على الانتقادات الموجهة ضد هذه الجملة غير المحظوظة ، ولم ينتقدها مارتينوف فحسب بل ثلة من الرفاق ، قائمة عـلى سوء تفاهم . يذكر مارتينوف بكلمات انجلز : «ان الاشتراكية المعاصرة هـي التعبير النظري للحركة العمالية المعاصرة » . لينين هو أيضا متفق مع انجلز (...) لكن جملة انجلز لا تعبر الا عـن أطروحة عامـة . والمسألة المطروحة هي معرفة من الذي يسبق الى صياغة الترجمة النظرية . لينين لم يكتب مؤلفا في فلسفة التاريخ بل مقالة سجالية يرد فيها على «الاقتصاديين» الذين كانوا يقولون : «ينبغي ان ننتظر ونرى الى أين يمكن للطبقة العاملة أن تصل بوسائلها الخاصة دون معونة «الميكروب الثوري» (١) وكانوا يمنعون هذا الاخير من توجيه

---

١ ـ اي المثقف الاشتراكي ـ الديموقراطي في الحركة العمالية .

ادنى كلمة للعمال لانه «ميكروب ثوري» ولانه يملك الوعي النظري. لكن اذا حذفتم «الميكروب» لا يبقى الا جماهير لا وعي لها ، يجب جلب الوعي لها من الخارج . اذا كنتم تريدون انصاف لينين واذا كنتم قرأتم كتابه كاملا ، للاحظتم انه لم يقصد غير هذا . فهو ، عندما يتحدث عن النضال المهني ، يطوّر هذه الفكرة القائلة بأن الوعي الاشتراكي الواسع لا يمكن أن يأتي الا من خارج حدود النضال المباشر من أجل تحسين شروط بيع قوّة العمل .

٤ ـ تدخل أكيموف . (نفس الجلسة)

ان راي بليخانوف القائل بأن الاشارة الى كتاب لينين ليست جدّية يبدو لي خاطئا . يقول انه من المستحيل أن ننقد البرنامج استنادا على جملة واحدة من كتاب أحد محرري المشروع . لكن جملة لينين التي نقدها مارتينوف لا تبدو جملة منفصلة ، انها تعبر عن المعنى الاساسي لـ «ما العمل ؟» . ويبدو لي أن هذا المعنى العميق قد وجد تعبيره في مشروع البرنامج . ان هذا الراي لا يتفق بتاتا مع ما كتبه بليخانوف في تعليقاته . واني واثق ان بليخانوف ليس متفقا مع لينين (ضحك). وأعتقد أن لينين نفسه لا ينفي أن المسألة تتعلق **برأيه** كاملا وليس بمقطع معزول ، بجملة عرضية . هاكم مقطعا آخر من «ما العمل ؟» انتبهوا الى الجملة التي يؤكد فيها لينين أن نظرية الاشتراكية العلمية قد ظهرت « باستقلال كامل عن الحركة العمالية » . طبعا ، ليس المضربون هم الذين صنعوا نظرية الاشتراكية العلمية ! (ضحك) .

٥ ـ تدخل لينين . (نفس الجلسة)

اصل الى المقطع مثار الخلاف من «ما العمل ؟» الذي أثار

هنا مناقشات عديدة . ويبدو أن هذه المناقشات قد وضعت المسألة بحيث لم يبق لي ما أضيف الا شيئا قليلا . واضح أنه خلط هنا بين التحديد المبدئي لمسألة نظرية هامة (بلورة الايديولوجيا) وبين مرحلة مكافحة «الاقتصادية». بالاضافة الى ان هذه المرحلة قد ذكرت هنا بطريقة غير امينة (...) .

فيما يتعلق بالاحالات المباشرة الى كراسي «ما العمل ؟» ليس صعبا علي أن أبين الى اي حد قد فصلت عن سياقها . يقولون : لينين لا يشير الى اي نزعة معارضة ويؤكد تأكيدا مطلقا أن الحركة العمالية **تنزع** دوما الى الخضوع الى الايديولوجيا البورجوازية . هل قلت هذا حقا ؟ ألم اقل ان الحركة العمالية تنقاد الى الايديولوجيا البورجوازية **بمساعدة شولتزي-ديليتش (١) العطوف وأمثاله ؟** ومن أقصد هنا بـ«أمثاله»؟ لا أقصد غير «الاقتصاديين»، لا أقصد الا أولئك الذين كانوا يؤكدون انذاك ان الديموقراطية البورجوازية لم تكن في روسيا الا مجرد شبح . من السهل ان يدردش المرء عن الراديكالية والليبرالية البورجوازية بينما يمكن للجميع أن ينظروا لممثليها باعجاب . لكن هل كان الامر على هذا النحو سابقا ؟

ينسى لينين نسيانا تاما أن العمال يسهمون في صنع الايديولوجيا . هل هذا صحيح ؟ الم اردد مرارا وتكرارا أن عدم وجود عمال واعين وعيا تاما ، عدم وجود قادة عمال وعمال ثوريين

---

١ - هرمان شولتزي - ديليتش (١٨٠٨ - ١٨٨٣) ، اقتصادي الماني ، نائب في الرايشتاغ ، كان يدعو الى وفاق الطبقات والى «الاخوة» ، سعى الى تطبيق هذه الفكرة بتأسيسه التعاونيات العمالية التي كانت تبدو له كوسيلة لدمج الطبقة العاملة بطرق سلمية في المجتمع الرأسمالي ، وذلك بضمان مصالحها المباشرة .

كان يشكل بالذات أكبر نقص في حركتنا ؟ الم اقل ان تكوين هؤلاء العمال الثوريين ينبغي أن يكون هدفنا المباشر ؟ الم أبين أهمية نمو الحركة المهنية وأهمية خلق أدب مهني خاص ؟ الم أكافح كفاحا مريرا كل المحاولات لتخفيض مستوى الوعي لدى عمال الطليعة الى مستوى الجماهير او العمال المتوسطين ؟

انهي كلامي . كلنا يعلم اليوم ان «الاقتصاديين» قد قوّسوا العصا في اتجاه. لتقويم اعوجاج العصا كان ينبغي تقويسها في الاتجاه المعاكس وذلك ما فعلت . اني واثق أن الاشتراكية ـ الديموقراطية الروسية سوف تعرف دوما كيف تقوّم العصا المعوجة من طرف الانتهازية ، بكل أشكالها ، ولهذا السبب فان عصانا سوف تكون دوما الاشد استقامة والاكثر صلاحية للعمل .

٦ ـ تدخل بليخانوف . (نفس الجلسة)

يؤكد أكيموف أن كل مشروعنا متشبع بروح جملة لينين التي تكرر ذكرها . وحده من لم يفهم هذه الجملة ولا مشروعنا يستطيع أن يقول مثل هذا الكلام . اذ ما هي الفكرة التي يقوم عليها برنامجنا ؟ انها الفكرة الاساسية للنظرية الماركسية للتاريخ ، الفكرة القائلة بأن نمو القوى الانتاجية يحدد نمو العلائق الاجتماعية التي تحدد بدورها نمو المجتمع بأسره . ما دخل جملة لينين هنا ؟ اني ذهلت لكل ما قال أكيموف . كان نابوليون يجبر ماريشالاته على تطليق زوجاتهم ، كان بعضهم يخضعون لاوامره رغم حبهم لزوجاتهم . أكيموف ، من هذه الناحية ، يشبه نابوليون ، انه يريد بكل قواه أن أقطع علاقاتي مع لينين ، لكنني سأكون أكثر حزما من ماريشالات نابوليون ولن أقطع علاقاتي مع لينين وأرجو الا يكون للينين نية قطع علاقاته معي (لينين يضحك ويهز رأسه نافيا) .

اكزلرود و « ما العمل ؟ »

(كان اكزلرود احد النقاد الاكثر غزارة لاطروحـات لينين المركزية في «ما العمل ؟» وللينينية . واليه يهدي تروتسكي ، عام ١٩٠٤ ، كتابه « مهامنا السياسية » الذي قطّع أوصال المركزيـة البلشفية . رغم أن نقد أكزلرود أكثر راديكالية من نقد بليخانوف ، مارتوف أو تروتسكي ، فهو دونها تماسكا . لا نورد من هذا النقد الا مقاطع قصيرة تبين اتجاهه . وأهمية هذا النقد آتية خاصة من حيث انها تعلن عن اعنف اعادة نظر في الافكار التي وافق عليهـا البلاشفة والمناشفة موافقة مشتركة . كان اكسلرود يقابل حـزب الثوريين المحترفين الذي يتحدث عنه «ما العمل ؟» بحزب جماهيري واسع ، وتوصل منذ ١٩٠٥ الى فكرة اخضاع هـذا الحـزب الجماهيري المحتمل الى «مؤتمر عمالي» يكون الممثل الحقيقي لكـل الطبقة العاملة) .

١ ــ «توحيد الاشتراكية ــ الديموقراطية الروسية ومهامها» .

(ايسكرا ، عدد ٥٥ ، ١٥ ديسمبر ١٩٠٣ وعدد ٥٧ ، ١٥ يناير

١٩٠٤) .

يشكل المقال هجوما طويلا ضد «الوثنية المركزية» التي هي ارث تعيس تركه النضال ضد «نزعة الهواة الحرفية» . وهكذا فان «المركزية» هي قريبة «الاقتصادية») .

« لكن ماذا يحدث اذا كانت القيادة نفسها مصابة بالانتهازية ، بالاقتصادية وبغير ذلك من القذرات ؟ ينبغي ، منذ « **بناء** تنظيم الحزب » ، اتخاذ اجراءات وقائية ضد كل مفاجأة من هذا النوع . لهذه الغاية ، في وضع معين ، ليس هناك غير وسيلة واحدة : مراقبة القيادة نفسها ، اخضاعها الى قيادة أخرى أعلى منها تتكون من عناصر تضمن ، بحكم وضعها الاجتماعي، حزم التنظيم وصرامته وتقيه من تأثير العناصر «المتقلبة» وأكثر من ذلك من العناصر الانتهازية مباشرة : خلق قيادة ـ عليا (...) . ان حصيلة النضال الذي خاضته الاشتراكية ـ الديموقراطية الثورية ضد « الهواية الحرفية » هي انتصار المركزية البيروقراطية . لكن هذه المركزية ليست الا الاخت الشقيقة للهواية الحرفية » .

٢ ـ «أصل ومدلول خلافاتنا التنظيمية» .

(ايسكرا ، عدد ٦٨ ، ٢٥ يونيو ١٩٠٤) .

(يحمل هذا المقال عنوانا فرعيا : «مراسلة مع كاوتسكي» . جاء في العدد ٦٦ من الايسكرا مقال لكاوتسكي يهاجم فيه «المركزة الشكلية» عند البلاشفة . يستعمل كاوتسكي ، بين حجج أخرى ، هذه الحجة المستنبطة من تجربة الاشتراكية ـ الديموقراطية الالمانية : « ان الرابط الذي يشد مختلف العناصر المستقلة ذاتيا الى الحزب هو الثقة المتبادلة وليس مركزة شكلية ما ، وخاصة الثقة بالقادة ، بنزاهتهم ، بذكائهم ، بولائهم لقناعاتهم وبطاقتهم» . يغتنم أكزلرود الفرصة لنشر رسالة كان قد بعثها الى كاوتسكي ،

وندد فيها بـ «(النظام البيروقراطي ـ البونابارتي)» الذي فرضه لينين وأنصاره على الحزب) .

(...) لم تظهر الاختلافات عندنا ، حتى فيما يتعلق بمسائل التنظيم ، بصفة واضحة وملموسة الا **بالطرق** والوسائل التي طبق بها لينين وصحبه «المركزية» التي كنا نعترف بها كلنا (...) .

ان السبب الحقيقي للنظام البيروقراطي ـ البونابارتي الذي فرض على الحزب يقوم على كوننا لا نشكل بعد حزبا سياسيا بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة في حين انه ، بحكم اتجاهاتنا الذاتية وبحكم حاجات جيلنا الموضوعية ، ينبغي علينا أن نكون منذ الآن حزبا سياسيا حقيقيا (...) .

الاشتراكية ـ الديموقراطية الروسية ، من حيث طابعها الاجتماعي ومهامها التاريخية هي كيان غامض الملامح ، وسيط (بين ثورتين) ، حائر ومتردد . انها نتيجة الحركة الثورية للانتليجنتسيا التي تسعى باسم الاشتراكية الى كسب دعم الجماهير الشعبية للقيام ـ موضوعيا ـ بمهام الثورة البورجوازية . وبعملها هذا قد توصلت الى بعث الحياة في الحركة العمالية والى الارتباط بالماركسية (...) .

روزا لوكسمبورج و « ما العمل ؟ »
المسائل التنظمية للاشتراكية ـ الديموقراطية الروسية

(ايسكرا عدد ٦٩ ، ١٠ يوليه ١٩٠٤) . (١)

ان مهمة جديدة لا سابق لها في تاريخ الحركة الاشتراكية تقع على عاتق الاشتراكية ــ الديموقراطية الروسية : انها مهمة تحديد السياسة التكتيكية الاشتراكية الفضلى في بلد ما تزال تسوده الملكية المطلقة . ومن الخطأ مقارنة وضع روسيا الراهن بالوضع الذي ساد المانيا خلال السنوات ١٨٧٨ ــ ١٨٩٠ عندما كانت القوانين المعادية للاشتراكية التي سنها بسمارك قيد التطبيق ،

---

١ ــ لا نورد من هذا المقال هنا الا المقاطع التي اعتبرناها اساسية وقد راجعنا ترجمتها اعتمادا على النص الفرنسي . للاطلاع على المقال كاملا راجع «كتابات مختارة ــ روزا لوكسمبرغ» دار الطليعة ــ بيروت ١٩٧١ .

فالوضعان لا يشتركان الا في شيء واحد هو الحكم البوليسي . أما فيما عدا ذلك فهما لا يقارنان بأي وجه .

ان العوائق التي يضعها غياب الحريات الديموقراطية في وجه الحركة الاشتراكية ليس لها نسبيا الا أهمية ثانوية . فحتى في روسيا ، استطاعت حركة الجماهير تخطي الحواجز التي وضعتها الدولة ، ووجدت لنفسها « دستورها » الخاص بها في اضطرابات الشوارع (على الرغم من أن هذا الدستور متقلقل تحف به المخاطر). وسيشق الشعب الروسي طريقه هذا لينجز عندما يحين الحين النصر الكامل على الاوتوقراطية .

ان العقبة الاساسية التي يواجهها النشاط الاشتراكي في روسيا ناجمة عن ان سيطرة البورجوازية في ذلك البلد مختفية خلف نقاب القوة المطلقة (الحكم المطلق) ، مما يعطي الدعاية الاشتراكية طابع التجريد ، في الوقت الذي يرتدي فيه التحريض السياسي المباشر ثوبا ديموقراطيا ـ ثوريا .

لقد جعلت قوانين بيسمارك المعادية للاشتراكية حركتنا خارجة على الدستور ، في مجتمع بورجوازي فائق التطور وصلت فيه التناحرات الطبقية أوجها في الصراعات البرلمانية (وهنا تكمن مخافة الخطة البسماركية ولا عقلانيتها) . لكن الوضع مختلف تمام الاختلاف في روسيا ، فالمسألة هناك هي كيف تخلق حركة اشتراكية ـ ديموقراطية في وقت لم تصبح فيه الدولة بعد في ايدي البورجوازية .

ولهذه الشروط تأثيرها على التحريض ، وعلى الطريقة التي تغرس بها العقيدة الاشتراكية في الارض الروسية ، ولها أيضا علاقة مباشرة بمسألة التنظيم الحزبي .

ففي الشروط العادية ، أي حيث تسبق السيطرة السياسية للبورجوازية الحركة الاشتراكية ، تزرع البورجوازية ذاتها في الطبقة العاملة بدايات تلاحمها السياسي . يقول البيان الشيوعي

ان وحدة العمال في هذه المرحلة ليس بعد نتيجة طموحهم الذاتي الى الوحدة بل نتيجة نشاط البورجوازية « التي ينبغي عليها كي تبلغ مراميها السياسية ان تحرك البروليتاريا بأسرها » .

أما في روسيا فان على الاشتراكية ـ الديموقراطية أن تعوض بجهودها الذاتية حقبة تاريخية كاملة . اذ عليها أن تقود البروليتاريين الروس من حالتهم « المذررة » التي تمد في أجل النظام الاوتوقراطي الى تنظيم طبقي يساعدهم على وعي أهدافهم التاريخية ويهيئهم للنضال من أجل تحقيق هذه الاهداف .

ان الاشتراكيين الروس مجبرون على البدء ببناء تنظيم كهذا دون التمتع بالفوائد التي توفرها الضمانات الشكلية التي توجد عادة في ظل الديموقراطية البورجوازية ، ودون أن يملكوا المادة السياسية الخام التي يوفرها المجتمع البورجوازي ذاته في أقطار أخرى . ان عليهم ، ان صح التعبير ، أن يخلقوا هذا التنظيم من العدم كما يفعل الرب الخالق .

ان المهمة التي تجابهها الاشتراكية ـ الديموقراطية الروسية منذ سنوات عديدة تتمثل في الانتقال من تنظيم ينتسب الى المرحلة التمهيدية ، يعتمد أساسا على التحريض وتميز بتجزئه في مجموعات محلية وحلقات صغيرة معزولة لا رابط بينها ، الى تنظيم قادر على توحيد العمل السياسي للجماهير على نطاق الدولة بأسرها . ان الاستقلال الذاتي والعزلة هما الخاصيتان البارزتان للنمط التنظيمي القديم . ومن هنا نفهم لماذا أصبحت **المركزية** شعار من يريد تكوين تنظيم شامل على النطاق القومي . كانت المركزية عصب الحملة التي شنتها جماعة الايسكرا في السنوات الثلاث الماضية والتي أفضت الى مؤتمر أغسطس ١٩٠٣ ، وهو المؤتمر التأسيسي الحقيقي للحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي . وقد استولت هذه الفكرة على عقول النخبة الشابة للاشتراكية ـ الديموقراطية الروسية جميعها .

لكن سرعان ما اتضح خلال هذا المؤتمر ، وخاصة **بعده** ، أن شعار «المركزية» لا يغطي مسألة تنظيم الاشتراكية ـ الديموقراطية الروسية ومضمونها التاريخي . فقام الدليل مرة أخرى على أنه ما من صيغة جامدة يمكن أن تتضمن المفهوم الماركسي للاشتراكية في أيٍ من المسائل ، حتى فيما يتعلق بمشاكل التنظيم (...) .

اذا نظرنا الى المسألة من زاوية المهام الشكلية للاشتراكية ـ الديموقراطية بوصفها حزب نضال طبقي ، يبدو لنا لاول وهلة إن قوة الحزب وطاقته تعتمدان مباشرة على امكانية مركزة الحزب. لكن هذه الاعتبارات الشكلية ، التي تنطبق على كل الاحزاب النضالية،أقل أهمية من الشروط التاريخية للنضال البروليتاري.

ان الحركة الاشتراكية هي الحركة الاولى، في تاريخ المجتمعات القائمة على صراع الطبقات ، التي تعتمد في كل مراحلها وخلال مسيرتها كلها على تنظيم الجماهير وعملها المستقل المباشر . والديموقراطية الاشتراكية ، من هذه الجهة ، تخلق نمطا تنظيميا مختلفا كلية عن نمط الحركات الاشتراكية السابقة مثل الحركة اليعقوبية والحركة البلانكية .

يبدو أن لينين لا يعير هذه الحقيقة قيمة كبيرة عندما يقول في كتابه ان « الاشتراكي ـ الديموقراطي الثوري ليس الا يعقوبيا ارتبط ارتباطا وثيقا بتنظيم البروليتاريا التي أصبحت واعية لمصالحها الطبقية » . بالنسبة للينين يقتصر الفرق بين الاشتراكية ـ الديموقراطية والبلانكية على وجود بروليتاريا واعية طبقيا بدل حفنة من المتآمرين . وهو ينسى ان هذا الفرق يتضمن مراجعة كاملة لافكارنا في التنظيم ، وبالتالي تصورا مختلفا للمركزية والعلاقات القائمة بين الحزب والنضال ذاته .

لم تكن البلانكية تعتمد على العمل المباشر للطبقة العاملة . ولذا لم تكن بحاجة الى تنظيم الجماهير من أجل الثورة . فقد كانت تتوقع ان تلعب الجماهير دورها فقط في لحظة الثورة ، اما الاعداد

للثورة فلا يعني الاجماعة صغيرة من الثوريين المسلحين للانقلاب . وكان البلانكيون يعتبرون فعلا ان من الحكمة ابقاء الجماهير على مسافة من المتآمرين ، وذلك لضمان نجاح المؤامرة الثورية . ولم يكن ممكنا للبلانكيين تصور علاقة كهذه الا لان النشاط التآمري لتنظيمهم لم يكن على اتصال حميم بالنضال اليومي للجماهير الشعبية (...) .

ان الاشتراكية - الديموقراطية تنبع تاريخيا من الصراع الطبقي الاولي . **انها تتحرك في هذا التناقض الجدلي : ان الجيش البروليتاري لا يتشكل ولا يعي أهداف نضاله الا أثناء هذا النضال.** لا يشكل التنظيم وتقدم الوعي والنضال فترات خاصة ، معزولة عزلا ميكانيكيا زمنيا ، كما في الحركة البلانكية ، بل أوجها مختلفة لعملية واحدة ووحيدة . أولا ، ما عدا المبادىء العامة للنضال ، ليس هناك أي تكتيك نضالي جاهز في كل تفاصيله يمكن للجنة مركزية أن تلقنه لاعضاء الحزب . ثانيا ، ان مدى تأثير الحزب الاشتراكي يتغير باستمرار مع صعود وهبوط النضال الذي يخلق في خضمه التنظيم وينمو . ينتج عن ذلك ان المركزية الاشتراكية - الديموقراطية لا يمكن أن تقام على الخضوع الميكانيكي والطاعة العمياء من جانب أعضاء الحزب للمركز القيادي الحزبي . ومن جهة أخرى فانه لا يمكن أن نقيم حاجزا فاصلا بين نواة البروليتاريا الواعية طبقيا والمنتظمة في الحزب وبين ما يحيط بالبروليتاريا من الفئات الاجتماعية المتمرنة على الصراع الطبقي والتي ينمو فيها الوعي الطبقي باستمرار . تقوم مركزية لينين على هذين المبدأين : خضوع كل أجهزة الحزب خضوعا أعمى حتى في أدق التفاصيل لمركز الحزب الذي يقوم وحده بالتفكير والقيادة والتقرير للجميع ، والفصل الصارم للنواة المنظمة عن محيطها الثوري . ليست هذه المركزية ، في نظرنا ، الا نقلا ميكانيكيا لمبادىء التنظيم البلانكي التآمري الى الحركة الاشتراكية للجماهير العمالية . وطبقا لذلك

يعرف لينين « الاشتراكي ـ الديموقراطي الثوري » بأنه « يعقوبي انضم الى تنظيم البروليتاريا التي أصبحت واعية لمصالحها الطبقية » . في الواقع ، ليست الاشتراكية ـ الديموقراطية مرتبطة بتنظيم البروليتاريا ، بل هي حركة الطبقة العاملة ذاتها . ولذا فالمركزية الاشتراكية ـ الديموقراطية ينبغي ان تكون مختلفة جوهريا عن المركزية البلانكية . ولا يمكن ان تكون الا التعبير الضروري للارادة الموحدة للطليعة الواعية والمناضلة للطبقة العاملة حيال الافراد والمجموعات المعزولة . انها،ان صح التعبير، «المركزية ـ الذاتية» التي تمارسها الفئة القائدة للبروليتاريا ، انها حكم الاغلبية داخل حزبها .

ان هذا التحليل للمضمون الحقيقي لمفهوم المركزية الاشتراكية ـ الديموقراطية يكفي وحده لتبيين ان الشروط الضرورية لظهورها لا يمكن ان توجد كاملة في روسيا اليوم : وجود فئة كبيرة من العمال تثقفت في النضال السياسي وتوفر امكانية للعمال ليطوروا نشاطهم السياسي من خلال تدخلهم المباشر في الحياة العمومية (من خلال المؤتمرات العامة ، بصحافة الحزب ، الخ.)

وحدها الحرية السياسية تسمح بتوفير الشرط الاخير . أما الشرط الاول ـ تكوين طليعة بروليتارية واعية بمصالحها الطبقية وقادرة على التوجه الى النضال السياسي ـ فهو لما يزل بصدد التحقيق ويجب على كل جهود التحريض والتنظيم الاشتراكيين ان تهدف الى تسريع تكوين هذه الطليعة .

أن لينين يختلف بحدة مع هذه النتائج التي توصلنا اليها . فهو على قناعة تامة من ان كل الشروط اللازمة لتكوين حزب قوي ممركز موجودة في روسيا . ويعلن : «لم يعد البروليتاريون بحاجة لان يتلقوا تثقيفا في مسائل الانضباط والتنظيم ، ولكن بعض العناصر المثقفة في حزبنا هي التي تحتاج الى ذلك » ، ويشيد لينين بالتأثير التثقيفي للمصنع الذي يقول انه يعوّد البروليتاريا

على « الانضباط والتنظيم » . يبدو أن لينين بقوله هذا يريد ان يثبت مرة أخرى ان مفهومه للتنظيم الاشتراكي مفــرط فــي ميكانيكيته . ان الانضباط الذي يقصده لينين لا يغرسه في الطبقة العاملة المصنع فحسب بل أيضا العسكرية وبيروقراطية الدولــة الراهنة ، وباختصار تغرسه كل ميكانيزم الدولــة البورجوازية المركــزة .

اننا نسيء استعمال اصطلاح الـ «انضباط» ونمارس خداع النفس عندما نطبق هذا الاصطلاح على مفهومين متباينين هما :

١ ـ غياب التفكير والارادة في جسم له ألف يد ورجل تتحرك أوتوماتيكيا .

٢ ـ التنسيق العفوي للعمل السياسي الواعي لفئة اجتماعية مــا .

فما الذي يشترك فيه الانقياد المحكم لطبقة مضطهدة وانتفاضة منظمة لطبقة تناضل من أجل تحررها الكامل ؟

ان الانضباط الذاتي للاشتراكية ـ الديموقراطيــة لــيس استبدال سلطة الحكام البورجوازيين بسلطة اللجنــة المركزيــة الاشتراكية . اذ أن الطبقة العاملة ستحوز حس الانضباط الجديد، انضباط الاشتراكية ـ الديموقراطية المتقبل بحرية ، لا نتيجــة الانضباط الذي تفرضه عليها الدولة الرأسمالية ، بــل نتيجــة استئصال عادات الخنوع والطاعة القديمة .

ليست المركزية بالمعنى الاشتراكي شيئا مطلقا يمكن تطبيقه على اي مرحلة من مراحل الحركة العمالية . انها نزعة تصبح واقعــا طردا مع التطور والتثقيف السياسيين اللذين تحققهما الجماهــير العاملة خلال نضالها .

لا شك في أن غياب الشروط اللازمة لتحقيق هذا النوع مــن المركزية تحقيقا كاملا في الحركة الروسية يمثل عقبة كؤود .

ومن الخطأ الاعتقاد ان بالامكان الاستعاضة مؤقتا عن حــكم

أغلبية العمال الواعين في الحزب ، الامر الذي لا يمكن تحقيقه بعد، بالسلطة المطلقة للجنة المركزية التي تعمل بطريقة ما بـ « التفويض الضمني » ، وبالتالي استبدال الرقابة العلنية للجماهير العاملة على هيئات الحزب بالرقابة المعاكسة للجنة المركزية على البروليتاريا الثورية .

ان تاريخ الحركة العمالية الروسية ذاته يشير الى القيمة المشكوك فيها لمركزية كهذه . ان مركزا مطلق القوة ، كما يريده لينين ، يتمتع بحق لا حدود له في التدخل والرقابة ، سيصبح سخيفا ولا معقولا اذا كانت سلطته ستطبق فحسب على المسائل التقنية كادارة الصندوق وتوزيع المهام بين الدعاة والمحرضين ونقل المواد المطبوعة وتوزيعها . ولا يصبح ألغرض السياسي من هيئة لها مثل هذه السلطات العظيمة أمرا مفهوما الا اذا استخدمت هذه الصلاحيات في وضع وتطوير خطة عمل منتظمة ، والا اذا اخذت الهيئة المركزية المبادرة بعمل ثوري واسع .

ولكن ماذا كانت تجربة الحركة الاشتراكية الروسية حتى الان؟ لم تكن أهم التغييرات في السياسة التاكتيكية واكثرها فائدة خلال السنوات العشر الاخيرة من اختراع عدد من القادة ولا من اختراع هيئات تنظيمية مركزية . بل كانت دائما النتاج العفوي للحركة في غليانها . كان هذا صحيحا خلال المرحلة الاولى للحركة البروليتارية في روسيا ، التي بدأت باضراب سانت ـ بطرسبرج العام العفوي سنة ١٨٩٦ ، ذلك الحدث الذي سجل دخول عهد كامل من النضال الاقتصادي للطبقة العاملة الروسية . ولا يقل هذا صحة بالنسبة للمرحلة التالية التي بدأت بمظاهرات طلبة سانت ـ بطرسبرج العفوية في مارس ١٩٠١ . كذلك كان الاضراب العام في روستوف عام ١٩٠٣ ، ذلك الاضراب الذي سجل بداية الانعطاف التاكتيكي العظيم التالي في الحركة العمالية الروسية ، عملا عفويا كذلك . فقد تحول هذا الاضراب « من تلقاء نفسه » واتسع الى مظاهرات

سياسية وتحريض في الشارع واجتماعات عظيمة في الهواء الطلق، لم يكن اكثر الثوريين تفاؤلا ليعلم بها قبل ذلك ببعض سنوات .

لقد حققت قضيتنا تقدما عظيما بهذه الاحداث كلها . غير أن مبادرة التنظيمات الاشتراكية ـ الديموقراطية وقيادتها الواعية لم تلعب سوى دور لا اهمية له في هذا التطور . صحيح ان هـــذه التنظيمات لم تكن مهيأة عينيا لهذه الاحداث ، بيد ان الدور غير الهام الذي لعبه الثوريون لا يمكن تفسيره بهذه الحقيقة ، كما انه لا يمكن ان يعزى الى غياب جهاز مركزي حزبي مطلق الصلاحية مثل الذي يطالب به لينين . ولربما ادى وجود مركز قائد كهذا ، لــو وجد ، الى زيادة حيرة اللجان المحلية بتأكيده على الفـرق بـــين الهجوم العاتي الذي شنته الجماهير والموقف المتعقل الذي وقفته الاشتراكية ـ الديموقراطية. ويمكن اليوم ملاحظة الظاهرة ذاتها ـ الدور الضئيل الذي لعبته مبادرة هيئات الحزب المركزية في اعداد وتطوير السياسة التاكتيكية الفعلية ـ في المانيا وغيرها من البلدان. ان السياسة التاكتيكية للاشتراكية ـ الديموقراطية ليست ، على وجه العموم ، شيئا يمكن «اختراعه» . انها نتيجة سلسلــة مــن الاعمال العظيمة الخلاقة للصراع الطبقي العفوي في سعيه الى شق طريقه الى الامام .

ان اللاوعي يسبق الوعي ، ومنطق السيرورة التاريخية يسبق المنطق الذاتي للبشر الذين يشاركون في السيرورة التاريخيـــة . كذلك تنزع الهيئات القياديـــة للحـــزب الاشتراكـــي الى لعب دور محافظ . فالتجربة التاريخية تبين ان في كل مرة تكسب فيهــا الحركة العمالية ميدانا جديدا فان هذه الهيئات تستنفده الـــى حدوده القصوى ، ولكنها في الوقت ذاته تحوله الى قلعة تكبــح التقدم على نطاق أوسع (...) .

فاذا ما أعطينا سلطات مطلقة ذات طابع سلبي كهذه الى الهيئة العليا للحزب ، كما يريد لينين ، فاننا بذلك نعزز الى درجة خطرة

الروح المحافظة الكامنة في هيئة كهذه . واذا ما اردنا ان تكون تكتيكات الحزب من صنع الحزب كله ، او من صنع كل الحركة العمالية ، وهذا أفضل ، لا من صنع اللجنة المركزية ، فان من الواضح ان كل فروع وفيدراليات الحزب تصبح بحاجة الى حرية العمل التي بامكانها وحدها ان تسمح لها بتطوير مبادراتها الثورية واستخدام كل امكانات الوضع المعطى . اما مركزية لينين المغالية فتنضح بروح الحارس الليلي العقيمة . وهي ليست روحا ايجابية خلاقة . فاهتمام لينين لا ينصب على جعل نشاط الحزب اكثر خصوبة بقدر ما ينصب على مراقبته ، ينصب على تضييق حركته أكثر من تطويرها وعلى تقييده أكثر من توحيده (...) .

ولكن المركزية العسكرية المغالية التي ينادي بها لينين وصحبه ليست نتيجة هذيان عرضي . انها متعلقة بحملة على الانتهازية وصل بها لينين الى أدق التفاصيل التنظيمية .

يقول لينين : « انه لامر هام ان نشحذ سلاحا فعالا بهذا القدر أو ذاك ضد الانتهازية » . وهو يعتقد ان الانتهازية تنجم بالتحديد عن ميل المثقفين المميز نحو اللامركزية واللاتنظيم وبغضهم للانضباط الصارم و «البيروقراطية» الضرورية رغم كل شيء لعمل الحزب .

ويضيف لينين ان المثقفين يظلون فرديين ويميلون الى الفوضوية حتى بعد انتمائهم الى الحركة الاشتراكية . وحسب لينين لا نلاحظ نفورا من السلطة المطلقة للجنة المركزية الا في أوساط المثقفين وهو يشير الى أن البروليتاري الحقيقي يجد بسبب حاسته الطبقية نشوة شهوانية في منح ذاته للقبضة الحازمة للقيادة وانضباطها الصارم . ويقول لينين : « ان معارضة البيروقراطية بالديموقراطية ليست الا معارضة المبادىء التنظيمية للاشتراكية ـ الديموقراطية الثورية بوسائل التنظيم الانتهازية » (...) .

واذا عرفنا الانتهازية ، مع لينين ، بأنها الاتجاه الذي يشل الحركة الثورية المستقلة للطبقة العاملة ويحولها الى أداة لخدمة مطامع المثقفين البورجوازيين، فان علينا ان نعترف بانه في المراحل الاولى للحركة العمالية نجد ان المركزية الصارمة ، التي تقدم هذه الحركة البروليتارية التي ما زالت في بدايات وعيها الى شلة من المثقفين ، تسمح لهم بنيل هذا الهدف بسهولة أكثر من اللامركزية (...) .

لقد حدث في المانيا أيضا ، في بداية الحركة الاشتراكية الديموقراطية وقبل ظهور النواة الصلبة من البروليتاريين الواعين (...) ، ان تقابل انصار نمطي التنظيم المتعاكسين وجها لوجه : فقد كان « الاتحاد العام للعمال الالمان » الذي أسسه لاسال يذود عن **المركزية المتطرفة** ، بينما كان الحزب الذي نظمه فيلهلم ليبكنخت وأوغست بيبل (...) يدعم مبدأ الاستقلال الذاتي (...)

اذا سلمنا بخوف لينين من خطر تأثير المثقفين في الحركة البروليتارية ، فاننا لا يمكن أن نتصور خطرا على الحزب الروسي أكبر من خطة لينين التنظيمية . فما من شيء سيخضع حركة عمالية ناشئة لنخبة مثقفة متعطشة للسلطة أكثر من هذا الدرع المركزي البيروقراطي الذي يختزل البروليتاريا المناضلة الى أداة طيعة بين يدي « اللجنة » . من جهة أخرى ان خير ضمان ضد خطر المثقفين الانتهازيين وطموحهم هو العمل الثوري المستقل للبروليتاريا الذي ينمي عندها حس المسؤوليات السياسية (...).

لذا فانه لوهم مناقض للتجربة التاريخية ان يأمل المرء تثبيت اتجاه النضال الاشتراكي الثوري مرة واحدة والى الابد بواسطة وسائل شكلية يعتقد أنها تصون الحركة العمالية من كل امكانيات الانحراف الانتهازي .

لا شك ان النظرية الماركسية تمنحنا سلاحا لا يقهر لمكافحة كل المظاهر الاساسية للانتهازية . لكن الحركة الاشتراكية حركة

جماهيرية ، وليست الاخطار المحدقة بها نتيجة مكائد غادرة تدبرها جماعات أو أفراد ، بل انها نتيجة شروط اجتماعية معينة . ولذا لا نستطيع ان نحصن أنفسنا سلفا ضد كل امكانيات الانحراف الانتهازي . ان أخطار كهذه لا يمكن التغلب عليها الا بالحركة ذاتها، باستعمال النظرية الماركسية على وجه التأكيد ، ولكن فقط بعد ان تتخذ هذه الاخطار شكلا ملموسا في الممارسة .

فاذا نظرنا الى الانتهازية من هذه الزاوية فانها تبدو نتاج التطور التاريخي للحركة العمالية ومرحلة لا يمكن تجنبها .

لقد برزت الاشتراكية ــ الديموقراطية الروسية بالامس القريب . والملابسات السياسية التي تتطور الحركة البروليتارية الروسية في ظلها ملابسات شاذة جدا . ولذا فان الانتهازية في هذا البلد هي الى حد بعيد نتاج التلمس والتجربة التي لا بد من أن يقوم بها النشاط الاشتراكي في سعيه الى شق طريقة على أرض لا تشبه أي أرض اخرى في أوروبا .

اذا كان الامر كذلك فان ما يضاعف دهشتنا هو الادعاء بأن من الممكن ، منذ نشأة الحركة العمالية ، تجنب ظهور تيارات انتهازية بمجرد كتابة بنود معادية لها في القانون الاساسي للحزب . ان محاولة كهذه لاستئصال الانتهازية بواسطة قصاصة ورق قد تصبح ضارة جدا ، لا بالانتهازية ولكن بالاشتراكية ــ الديموقراطية نفسها .

فعندما نوقف النبض الطبيعي لكائن حي فاننا نضعه ونوهن مقاومته وروحه الكفاحية ، لا ضد الانتهازية فحسب بل أيضا ضد النظام الاجتماعي القائم (وهذا بالتأكيد أهم بكثير) . وهنا تنقلب الوسائل على الغايات .

اننا نلحظ في هذه الارادة الهيوب لاقامة وصاية لجنة مركزية كلية العلم والقدرة لوقاية حركة عمالية نشيطة ومبشرة بخير جم من بعض الزلات ، صدى **الذاتية** التي مررت اكثر من حيلة على

الفكر الاشتراكي الروسي .

ولا شك ان من المسلي ان نلحظ التقلبات البهلوانية التي اضطر « الأنا » المحترم الى القيام بها في التاريخ الروسي الحديث. ينتقم هذا الانا الذي طرحه الحكم المطلق الروسي ارضا ومرغه بالتراب ، لنفسه بأن ينتقل الى النشاط الثوري ، فيتمثل في لجنة متآمرين ليجلس باسم « ارادة الشعب »، التي لم توجد قط، على العرش معلنا جبروته . ولكن « الموضوع » يبرهن على تفوقه (...) . وفي الوقت المناسب ، نعاين على المسرح ظهور طفل للتاريخ أكثر « شرعية » (من الجبروت القيصري) ، انه الحركة العمالية الروسية التي ترسي لاول مرة في التاريخ الروسي أسس تكوين « ارادة شعب » حقيقية .

ولكن « أنا » الثوري الروسي يظهر ثانية ، ليرقص على رأسه معلنا مرة اخرى انه الموجه الكلي لقوة التاريخ، لكنه هذه المرة يحمل لقب صاحبة السمو اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي ــ الديمو قراطي الروسي .

ويفشل البهلواني البارع في ان يرى ان « الذات » الوحيدة التي تستحق دور الموجه هي **الانا الجماعي** للطبقة العاملة التي تطالب بحقها في ان ترتكب أخطاء وتتعلم جدل التاريخ بنفسها .

ولنقل بصراحة ، ان الاخطاء التي تركبها حركة ثورية حقا هي تاريخيا انفع وأخصب بما لا يقاس من عصمة أفضل « لجنة مركزية » .

بليخانوف و « ما العمل ؟ »
الطبقة العاملة والمثقفون الاشتراكيون-الديموقراطيون

(ايسكرا ، عدد ٧٠ ، ٢٥ يوليه ١٩٠٤ وعـــدد ٧١ ، اول اغسطس ١٩٠٤)

نقد متأخر خير من صمت أبدي .

ان المفهوم الذي حل ، في صفوفنا،محل اطروحة الاقتصاديين المهزومة يعلن انه بدون «الميكروب الثوري» ايـاه ، تصبح احتمالات الوصول ألى الاشتراكية تساوي الصفر ، اذ أن الطبقة العاملـة ، بمقدرتها الخاصة ، لا تستطيع أن تصل الى نتائج اشتراكية . انها نفس « الاقتصادية » ، لكنها قد قلبت على رأسها : فالعلاقة بـين «الفكر» الاجتماعي و «الكائن» الاجتماعي لم تفهم هنا أكثر ممـا فهمت هناك . لكي نخطو خطوة حقيقية وليس «خطوة» زائفة «الى الامام» في فهم هذه العلاقة ، علينا قبل كل شيء أن نصحح هـذا الخطأ الجديد ، علينا أن نتخلص من هذا اللحن الجديد لاغنيـة

قديمــة (...) .

ان هذا اللحن الجديد لاغنية قديمة الذي ظهر أولا كرد فعــل طائش ووحيد الجانب ضد مفهوم «الاقتصاديين» الوحيد الجانب والطائش قد وجد أقوى تعبير له في كراس لينين «ما العمــل ؟» الذي سنشرع الآن في تفحصه (...) .

كانت النظرية الاشتراكية ـ الديموقراطية الروسية ، فعــلا وبدون أي شك ، النتاج الطبيعي والحتمي لنمو الفكر عند المثقفين « الثوريين ـ الاشتراكيين » .

لكن كيف أمكن للينين أن يعلن أن هذه النظرية قــد نمت « باستقلال تام عن النمو العفوي للحركة العماليــة » ؟ هذا سؤال هــام .

لو كان لينين أكثر اطلاعا ، ولو قليلا ، على تاريــخ حركتنــا الثورية ، لعلم ان «النمو العفوي للحركة العمالية» قد أثر فيه تأثيرا كبيرا خاصة عندما بدأت النظرية الشعبوية القديمة تنهار انهيــارا كاملا ، تحت ضغط المتطلبات الجديدة للحياة التي لم تكن تتوقعها. ونستطيع ان نجد أمثلة في الادب الثوري في نهاية السبعينــات تبين كيف أن ظهور البروليتاريا المفاجىء علـى مسرح تاريخنــا بمطالبها الاجتماعية الخاصة قد عجل موعد اعادة النظــر فــي البرنامج الشعبوي من حيث الاساس (...) .

يعمق بليخانوف هذا البحث التاريخي ويؤكد على أن «مفاهيم ماركس وانجلز النظرية قد نمت هي أيضا متأثرة تأثــرا قويــا بـ «النمو العفوي للحركة العماليــة في ألمانيــا ، في فرنسا وفي انجلترا» . ويضيف محللا هذا القول : « هناك شرطان ضروريان جعلا ماركس وانجلز يعترفان بالبروليتاريا بصفتها القوة الثورية الاساسية في عصرنا،هما : أولا ، تناحر الطبقات و «النمو العفوي» السريع «للحركة العمالية» ، ثانيا ، عناية ماركس وانجلز بهــذه الظواهر ، اي عناية من اضطلعوا بتحديد الاشتراكية على اساس

علمي)) . يرى بليخانوف في النمو العفوي للحركة العمالية أهم ظاهرة في تاريخ القرن التاسع عشر . ثم يعلن أن أطروحة لينين هي أطروحة شخص ((مثالي)) وأن ((الاشتراكية قد ظلت طوباوية طالما أنها لم تعن بالنمو العفوي للحركة العمالية كل العناية الضرورية))) .

ثم كيف توصل لينين الى ان((تاريخ كل البلدان يثبت أن الطبقة العاملة ، بقواها وحدها ، لا تستطيع أن تصل الا الى الوعي النقابي ؟)) ان التاريخ ((لا يثبت)) شيئا من هذا القبيل ، لا يبين قطعا ما يراه فيه لينين . ولا عجب في ذلك . اذا صحت الاطروحة الاساسية للماركسية القائلة بأن ((فكر)) الناس يحدده ((نمط حياتهم)) ، واذا لم تخطىء الفرضية الاساسية للاشتراكية العلمية القائلة بأن الثورة الاشتراكية هي النتيجة الحتمية لتناقضات الراسمالية الداخلية ، فانه واضح ان عمال البلدان الرأسمالية ، في مرحلة معينة من النمو الاجتماعي ، يصلون الى **الاشتراكية** حتى لو تركوا **لقواهم المنفردة** .

(ثم يورد بليخانوف قائمة طويلة من الاستشهادات من أعمال ماركس وانجلز تدعيما لقوله السابق) .

لم تكن نظرية الاشتراكية **العلمية** تستطيع أن تولد الا في رؤوس **مهيأة علميا** لهذه المهمة . لكن الضرورة الاقتصادية هي التي تولدّ حركة الطبقة العاملة وتوصلها الى نتيجتها المنطقية ــ اي الثورة الاشتراكية ــ وليست الاشتراكية العلمية الا التعبير النظري لتلك الحركة . هذا هو الراي الذي استقر عليه ماركس وانجلز منذ تشكلت مفاهيمهم الاجتماعية . ان الدور التاريخي للطبقة العاملة، حسب هذا المفهوم ــ وهو المفهوم العلمي الوحيد ــ لا يبدو كما يتصوره لينين في كراسه عندما يجتهد ليقنع القارىء ان

البروليتاريا ، بقواها وحدها ، عاجزة عن الخروج من حدود التريد ــ يونيونية الضيقة .

حسب لينين ، الطبقة العاملة ، اذا تركت وحدها ، لا تستطيع أن تناضل الا من أجل تحسين شروط بيع قوة عملها في ساحة علاقات الانتاج الرأسمالية . حسب ماركس وانجلز ، تتجه الطبقة العاملة حتما الى الغاء تلك العلاقات ، أي الى القيام بالثورة الاشتراكية .

من المصيب ؟

أحكموا كما يروق لكم ، لكن اذا كنتم تعتقدون ان لينين هو المصيب لا تتحلوا باسم تلاميذ ماركس وانجلز !

الماركسية هي «موسيقى من نوع آخر تماما» !

(ثم يبين بليخانوف ان ماركس وانجلز لم يفتهما تبيين أهمية «الميكروب الثوري» (المثقف) ، ثم يتهم لينين باساءة استعمال الاستشهاد الطويل الذي يأخذه من كاوتسكي في بداية كتابه ، يقول كاوتسكي: «ان الاشتراكية وصراع الطبقات ينشآن متوازيين ولا يولد أحدهما الآخر... ان الوعي الاشتراكي هو عنصر مستورد من الخارج» ، ويختم بليخانوف :)

ان لينين لم يفهم كاوتسكي ولا انجلز ولا ماركس ، أي انه بصفة عامة لم يفهم الاشتراكية العلمية في موقفها ازاء هذه المسألة . **وعدم الفهم هذا هو الذي يبدو للينين وكأنه عجز البروليتاريا عن الخروج من حدود التريد ــ يونيونية ، تلك التي يقدمها وكأنها نازلة من السماء في شكل مكتمل ، معطى مرّة واحدة والى الابد وغير قابل للتغيير (...) .**

ان القول ان دور البروليتاريا التاريخي **تحدده دائما هذه الانتليجنتزيا أو تلك** وان هذه الطبقة المسكينة ، التي يكبلها التاريخ بقسوة ، ليس لها **تطلعات** خاصة ناتجة عن الخاصيات الاقتصادية

لوضعها **الخاص** ، ليس معطى ملموسا البتة : وهكذا تصبح الطبقة العاملة جامدة ، كحمار ميت ، حسب عبارة رابلبي القوية ، أهـذا ما يريد أن يقول لينين ؟ اذا كان هذا ، فهو يرتبك أكثر من قبـل، لان وحده الذي لا يفهم محتوى رسالة البروليتاريا التاريخيـة يستطيع أن يقول مثل هذا القول (...) .

ولينين عندما يبعد الاشتراكية عن الجماهير والجماهير عـن الاشتراكية فهو يرفع الانتليجنتزيا الاشتراكية الى مصاف آلهـة الثورة الاشتراكية ويرفع نفسه وأنصاره المطواعين الـى درجـة انتليجنتزيا من الطراز الاول أو ، ان صح التعبير ، الى انتليجنتزيا ــ **رفيعة** . ويتهم كل من لا يشاطره الراي بالذاتية الفوضويـة و ، في مكافحته لخصومه ، يستنجد بنفس الجماهير التي ، كما رأينا ، لا تلعب حسب نظريته الا دور **المادة** التي لا حياة فيها . انه يضرب صدره ساخطا ويصرخ بحنق نبيل ان البروليتاريا وحدها هي التي تفهم معنى التنظيم والانضباط كاملا .

(ثم يفترض بليخانوف انه يمكن أن يلام لتأخـره في شجب فكر لينين الخاطئة) .

أجيب : اني لم انتظر حتى اليوم : لقد وجدت أطروحاتـه خاطئة منذ لحظة اطلاعي عليها . فور قراءتي لمخطوطة **ما العمل ؟** أعلنت للينين ولاعضاء لجنة التحرير الآخرين انني لاحظت فيهـا أخطاء نظرية عديدة . خاصة فيما يتعلق بالـ«عفوية» وبالـ«وعي»، وقد لاحظت للينين انه يتمثل الوعي **وكأنه طلقة نارية تخرج مـن مسدس** حسب عبارة هيجل الشهيرة والححت على ضرورة اعادة كتابة المقاطع التي كانت تبدو لي غير صحيحة . رد عليّ لينين بأن الكراس سيحمل امضاءه الشخصي ، الشيء الذي سيبرىء لجنة التحرير م ن قسم كبير من مسؤوليتها ازاء الافكار الواردة فيه. في نفس الوقت أعلن لي بعض الرفاق في لجنة التحريـر انني كنت صارما صرامة مفرطة مع لينين ، وأنه رغم بعض العبارات الرديئة

في كتابه ، لم يخرج عن الماركسية الارثودكسية . لكني لم أقتنع بهذا الحكم . لم أعتبر قط لينين منظرا بارزا ، ولو قليلا ، وقد كان حكمي عليه دوما بأنه عاجز تماما عن التفكير تفكيرا جدليا . لكنني كنت أعتقد انه يعير اهتماما كبيرا لمصالح النظرية وان النظرية التي يرعى مصالحها هي على كل حال **نظرية الاشتراكية العلمية** . كان يبدو لي كماركسي **بالسليقة** اكثر منه **بالوعي** ، لكنني كنت أعو ّل على نجاعة قوة تلك السليقة «الارثوذكسية» وكنت آمل انه اذا لم يهضم **منهج** الماركسية فهو على الاقل سيهضم **نتائجها** ، وهي نتائج يمكن ان تدخل حتى في رأس ميتافيزيقي ، عندما يدخله ، من الخارج ، **وعي** ماركسي اكثر وضوحا . ثم ان لينين، رغم دفاعه عن وجهات نظره ، كان يعد بـ «تصحيح» المقاطع المناقشة في كراسه . اخيرا وليس آخرا ، هل كنت استطيع ان اتوقع ان يهتم عدد بهذا الحجم من القراء خصيصا بالمقاطع الخاطئة لذلك الكراس ، وبمفهوم كاتبه للعالم ؟ (...)

كنت آمل ان يتمثل «العمليون» من رجالنا افكار «ما العمل؟» المفيدة ــ رغم عدم طرافتها ــ المتعلقة بحاجتنا الى التنظيم والمؤكدة على ان الاشتراكية ــ الديموقراطية لا يمكنها الاستغناء على النضال السياسي في اي مرحلة من مراحل تاريخها ، كما كنت آمل في نفس الوقت ان يلاحظوا ، دون ان أشير الى ذلك ، ضعف حجج لينين النظرية التي اقام عليها حقائقه المحترمة رغم فقدانها لكل رونق . ولما كانت ادبياتنا الاشتراكية ــ الديموقراطية فريسة الكثير من النزاعات ، وبما اني لم اكن ارى جدوى مضاعفة تلك النزاعات في غياب ضرورة عملية عاجلة ، قررت ألا انتقد علنا لينين . لكن ما هي افضل شهادة على الاستياء الذي أثارته في نفسي افكاره : ذات يوم بينما كنت تحت تأثير هذا الكراس وتحت تأثير المناقشات الطويلة التي أجريتها مع لينين حول صياغة برنامجنا عبرت لمارتوف عن مخاوفي بأن «يبدأ الان في صفوفنا

صراع بين ماركسية تولين (١) الميتافيزيقية ومادية بالتوف (٢) الجدلية» . لا شك ان مارتوف لم ينس ذلك الحديث . آمل ايضا ان يتذكر اني ، رغم اجتهاده لطمأنتي حول هذه النقطة ، لم اكن مرتاحا .

عندما نشر «ما العمل ؟» اتضح ان لينين لم يكد يغير منه شيئا . لقد استأت لذلك طبعا ، مما جعل علاقاتنا متوترة لبعض الوقت . ثم ما فتئت ان تحسنت . وفي خريف ١٩٠٢ قضيت شهرا بلندن ، حيث كانت تنشر الايسكرا ، وكان لي مع لينين محادثات طويلة استخلصت منها قناعتي بأن **الوعي** الماركسي كان يدخل فعلا بسرعة في رأسه وأنه منذ ذلك الحين قد تجاوز آراء «ما العمل ؟» .

(يواصل بليخانوف حديثه حول هذا الموضوع مشيرا الى ان موقف لينين ازاء عدد من مقالاته جعله يعتقد ان «الارثذوكسي **بالسليقة** كان يقترب من **الوعي** اكثر فاكثر» وان لينين «قد خطا في تطوره «خطوات الى الامام» لها معناها وأنه تخلى عن أخطائه القديمة» . وفي هذه الحالة من التفكير ذهب ليحضر المؤتمر الثاني وعندما هوجم لينين من اجل افكاره في «ما العمل ؟» طالب بتخفيف العقوبة «لهذا الابن الضال في النظرية» . كان بليخانوف يفضل تهدئة النزاع) .

كانت هذه الطريقة البيداغوجية القديمة خطأ أسف عليه اليوم اسفا شديدا . أعتقد اليوم أني لو كشفت في وضح النهار عن صبيانيات «ما العمل ؟» النظرية لكان ذلك أجدى لقضيتنا (...) .

ولم أتبين الا بعد المؤتمر الى اي حد كانت مجاملتي المفرطة للينين وتصميمي الحازم على تجنب «القطيعة» معه **مضرّين** بحزبنا.

---

١ ـ اسم لينين الحركي .

٢ ـ اسم بليخانوف الحركي .

ولم يتضح لي نهائيا التأثير البالغ الذي كان **لما العمل ؟** على رجالنا العمليين والى اي حد كان الكراس يؤثر على عدد كبير منهم **بأخطائه بالذات** . ولم تبين لي التجربة الا بعد المؤتمر تصور لينين للجماهير ك «عنصر غير تاريخي» في التاريخ ، ك «مادة» تتحرك نحو الاشتراكية ب «روح» **تعمل خارجها** ، وان المفاهيم التاكتيكية والتنظيمية للينين وعدد من العمليين «الصارمين» انما تنبع من ذلك التصور الخاطىء (...) . لقد كان لينين سعيدا سعادة تفوق كل وصف بشعبيته التي أكسبها له انحرافه عن الماركسية الذي جعل افكاره اكثر من ذي قبل في متناول «العمليين» الاكثر عجزا عن فهم الماركسية ، وهو لا فقط لم يتخل عن العصا التي قوّسها اثناء سجاله ضد «الاقتصاديين» ، بل اتخذ من تلك العصا المعوّجة مطية ، وفي رأسه أوضح النوايا ، ليركض ـ وسط صياح وتهليلات حكماء حزبنا المضحكين ـ نحو ... **الديكتاتورية** .

بوترسوف ـ ستاروفر و « ما العمل ؟ »

مغامراتنـــا

(مقتطفات من الفصول المنشورة في الايسكرا ، عدد ١٠٦ (١٨ يوليو ١٩٠٥) وعدد ١٠٧ (٢٩ يوليو ١٩٠٥) .

(يبدأ بوترسوف بتقريـــر فرض أوّلـــي Postulat **مناقض تماما لفرض لينين في «ما العمل ؟» : «لقد كانت الجماهير دوما ، بالطبيعة الثورية الكامنة فيها ، الرافعة ونقطة الانطـــلاق لسيرورة تبلور أفكار الانتليجنتزيـــا» . ثم يعرض تاريـــخ «الاقتصادية») .**

ما زلت أذكر الاستياء المكتوم الذي أثـــاره المؤتمـــر الاول للاشتراكية ـ الديموقراطية الروسية (١٨٩٨) ، كانت محاولـــة سريعة قامت بها الانتليجنتزيا لتأليف حزب لا قيمة لـــه . لكن هذه العقليـــة **المعادية لحزب** « الاقتصادية » قـــد عجلت بسقوط هذه الاخيرة في شروط تلك الفترة ، ذلك ان وعي الذات النامي عند الانتليجنتزيا كان يجد في شكل **العصبية الحزبية** افضل تعبير له ، وكان الوضع يملي على الانتليجنتزيا الشعار التالـــي :

لا ينبغي عزل الانتليجنتزيا في مجموعات ارهابية منفصلة عن الجماهير كما كان الشعبويون يفعلون احيانا ، بل يجب خلق جهاز سلطوي لعموم روسيا لقيادة الجماهير . لقد وضع «أنا» الانتليجنتزيا على منصة فوق الحركة البروليتارية !

وهكذا ولد **دين الثوري المحترف** الذي كان حجر الزاوية لكل ما بنته الانتليجنتزيا فيما بعد ، وكان «ما العمل ؟» انجيل هذا الدين ولينين نبيّه (...) .

من اول صفحة الى آخر صفحة من «ما العمل ؟» (تحياتنا الى انسجام هذا العمل !) تتهاطل الضربات على خصوم لينين ، «الذيليين» . لكن كلما جلدهم بقوة كلما ـ يا للمعجزة ! ـ رأت انتليجنتزيا الحلقات ، وكأنها تجلد نفسها بنفسها ، آفاقها تتسع وآمالا جديدة تفتح أمامها . اذا كان الوضع لا يتوقف الا على الانتليجنتزيا ، أذا لم يبق لمناضلي الحلقات الا استخدام احتياطي طاقتهم لمضاعفة حجم مهامهم السياسية وتوسيعها ؛ اذا كانت «مملكة» الثورة تتمثل «فينا» ، نحن المثقفين ، اي في الحلقات الاشتراكية الملتهبة بالروح الثوري ، فان الطريق المفتوح أمام الانتليجنتزيا من خلال كل الاشواك البوليسية ، يؤدي بدون التواء الى الهدف ، نظرا لمهارتها الثورية ، وباستقلال عن التطورات الداخلية التي يمكن ويجب ان تحدث في نفس الوقت في صلب الطبقة العاملة المستيقظة .

من هنا تنحصر مسألة مستقبل الاشتراكية ـ الديموقراطية الروسية في هذا السؤال : هل ستكون الانتليجنتزيا قادرة على النمو ، هل ستجد في نفسها القوة الكافية لتشكيل ذلك «التنظيم القوي» من الثوريين المحترفين الذين «سيعلّمون البروليتاريا كيف تخوض نضالا حازما ومستميتا» ؟ وهكذا تحول الثوري الى إله يخلق التاريخ ، أما البروليتاريا في مجموعها فبقيت ، رغم كل الاحترام الذي تخص به عادة ، مادة لاحياة فيها ، مادة خام لا

ترتفع البتة الى مصاف المناضلين الناشطين ، صانعي الثورة .
وكأن انتليجنتزيا الحلقات رأت من واجبها ان تبدد آخر شكوك ممكنة لترسخ في وعي الناس المنعطف الذي تمر في علاقاتها مع الجماهير ولتؤكد عمدا على الطابع الجذري لهذا التبدل ، فنادت بكل بساطة الى «مكافحة العفوية» . من ذا الذي يظهر حينئذ في دور مغر ، دور منقذ البروليتاريا ب «صرفها عن نزعتها العفوية» الى الالتجاء «تحت جناح البورجوازية» ؟ انه وعي الاشتراكية ـ الديموقراطية ، اي عندما نتحدث بصفة ملموسة ، انتليجنتزيا الحلقات ، في روسيا (...) .
والنتيجة ـ الطريفة ! ـ هي هذه : الانتليجنتزيا الروسية ، او بصورة أدق ، انتليجنتزيا الحلقات التي ليس لها عادة سوى مكان ثانوي صغير في المفهوم الماركسي للتاريخ ، تظهر فجأة بمظهر الممثل الامثل للنضال ضد العفوية البروليتارية .
ولا يطلب من هذا الممثل ادنى ضمان من المواقف التي يمليها عليه وضعه الاجتماعي ، ومجرد الاشارة الى اخلاصه الذاتي للعقيدة والى ارادته الطيبة في التحول الى مستودع من الثوريين ـ المحترفين تكفي ، كما يقول لينين ، لكي «توضع تحت تصرفه القوى الهائلة للملايين العديدة من العمال الذين يهبون «عفويا» للنضال !» .
انه حقا لمشروع طوباوي عظيم ! (...)
تنظيم لعموم روسيا ممركز من «الثوريين ـ المحترفين» ! لكن من يضمن لنا ان هذا النتاج لتبلور انتليجنتزيا الحلقات ولافعالها سيتطابق مع الحركة البروليتارية في مجموعها وسيكون قادرا على القيام بالدور الذي يضطلع به في الغرب عمال الطليعة الذين يحملون اسم الاحزاب العمالية الاشتراكية ـ الديموقراطية ؟ ان هذه المسألة ، من وجهة نظر ماركسية ، هي رابع المستحيلات ، نظرا للاتجاه الطبيعي للحركة ، لكن لينين قد حل هذه المشكلة بمجرد الاشارة الى الطرق العقلانية لانتليجنتزيا الحلقات .

نظرية صحيحة ، هذا هو الحجر الذي تستطيع الانتليجنتزيا ان تبني عليه صرح تنظيمها باطمئنان. ولنذكر بأن خطأ الشعبويين، حسب لينين ، هو ان نظريتهم كانت خاطئة . ان النظرية هي الضمان الوحيد الموثوق به ، هي الاساس الاول والاخير للهندسة الثورية عند المثقفين ، هي المنقذ الوحيد الموجود في كل مكان ، النظرية هي التي تمسك بقبضتها الحديدية عنان القيادة الثورية ـ المحترفة وهي التي تصنع بقوة صحتها الجوهرية رباطا وثيقا بين العناصر الاكثر اختلافا والاقل تجانسا . (ثم يحلل بوترسوف ـ ستاروفر مفهوم «الثوري ـ المحترف») وعنه يقول : «في هذه الصيغة السحرية ، ينعكس كالشمس في قطرة ماء كل التركيب المميز لانتليجنتزيا الحلقات المنطوية على نفسها ، اسيرة في عالم أفكارها ، منفصلة عن الحياة وكمتفرج أسير ، تنظر من وراء نافذة صغيرة الى حركات الناس ، تنظر الى الحياة الغريبة التي تتابع سيرها بجانبها» .

فوروفسكي و « ما العمل ! »

ثمار الديماغوجيا

(نشر هذا المقال في عدد ٢ من الفبريـــود (٢٣ مارس ١٩٠٥) ردا على مقالي بليخانوف : الطبقة العاملة والانتليجنتزيا الاشتراكية ـ الديموقراطية . وقد راجع لينين هذا المقال وصححه مضيفا له بعض العبارات . وهي التي نشير اليها بقوسين ( ) .)

(يبدأ فوروفسكي بايراد محتوى منشور بعنوان : برنامج لجان العمال الاشتراكيين ـ الديموقراطيين في سورموفسك ونيجني ـ نوفجورود ، وهو هجوم طويل ضد مفاهيم لينين التنظيمية :)

«ان اقتناعنا الشديد بصحة نظريات الاشتراكية العلمية (...) لا يسمح لنا بالموافقة على اطروحة الرفيق لينين الذي يرى :

١ ــ ان الحركة العمالية اذا نمت بقواها وحدها تؤدي حتما الى التريد ــ يونيونية اي الى النضال الاقتصادي البحت .

٢ ــ ان «دور البروليتاريا التاريخي **تحدده دوما هـــذه الانتليجنتزيا او تلك** ، وان هذه الطبقة المسكينة ، التي يكبلهـــا التاريخ بقسوة ، ليس لها **تطلعات** خاصة ناتجة عن الخصائـــص

الاقتصادية لوضعها **الخاص**» (بليخانوف ، الايسكرا ، عدد ٧١) . ان عددا كبيرا من لجان الحزب العمالي الاشتراكي ـ الديموقراطي الروسي قد اتخذ من مفاهيم لينين اساسا لنشاطه وقد جرّه ذلك الى نتائج بائسة . ان انصار لينين ، لكي يبعدوا عن الحركة العمالية خطر الاستسلام الى «نشاطات دنيئة» او الى الايديولوجيا البورجوازية ، قد توصلوا الى فكرة تشكيل «مركز حراسة» من الانتليجنتزيا البورجوازية لرعاية البروليتاريا ووقايتها من «الهفوات» . ان هذه الاتجاهات الوقائية قد ولّدت في الحزب المركزية التي ولّدت بدورها البيروقراطية في اللجان بكل خصائصها : التهاون ، غياب المبادرة ، الحذر من قوى البروليتاريا، النزعة الى الاستبداد بالعمل حتى على حساب القضية ورغم عجز المثقفين الواضح عن القيام بمثل ذلك العمل الجبار بقواهم المنفردة ... الخ » .

(يلاحظ فوروفسكي ان «الديماغوجيا قد اتت ثمارها» اذ ان اصحاب هذا المنشور قد استنبطوا من مقالات بليخانوف ضد «ما العمل ؟» نتائج «ذيلية» . ثم ينتقل الى تحليل مدلول « ما العمل ؟» بالرجوع الى قول بليخانوف في المؤتمر الثاني : «ان لينين لم يضع مؤلّفا في فلسفة التاريخ بل كتب مقالا سجاليا ضد «الاقتصاديين» الذين كانوا يقولون : علينا ان ننتظر ونرى الى اين يمكن للطبقة العاملة ان تصل بوسائلها الخاصة بدون معونة «الميكروب الثوري») .

«ان هذه الكلمات تحدد بكل أمانة معنى «ما العمل ؟» ومغزاه واذا كان بليخانوف يقول اليوم انه كان منذ البداية مختلفا مع هذه الاطروحات العامة فان ذلك لا يبرهن الا على انه قد عرف كيف يقيّم المدلول الحقيقي للكراس عندما لم يكن هناك ضرورة لاختراع

«خلافات مبدئية» مع لينين . لقد كان «ما العمل ؟» فعلا كراسا سجاليا (مخصصا كليا لنقـــد الاتجاه الذيلي للاشتراكيـــة ـ الديموقراطية آنذاك ويرمي الى تشخيص ودحض الاخطاء الخاصة بذلك الاتجاه) . وكان يكون مضحكا لو انصرف لينين يبين، في كراس مرصود لـ «مسائل الساعة الملحة لحركتنا» ، ان نمـــو الافكار ، خاصة أفكار الاشتراكية العلمية قد تم ويتم بارتباط تاريخـــي وثيق بنمو القوى الانتاجية (بارتباط وثيق بنمو الحركة العمالية بصفة عامة) . فالمهم بالنسبة اليه هو اقامة الدليل على ان الطبقة العاملة لم تتوصل بعد في اي مكان الى الارتفاع بقواها المنفردة الى صنع الايديولوجيا الاشتراكية ، وعلى ان هذه الايديولوجيا (مذهب الاشتراكية العلمية) قد أدخلت دومـــا من طرف الاشتراكية ـ الديموقراطية (ولهذا السبب فانه من المهم ان نذكر الذين يحطون من مدلول قيمة وعينا، من عقيدتنا (أعني بهم اصحاب الرابوتشيئيا ديلو) بالواجب المفروض على الاشتراكي بأن يجلب الوعي مـــن الخارج) » .

«ثم يستشهد فوروفسكي بجملة بليخانوف في المؤتمر الثاني على انها جملة صائبة تماما : «الكن اذا نحيتم «الميكروب» لا يبقـى الا جماهير لا وعي لها ، يجب جلب الوعي لها مـــن الخارج . لو كنتم تريدون انصاف لينين ولو كنتم قرأتم كتابه كاملا ، لامكنكم ان تلاحظوا انه لم يقصد غير هذا ! (١) » .

---

١ ـ في هذا الموضع من النص يورد لينين ملاحظة مشفوعة بامضائه ، ومن جملة ما يقول : «ان قول بليخانوف ان «ما العمل ؟» هو سبب فتور علاقاتنا خطأ محض . هذا الفتور كان نتيجة انقسام لجنة التحرير الى قسمين عند مناقشة البرنامج » .

مارتوف و « ما العمل ! »

لقد كان لكراس لينين «ما العمل ؟» المنشور في ربيع ١٩٠٢ دور استثنائي تماما في نمو تأثير الافكار «الايسكرية» في عدد كبير من حلقات الحزب . في هذا الكراس السجالي يحلل لينين تحليلا نقديا نظرية وممارسة الاشتراكية ــ الديموقراطية الروسية في نهاية التسعينات ويلخص الخطوط العريضة للتاكتيك الثوري للحزب ولتنظيمه في حقبة كفاحه المباشر ضد الاوتوقراطية .

يحتوي «ما العمل ؟» في قسمه النظري على أطروحات لا يمكن، من وجهة نظر الماركسية ، ان يفوت العديد من انصاره ملاحظة ضعفها . منذ المؤتمر الثاني للحزب ، اغسطس ١٩٠٣ ، اعترف بليخانوف ان لينين ، في نضاله ضد «الاقتصاديين» قد «بالغ في الاتجاه المعاكس» (١) . فلينين ، بتعميمه وبرفعه الى مستوى

---

١ ــ في الواقع ، لينين نفسه هو الذي قال هذه الجملة . لا شك ان خطأ مارتوف مرده ان بليخانوف قد استعمل نفس العبارة في مقاله عن «ما العمل ؟» الذي أوردنا منه هنا بعض المقاطع .

المبادىء الشروط الخاصة بنمو الاشتراكية ـ الديموقراطية الروسية ، الناشئة في حلقات الانتلجنسيا البورجوازية (الاصل) بمعزل عن الحركة العمالية ، قد قدم الاطروحة القائلة بأن المسيرة العفوية للنمو التاريخي تؤدي بالحركة البروليتارية ، التي تنشأ في اطار الرأسمالية ، الى «التريد ـ يونيونية» ، البورجوازية المضمون ، وبأن أفكار الاشتراكية التي تشكل هذه الحركة في قوة سياسية مستقلة لا تأتيها الا **«من الخارج»** ، اي من اوساط الانتلجنسيا . ان لينين ، باقتصاره على وصف سيرورة تاريخية بدل تفسيرها ، متجاهلا تكافل صراع الطبقات للبروليتاريا في مراحله الاولى مع حركة الفكر في الوسط الثوري الديموقراطي الذي تنصب منه («من الخارج») في البروليتاريا الافكار التي تخصب الحركة ، قد وضع رسما تخطيطيا ينطبق اكثر ، في جوهره ، على سياسة الحزب الاشتراكي ـ الثوري منه على سياسة الحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي .

لكن لينين لم يكن يسعى الى تعميق الماركسية نظريا او الى تحريفها . كان يسعى فقط الى اعطاء اساس للصراع الذي كان يتقابل فيه من جهة نزعة الاقلية الاشتراكية ـ الديموقراطية الايسكرية الى تنظيم نضال ثوري منهجي ضد القيصرية . ومن جهة اخرى ، النزعة الواضحة آنذاك ، لدى الجماهير المتابعة لتنظيمات الحزب ، الى الاقتصار على مشاكل النضال من اجل الزيادة في الاجور ومن اجل تحسينات جزئية . كان **«ما العمل ؟»** يبين ضرورة تحويل التنظيم ، **الذي** كان بصدد التشكيل ، **من فوق** ، بواسطة ضغط نواة نشيطة ومتلاحمة من « الثوريين المحترفين » .

كان لينين ، في «ما العمل ؟» يقيم عبادة حقيقية لـ«الثوريين المحترفين» ، فكان يعتبرهم بمثابة الرافعة التي تمكن الحزب من تحريك وتسيير الجماهير الهائلة باستخدام صراع شتى الطبقات

ضد الاوتوقراطية . وكانت هذه العبادة تملي عليه اكثر النتائج تطرفا فيما يتعلق بمشكلة بناء تنظيم الحزب : كان لينين لا يعترف بمبدأ الانتخاب في التنظيم ولا بمبدأ المراقبة الديموقراطية لجماهير المنخرطين في الحزب على الهيئات القائدة . وكان هذا العـــداء المفرط لـ «الديموقراطية التنظيمية» في نفس الوقت طبيعيا وغير ضار نسبيا ، نظرا لانه يعبر عن قناعة ، تؤكدها التجربة ، بأن من المستحيل نقل بنى الاحزاب العمالية الاوروبية في شروط السرية وفي شروط تنظيم تآمري مثل الذي كان يميل اليه «الاقتصاديون» . لكن ، سرعان ما يصبح هذا العداء خَطِرا نظرا لان الشكل المطلق الذي كان لينين يعطيه لمفاهيمه يسمح باستنباط نتائج مشابهة وتعميمها على كل حزب عمالي ثوري حقا ، بقطع النظر عن الشروط التاريخية .

وقد تجلت هذه النزعة بكل قوتها عندما بدأ النظام القيصري يتفكك ، تحت تأثير الحركة الاشتراكية ـ الديموقراطية نفسها ، وعندما استطاع عمل الحزب ان يزداد نموا وان يأخذ أشكالا شتى. وأمام هذا التبدل للشروط ظهر الانصار الاكثر تزمتا لمفاهيم لينين التنظيمية بمظهر الاعداء الالداء لكل محاولة لبناء الحزب كجماعة عمالية جماهيرية مستقلة ذاتيا ، وكان تشبثهم بالمركزية التنظيمية المدفوعة الى حد العبث يضاهي تشبث اللّصالي شفايتـــزر (١) واتباعه بها .

لقد وجدت هذه المركزية تتويجها في «ما العمل ؟» وتبريرها التاريخي ، ان أمكن القول ، في الديكتاتورية الفعليـــة **لمنظري**

---

١ ـ جان ـ باتيست شفايتزر (١٨٣٣ ـ ١٨٧٥) ، عمل مع لاسال في تنظيمه **الاتحاد العام للعمال الالمان** ، وكان رئيس تحرير الجريدة الناطقة باسم هـــذا التنظيم سنة ١٨٦٤ ، وانتخب رئيسا للاتحاد سنة ١٨٦٧ بعد موت لاصـــال . استعمل سلطاته بطريقة ديكتاتورية وبعد عن رئاسة الاتحاد سنة ١٨٧١ .

الحزب الذين كان من المفروض ان يكون لهم السلطة العليا في الحزب ، كضمان لسد الطريق على كل انحراف عن مصالح البروليتاريا الحقيقية من قبل تنظيم الثوريين المحترفين ، قادة الحركة العظماء . وهكذا فان اعطاء القيادة العليا للحزب لجماعة من القادة الايديولوجيين ، حراس «الارثوذكسية» الماركسية قد حل محل ديموقراطية التنظيم والطابع الجماهيري للحزب اللذين اتخذت منهما الاحزاب العمالية الاوروبية ضمانا ضد التقلبات والانحرافات . هنا تقترب افكار لينين كثيرا من المفاهيم التنظيمية عند لسال وشفايتزر التي اضطرت الاشتراكية ـ الديموقراطية الى مكافحتها لتتشكل وتنمو .

رغم كل أخطائه النظرية وكل احتدامه العملي ، وربما من جرائها بالذات ، فقد كان لـ «ما العمل ؟» ، كما قلنا ، شعبية لا نظير لها . لقد تجاوب هذا الكتاب بوضوح مع عقلية المنظمين الاكثر نشاطا والمحرضين في الحزب ، الذين أضجرتهم سنون عديدة من الركود في ميدان التنظيم ، بالاضافة الى ضعف ما كان يسميه لينين «الهواية الحرفية» التي كانت تسم عمل اللجان وتحد من حجمه . ان افكار لينين التنظيمية ، بصفتها جوابا على مشكلة صعبة ، مشكلة تنظيم حركة جماهيرية **سرية** تآمرية الى حد بعيد، هي **افكار الحقبة** الى درجة ان ب. ف سافنكوف ، الذي كان منفيا آنذاك في فولوجدا ، قد صاغها ، في نفس الوقت ، بنفس العبارات تقريبا وبصرامة اشد ، في مقالة طويلة حول طابع عمل الحزب ، بعثها الى لجنة تحرير **الايسكرا** .

(ل. مارتوف ، **تاريخ الاشتراكية ـ الديموقراطية الروسية**، ج١ ـ ١٩١٨ ، بيتروغراد) .

بارفوس و « ما العمل ! »

بعد الحرب

(نشر هذا المقال في الايسكرا عدد ١١١ وعدد١١٢ ، ٢٤سبتمبر و٨ أكتوبر ١٩٠٥ . وأورده بارفوس في كتابه «روسيا والثورة» الصادر سنة ١٩٠٧ في سانت ـ بترسبورج) .

الانتلجنسيا فردانية Individualiste بالعكس من البروليتاريا التي تستمد قوتها من التضامن الطبقي . الانتلجنسيا تخلق أبطالا وتتعلق بركابهم منجرفة بالامثولة الفردية او خاضعة للتأثير الشخصي . شكل النضال السياسي الشامل الذي تفضله هو شيء ما شبيه بهجمات الكوزاك او بالقصف على الطريقة الامريكية، اي هجومات تشن جماعيا لكن بوحدات منفصلة او بفصائل صغيرة ومعزولة . والاشتراكيون ـ الثوريون ، خاصة ، هم الذين اهتموا بهذا التاكتيك اهتماما كبيرا . على انه يمكننا ان نتصور تمركز الانتلجنسيا الثورية تمركزاً صارما في شكل ديكتاتوري من جراء فردانيتها بالذات . وعلى هذا الاساس تقوم خطة لينين التنظيمية . لقد كافح لينين الهواية الحرفية ، لكنه هو نفسه قد

وحّد الحلقات تقريبا كما يوحّد رب العمل الحرفيين الذين يزودهم هو نفسه بالمواد الخام . لا شك ان هؤلاء الحرفيين ، الموحدين من طرف رب العمل ، يشكلون في يده قوة اكبر من التي كانوا يمثلونها عندما كانوا مجزئين ومستقلين ، لكن هذا الشكل من التجميع لا يؤلف بعد مصنعا رأسماليا كبيرا ، وكذلك الحلقات الموحدة من طرف مركز لا تؤلف بعد حزبا سياسيا . كان ينبغي اخراج الحركة من عقلية الحلقات ، لكن لينين بمركزته للحلقات قد عزز ، على النقيض ، هذه العقلية . فالمهمة الاساسية للاشتراكيين ــ الديموقراطيين الروس لم تكن مركزة الثوريين المحترفين ، بل **ادخال خميرة تنظيمية في الجماهير العمالية**، ومنها يخرج الحزب السياسي المركز . والنتيجة التي وصلت اليها الاشتراكية ــ الديموقراطية الروسية هي انه بدل ان تنضم الانتلجنسيا الى البروليتاريا فقد وقع مجرد تعليق العمال على صدر الانتلجنسيا (...) .

لا يمكننا الحديث عن اللينينية بالتدقيق الا في هذا المعنى : انها اقوى تعبير اعطاه لينين ، في «ما العمل ؟» وفي القرارات التي تبناها المؤتمر الثاني تحت تأثيره ، لمجموعة من الافكار السياسية والتنظيمية لم يكن هو نفسه متأكدا منها . ولم ينجح الذين كانوا يقاومونها في زعزعتها دائما .

نقطة الانطلاق في مخطط لينين التنظيمي هي التآمر . وهي في ذاتها نقطة خاطئة منذ البداية. ان حزبا اشتراكيا ثوريا مواجها للسلطة الحكومية لا يستطيع، بالتأكيد ، الا ان يأخذ بعين الاعتبار القمع البوليسي . لكن ليس أقل استحالة من ذلك اقامة حركة تاريخية على اساس ضيق ، اساس النضال ضد البوليس . في تنظيم حزب جماهيري ينبغي ان تقدم مصالح التحريض على مصالح التآمر (...) .

ما ان يصبح العمال قادرين بأنفسهم على اعادة بناء التنظيمات ــ بطريقة مرضية او غير مرضية ــ التي يحطمها القمع ، حتى

يصبح البوليس عاجزا امام الحركة . فالمهمة التي كان ينبغي القيام بها هي اذن **تعليم العمال كيف ينظمون انفسهم بأنفسهم** ، وليس تشكيل تنظيم فوق رؤوسهم واخضاعهم لتبعيته . ونظرا لعدم نضج العمال سياسيا وقلة تجربتهم فالفشل كان ، **بالتأكيد**، حتميا . ومعرفة الى اي حد كان يمكن بناء تنظيم في الشروط البوليسية للاستبداد ، هي مسألة قابلة للنقاش . لكن ما لا شك فيه هو ان تشكيل حزب اشتراكي ـ ديموقراطي ليس ممكنا الا **باندماج** التنظيم في الجماهير وليس **بانفصاله** عنها .

في «ما العمل ؟» تختلط الافكار التآمرية الضيقة الافق والنابعة من ارض الانتلجنسيا الروسية بالمفاهيم العامة الخاطئة . وهذه الاخيرة ناتجة عن تقييم خاطىء لصراع الطبقات عند البروليتاريا الروسية والعالمية في آن معا . حسب «ما العمل ؟» ، الحركة العمالية المتروكة لقواها الخاصة ، لا تقطع ، خلال نموها العفوي، مع النظام الرأسمالي ، بل تتكيف مع هذا النظام . فتشكل نقابات وحزبا برلمانيا ولسنا ندري ماذا . ان هذه الطريقة في تصور الاشياء طريقة برنشتاينية تماما . لكن لينين يرفض استنباط نتائج سياسية برنشتاينية من الاشتراكية البرنشتاينية . بل نراه على النقيض يكافح تلك النتائج . لينين انتهازي بالمقلوب . يفترض مبدئيا ان الحركة العمالية انتهازية ثم يريد تثويرها . ولهذه الغاية نراه يستخدم افكار الاشتراكية الثورية . ان العمال لا يؤسسون الاشتراكية كتصور للعالم السياسي ، لكنهم يؤسسون الثورة الاجتماعية ، وهذا يمثل الغاية والمنبع **الموحّدين** لكل نضالهم . وهذا ما يغفله الانتهازيون . لكن الافكار الاشتراكية ليس لها معنى الا بقدر ما تعبر عن هذه السيرورة التاريخية الفعلية . **يحوّل لينين المادية التاريخية الى ايديولوجيا** . في نظره ، ينبغي على العقيدة ان تغير طابع التطور السياسي . ومن ذلك يستنتج المهمة التنظيمية التي يجب حلها : ان الماركسيين المثقفين ، وقد اصبحوا اقوياء بتمركزهم ، يقودون الجماهير العمالية في اتجاه اشتراكي ـ

ثوري . وهذه المهمة ، في نظر لينين ، تطابق مطابقة تامة فكرة تنظيم الثوريين المحترفين .

لينين كاتب يتبع خطا مستقيما ، يجهل الفوارق الدقيقة . وهو ، كرجل سياسي ، يستطيع ان يقف على راسه ، لكنه لا لا يطيق التأرجح. عندما كتب لينين «ما العمل؟» كانت الاشتراكية ـ الديموقراطية الغربية تعيش حقبة غموض .

«يشير بارفوس الى انتصار الانتهازية وقتئذ في كل مكان ، في المانيا مع برنشتاين ، في ايطاليا ، في فرنسا مع ميللران ثم جوريس ، في هولندا ، في سويسرا . «وكان لا يمكن ألا ينعكس ذلك في البلدان المتخلفة التي لم يكن لها احزاب عمالية خاصة وحيث كانت الاشتراكية تتغذى اساسا من مجد الاشتراكية ـ الديموقراطية الغربية» . وهذا يفسر ظهور الانتهازية ، في روسيا ، والمتمثلة في ستروفي وفي الاقتصادية» .

أصبح لينين حينئذ ضحية صلابته التبسيطية . وبما انه كان عاجزا عن فهم جذور الانتهازية فقد تحوّل سياسيا الى مضاد ـ لستروفي (١) .

لينين عاجز عن ان يغير اتجاه سيره . انه لا يعرف الا نوعا واحدا من الحركة : **الى الامام** ! واذا جعلته بعض القوات الخارجية يدير ظهره الى الهدف الذي يرمي اليه ، فهو يتابع سيره دائما **الى الامام** . كان لينين من انصار الشرعية في الحزب الى حد الشكلية ، لكنه ما لبث ان قام بانقلاب داخل الحزب نفسه . وكان منظم المثقفين ، لكن ما ان أحس بالارض تميد تحت رجليه حتى طفق يكتب أعنف مقالاته ضد المثقفين ونصب قاعدة تمثال لنفس تلك البروليتاريا التي أظهرها لنا في «ما العمل ؟» محصورة في طريق الانتهازية المسدود اذا ما تركت لقواها الخاصة .

---

١ ـ أبرز الناطقين باسم الماركسية «الشرعية» .

تروتسكي و « ما العمل ! »

«مهامنا السياسية» (مقتطفات)

(كتب هذا الكراس ونشر في جنيف سنة ١٩٠٤)

ان مخطط لينين التنظيمي، المتمثل لا في تلك المقالة البيروقراطية **(رسالة الى رفيق من بترسبورج)** بل في مقالته **من اين نبدأ ؟** او في كراسه **ما العمل ؟** ، لم يكشف بالتأكيد عن اشياء جديدة بل اجاب اجابة صحيحة على هذا السؤال : من اين نبدأ ؟ ما العمل لجمع العناصر المشتتة للتنظيم المقبل للحزب وتوفير امكانية طرح مهام سياسية واسعة ؟ **كيف** سيحقق هذا التنظيم ، الذي كان بصدد التكون ، المهام التي كان يعتبرها مبدئيا كمهام له ؟ هذه مسألة تركها لينين جانبا بالطبع . اكرر ، ان «المخطط التنظيمي» المزعوم ـ ولينين نفسه كان يشعر بذلك عندما كان بصدد تحضيره تدريجيا ـ لم يكن يشمل بناء الحزب نفسه بل كان يقتصر على البناء الخشبي الذي يقام اثناء تشييد البناية .

(ثم يخصص تروتسكي فصلا كاملا بعنوان «النظرد الاستبدالية السياسية !» لنقد مفهوم لينين النظري للحزب :

اننا امام منهجين لبناء الحزب : منهج الذين يريدون التفكير بالنيابة عن البروليتاريا ، الاستبدال السياسي للبروليتاريا ، المناقضان للتثقيف السياسي للبروليتاريا ومع**تعبئتها** السياسية لتمارس ضغطا عقلانيا على ارادة كل المجموعات والاحزاب السياسية . وهذان المنهجان يؤديان الى نتائج مختلفة موضوعيا اختلافا تاما .

(ثم يهاجم تروتسكي تاكتيك لينين فيما يتعلق بالدعم النقدي لمبادرات المعارضة الليبرالية : «ان تاكتيك لجاننا ، التي تصرخ من حين لآخر ببيانات من وراء البروليتاريا (...) يشبه في اكثر من نقطة تاكتيك الزمتسيين اللبراليين الذين «يدافعون» عن «الشعب» لدى الاوتوقراطية (...) . وبما ان لجاننا قد حلت محل البروليتاريا فهي ، بدل ان تنظم الرأي العام البروليتاري من اجل ضغط مباشر على الرأي العام الديموقراطي البورجوازي ، تتوجه الى هذا الاخير ببياناتها باسم بروليتاريت(ها)» .)

ان نظام الاستبدالية السياسية ، تماما مثل نظام «التبسيط الاقتصادي»» ، يولد ، بوعي او بدونه من الفهم السقيم والسفسطائي للعلاقة بين مصالح البروليتاريا الموضوعية ووعيها . تعلمنا الماركسية بأن مصالح البروليتاريا تحددها الشروط الموضوعية لحياتها . ان هذه المصالح من القوة والحتمية بحيث ترغم في النهاية البروليتاريا على ادراكها بوعيها الخاص ، اي تحويل نجاح مصالحها **الموضوعية** الى مصلحتها **الذاتية** . ان طريق الهزات والضربات ، الاخطاء والخلاص من الاوهام ، التذبذب والهزائم التي تولدها الحياة يفصل هاتين اللحظتين : واقع المصلحة الطبقية الموضوعي ، ووعي البروليتاريا الذاتي له ، اهداف تاكتيك حكيم للحزب العمالي توجد كاملة بين هاتين اللحظتين وتقوم على اختصار وتسهيل الطريق الذي يصل بينهما (...) .

كلما كانت المسافة التي تفصل اللحظتين ، الموضوعية والذاتية ، طويلة، اي كلما كان المستوى الثقافي للبروليتاريا متدنيا كلما كان ظهور اساليب (كأساليب لينين) امرا طبيعيا في الحزب، هذه الاساليب التي تمثل بشكل او بآخر **تهربا** امام المصاعب الهائلة للمهمة الملقاة على عواتقنا . الاستبدالية السياسية تماما كما في نقيضها « تقرير المصير » عند « الاقتصاديين » ليست الا محاولة يحاولها الحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي الفتي لـ «التحايل على التاريخ» . ينطلق «السياسيون» خلافا «للاقتصاديين» من المصالح الطبقية للبروليتاريا. هذه المصالح التي حددها المنهج الماركسي . لكن السياسيين يتهربون بجبن لا يقل عن جبن «الاقتصاديين» من «المسافة» التي تفصل بين المصالح الموضوعية والمصالح الذاتية للطبقة التي «يمثلونها» من حيث المبدأ. في نظرهم كما في نظر «الاقتصاديين» لا وجود لمشكل تاكتيك سياسي بالمعنى الدقيق للكلمة (...)

وهكذا فاذا كان «الاقتصاديون» لا يقودون البروليتاريا لانهم **يحبون وراءها** ، فان «السياسيين» لا يقودون البروليتاريا لانهم **يقومون بأنفسهم بمهامها الخاصة** . اذا كان «الاقتصاديون» قد انسحبوا امام المهام الهائلة التي يجب الاضطلاع بها لانهم كانوا يحددون لانفسهم دورا مفرط التواضع ـ السير **في ذيل التاريخ** ـ ، فان «السياسيين» يحلون المشكلة محاولين تحويل التاريخ **الى ذيل لهم** (...)

وفي السياسة الداخلية للحزب تؤدي هذه المناهج الى ان يحل تنظيم الحزب محل الحزب ، ان تحل اللجنة المركزية محل تنظيم الحزب ، وأخيرا الى ان يحل «ديكتاتور» محل اللجنة المركزية (...) .

ان مهام التنظيم ، في نظرنا ، خاضعة خضوعا تاما لمناهج تكتيكنا السياسي ومطابقة مشاكل التنظيم للحزب البروليتاري

بمسألة تقنية مثل «تحديد افضل الوسائل للنضال ضد البوليس» هي ، في نظرنا ، افلاس تام . واذا كانت شروط العمل التآمري «تسبب» هذه المطابقة فان ذلك يعني ــ كما يقول بارفوس في بضعة سطور عنيفة ضد نظام لينين ــ ان الكفاح ضد الجواسيس يزيح الى المحل الثاني الكفاح ضد الاستبداد والكفاح ، الاكثر اهمية ، من اجل تحرير الطبقة العاملة» (...) .

في مقالة طويلة بعنوان «اللينين والايسكرا القديمة» نشرت في البرافدا ٥ مارس ١٩٢٤ ، لا يتحدث تروتسكي عن «ما العمل ؟» الا عابرا .

في كتاب «حياتي» المكتوب سنة ١٩٢٩ ، لا يتحدث تروتسكي مباشرة عن «ما العمل ؟» ، لكنه ، مستذكرا قطيعته مع لينين ، ابان المؤتمر الثاني ، يقول :

لقد كان ، في الواقع ، لخلافاتنا طابع سياسي لم يتجل الا في ميدان التنظيم . كنت اعتبر نفسي مركزيا . لكن مما لا شك فيه انني لم اكن وقتئذ ارى بالتدقيق الى اي حد كان نظام شديد المركزية وآمر ضروريا للحزب الثوري لتجنيد الملايين من البشر ضد المجتمع القديم . وفي ايام مؤتمر لندن ، ١٩٠٣ ، كانت الثورة ما تزال بالنسبة الي تجريدا نظريا او تكاد . لم تكن المركزية اللينينية ، في نظري ، تتبع بعد مفهوما ثوريا واضحا ومدروسا درسا شخصيا » .

وفي كتاب «ستالين» الذي بدأ تحريره سنة ١٩٣٩ ولم ينهه بسبب اغتياله ، يتحدث تروتسكي في فقرتين مختلفتين عن «ما العمل ؟» ومشكلة المركزية البلشفية :

«يحاول لينين في «ما العمل ؟» ان يحدد علائق الحركة العمالية العفوية بالوعي الاشتراكي . في نظر لينين ، تتبع الحركة العمالية ، المتروكة وحدها ، حتما طريق الانتهازية . فالوعي الثوري يجلب اليها من الخارج من طرف المثقفين الماركسيين .

وليس الوقت سانحا هنا لنقد هذا المفهوم الذي ينتمي الى سيرة لينين وليس الى سيرة ستالين . اعترف مؤلف «ما العمل ؟» نفسه فيما بعد بالطابع الوحيد الجانب ، والخاطىء بالتالي ، لهذه النظرية التي وجه نيرانها ، في فترة معينة ، ضد الاقتصادية المبالغة في احترامها لعفوية الحركة العمالية . وبعد قطيعته مع لينين ، قام بليخانوف بنقد متأخر لكنه عنيف لـ «ما العمل ؟» (...) .

لقد كشفت نزعة البلشفية للمركزة أوجهها السلبية منذ المؤتمر الثالث . تكونت روتينات «الجهاز» منذ ذلك الوقت في الشروط غير الشرعية . كانت ملامح بيروقراطية ثورية فتية تتضح (...) . في كراس بعنوان **مهامنا السياسية** كتبته سنة ١٩٠٤ كان النقد الذي وجهته ضد لينين ينقصه غالبا النضج والصحـــة ، غير ان هناك صفحات تعطي فكرة صحيحة تمام الصحة عن كيفية تفكير «اللجنتية» Comitards وقتئذ ، الذين «كفوا عن الشعـــور بحاجة للاعتماد على العمال مذ وجدوا سنـــدا في «مبـــادىء» المركزة (...) . كان الحزب يتألم من عجرفة مكاتبه وكانت تلـك بداية البقرطة » .

(سنة ١٩١٧) «ان الثورة ، بفتحهـــا مجال عمل واســـع للديموقراطية ، قد أرضت «الثوريين المحترفين» لمختلف الاحزاب اكثر بكثير مما أرضت الجنود بالخنادق ، الفلاحين بالقرى والعمال في مصانع الحرب . لقد اصبح المناضلون السريون بالامس يلعبون دورا كبيرا فجأة . فقد حلت بالنسبة اليهم السوفياتات محـــل البرلمانات ، فأصبح يمكنهم أن يتناقشوا فيها بحريـــة ويتخذوا القرارات . في وعيهم بدأت التناقضات الاساسية بين الطبقات التي ولّدت الثورة ، ان امكن القول ، تذوب تحت اشعة شمس الديموقراطية (...) . بيد ان التناقضات المتأصلة كانت تأخذ ، في الخنادق ، في القرى وفي المعامل ، شكلا حادا وضاريا اكثر فاكثر مبشرة ، لا بالوحدة ، بل بالحرب الاهلية . كانت حركـــة

الطبقات ومصالح اجهزة الاحزاب تدخل ، كما هو الحال غالبا ، في تناقض حاد . فحتى كوادر الحزب البلشفي ، الذين اكتسبوا حنكة ثورية استثنائية ، قد أظهروا غداة قلب الملكية ، نزعة واضحة الى الانفصال عن الجماهير والى الخلط بين مصالحهم الخاصة ومصالح الطبقة العاملة . كيف يكون اذن الامر عندما يصبح هؤلاء الكوادر يشكلون بيروقراطية الدولة الكلية السلطة ؟» .

الفهرس

لماذا هذا الكتاب ؟

هــذا أول كراس يبحث جدياً اشكالات التنظيم . وهــو ضروري لقراءة نصوص ماركس – انجلز التي ستصدر تباعاً . انه يحاول ان يجيب نقدياً على بعض هـذه الأسئلة الجوهرية : هل المطلوب ثورة اشتراكية قوامها التسيير الذاتي الشامل لجميــع مرافق الحياة .. أم المطلوب ثورة بيروقراطية قوامها السيطرة الشاملة على جميع مظاهر الحيــاة ؟ مــا هي الذات الثورية ؟ أهي البروليتاريا الثورية أم الحزب ؟ هل الحزب بديل للطبقة أم هي لا بديل لها ؟ هل للتنظيم اهداف منفصلة عن الطبقة ؟ ما هي علاقــة التنظيم بالجماهير ؟ هل وعي البروليتاريا مفصول عــن صراعها الطبقي؟ ما هو شكل ومضمون ديكتاتورية البروليتاريا؟ ما هو شكل ومضمون التنظيم الحديث ؟ ما هي العلاقــات التي ينبغي ان تسود بين أعضائه ؟ ما هو دور المنظرين المعزولين ؟.



دار الطــليعة للطبــاعة والنشــر
بــيروت

الثمن : ٥٠٠ ق. ل.
٧٥٠ ق. س.